رجل ناقص

محمد عبد المنصف

اسم الكتاب: رجل ناقص
تأليف: محمد عبد المنصف
الإخراج الداخلي: د. شيماء محمد أبوطالب
تدقيق لغوي: أمل عبدالله حسن
تصميم الغلاف: محمد علي
الطبعة الأولى: 2023
رقم الإيداع: 2834 /2023
الترقيم الدولي:5- 10 - 978-977-8957

مزاج الكتب
نشر وتوزيع

ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339

الأهداء

لك أخي أولًا، فلولا دعمك ما فعلت.
ولكِ زوجتي، فلولا وجودكِ ما اتزنت.
ولمن رحلوا وفارقونا، ولمن بقوا وأسعدونا..
أهديكم روايتي الأولى.

المقدمة

هذه قصــة رجل ناجح، اســتطاع تتويج كل مجالات حياته بالأفضل؛ فدرِس وعمِل وسافر واجتهدْ وتزوّج وأنجب، وحقّق كل ما يتمناه شـخص آخر. إلا أنّه لم ينجح في شـــيء واحد.. الحُب، فقد ظلّت فجوة في قلبه ناقصــة وفارغة تمثّل العاطفة، ولم يســتطِع ملء تلك الفجوة بكل ما وصـــل إليه من نجاحات، فكانت النتيجة أن يســـعى وراء كل فرصـــة ولو ضـــئيلة لملء هذا النقص، ولسَـــد تلك الثغرة، ولشـــغل هذا الفراغ العاطفي الذي أفقد حياته التوازن.

هذه قصــة رجل ناقص مثلنا جميعًا، كان ينقصُــه الحب، والحب في الحياة حياة، فكيف يعيش في الحياة بلا حياة!

وَما نَيلُ المَطالِبِ بِالتَّمَنّي

وَلَكِن تُؤخَذُ الدُّنيا غِلابا

وَما استَعصى عَلى قَومٍ مَنالٌ

إِذا الإِقدامُ كانَ لَهُم رِكابا

أحمد شوقي

غُربة من أجل المال

يوم صيفي طويل ومُجهد من العمل في صحراءٍ قاسية وطرقٍ غير ممهدة، الحفر مستمر لما يشبه الخندق الممتد، يتبعه إزالة للكثير من الرمال والصخور، الغبار يحيط بموقع العمل كأسراب نحلٍ ملتفة حول خليتها لو كنت تشاهد من بعيد، الشمس ليست حارقة رغم انتصاف يونيه، واكتفت بالتلصص على موقع العمل من خلف اجتماع سمائي لبعض السحب الضخمة، فبدا الجو بذلك ألطف، عادةً لا يكون كذلك في معظم أراضي العراق، وأنت على هذه الحال في العمل منذ السابعة صباحًا بغير راحة.

هكذا غالبًا ما يكون الأمر مقرونًا بالمعاناة لصنع مستقبل مشرق تسمّيه مجدًا في أوقات أخرى أكثر ترفًا.

إن كسب المزيد من الدولارات يستحق ذلك بالتأكيد، والمال قوة ووسيلة لا يُستهان بها في هذا العصر. أما مَن ادعى بأن السعادة لا تقترن بالمال فلا تلتفت إليه ولا تستمع لأساطيره البالية، ثم إنك لا تشعر بأي ضيق من تلك المعاناة، هذا ما تعشقه، فحاجتك إلى العمل كحاجة قلبك للدماء، تعمل فتكسب.. هذا لون من ألوان السعادة في حياتك، أنت مع العمل لا تشعر بجهده كالباقين، العمل كعملية التنفس لإنسان طبيعي، تحدث دون جهد منه ولا غنى عنها، ومن دونها تموت حتمًا، وهذا ما اعتدت أن تفعله.

أما الفراغ فمُميت ومؤلم لا فائدة منه، وفكرة ألا تقوم بشيء ذو قيمة تفعله ليست فكرة من الأساس في قاموس ثقافتك.

يطرق على بوابة الذكريات العملاقة، ذات الزخارف العتيقة المنمقة، موقف لصديقك مراد، عندما فاجأك بإحضار تذكرتين لمشاهدة عرض فيلم سينيمائي من أفلام الحركة والإثارة للممثل "توم كروز"، كان ردك عليه يومها مفعم بالاشمئزاز: "أنت مجنون! أأمكث ساعتين لا أفعل شيئًا سوى أنني أشاهد فيلمًا!".

جرت العادة من يومئذ أن تملأ أي فراغ بما ينفع؛ وهنا يقل عدد الأصدقاء لأدنى رقم يمكن، ويغيب الكثير عن وطن الذاكرة، ويسقط من يسقط مرة من بعد مرة من دوائر الاهتمام، حتى يصفو لك في أصغر دائرة فيهم واحدٌ أو اثنان على الأكثر، وقد كان

مراد أحد هؤلاء الذين تمسكوا بك حتى نقطة الارتكاز، وإن لم يغرم بطريقتك في الحياة كثيرًا.

اقتربت الساعة من الثانية ظهرًا الآن ولم يتبقَّ الكثير من العمل.. تنظر بعيدًا نحو الأفق في الصحراء الممتدة، تراه موحشًا لا يشبه ما تعلّق بذاكرتك النقية عن ريفكم الجميل بمحافظة القليوبية، وعلى الرغم من ذلك تذكرت بهذا المنظر يوم أن كنت غلامًا بالصف الأول الثانوي، وكانت إجازة نصف العام قد آنت، وقد اعتدت أن تقضيها مع خالك مجدي في قريتكم، حيث البيت الكبير الذي يعمره الأجداد والجدات المباركين دومًا.

لطالما انتظرت بصبر حتى انتهاء الامتحانات وبدء الإجازة لتطلق لنفسك العنان إلى هناك، تتوجه لمحطة القطار بعد آخر امتحان لتقوم بحجز مقعد في أول قطار متجه إلى "المدينة الفاضلة"، كما تحب أن تُطلق عليها، لا تريد أن تفوتك دقيقة واحدة من إجازتك بدون الاستمتاع بكل معالم الحياة النقية هناك.

الحياة الريفية ليست صاخبة ولا متوترة، العنف نادر والبساطة هي العُملة المتداولة، البال رائق ومصفّى من الهموم.. تنعم بصحبة الخال مجدي منذ الفجر وحتى الظلام، يصطحبك حيث الغيطان الخضراء الممتدة نحو كل الزوايا، والتي لم تكن تلوثت كثيرًا حينئذ بالمكعبات الحمراء العملاقة التي يتخللها الأعمدة الخرسانية رمادية اللون، بيد أنك كنت تراها بعين مهندسٍ صغير، مجرد أشكال هندسية غير متناسقة الألوان مزعجة للنظر، تبدو شاذة أيضًا مع خلفيتها الخضراء المتصلة بخط السماء.

لقد خرق الكثيرون القانون وشيدوا المباني السكنية وسط الأراضي الزراعية، ولئن سألتهم عن حُجتِهم في ما فعلوا لأجابوك بحجة تبدو بالغة، فهم يودون أن ينعموا بحياة أكثر تحضُّرًا ومدنية كالتي يعيشها أهل المدن والحضر، كما يلزمهم أن يكونوا على مقربة من أراضيهم التي هي مواطن أعمالهم الأساسية. هذا من حقهم ولا شك، لكنَّ الكثرة العارمة من أي شيء غير مألوف مقلقة ومنفرة دومًا، بل وقد تنذر بالدنو من حافة الخطأ و انحدارات الطغيان، ناهيك أن صورة الطبيعة تبدو مقززة، حيث لا تتمكن من محاكاتها كما ينبغي.

في الريف عينك تلقى الراحة في إمعان النظر إلى اللاشيء البعيد، هناك الأفق حيث تنتظرك الأمنيات كلها، ترى بعضًا منها يتهادى نحوك، والبعض الأروع - في يقينك

- قد أُخفي عنك فلا تستطيع إحاطته الآن بنظرك القاصر البدائي، لكنك تثق حينها أن لديك في الخيال المستقبلي أحلامًا مؤجلة عليك تحقيقها حال رؤية شمسها تشرق في سماء أيامك، فالأحلام والطموحات لا حدّ لها ولا نهاية.

عدت يومًا مع خالك من الحقل وقد صليت معه صلاة المغرب، وبدا التعب والإرهاق عليكما، فأراد الخال أن يهون عليك قليلًا ويسليك، ويقوم أيضًا بدوره التربوي بأسئلةٍ قد اهترأت من فرط الاستخدام، فدار حديث قصير بينكما:

- أخبرني يا كريم.. ماذا تودّ أن تصير مستقبلًا؟

وكانت إجابتك ثابتة لا تتغير عن هذا السؤال:

- أريد أن أكون مهندسًا مثلك يا خالي، أسافر كثيرًا وأرى بلدان العالم، أقضي بعض الأسابيع من العمل بالخارج منقّبًا عن البترول، ثم أعود لأنعم بإجازة هنا في الريف، فأجمع بذلك بين متعة العمل ومتعة الحياة الهادئة.

كنت تعرض له أحلامك وطموحاتك بكل عفوية وقد رُسِمت ابتسامة عريضة على وجهك الأبيض الذي تشرّب بحمرة من أثر الجو.. لم ينفكّ المرح يغمر وجهك و أنت تعيد الإجابة نفسها عن السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا، لم تملّ يومًا من ذِكر ذلك للجميع ولم تنسَه.. هذا حلمك الأول وغايتك الوحيدة، وأصبح خالك قدوةً لك في هذه الغاية، ولم تكتفِ بذكر ذلك لكل السائلين وحسب، إنما أيضًا كنت ترده مع نفسك كل ليلة أمام مرآة غرفتك، أو أثناء تجوالك على الزراعية شارد الذهن.

ربَت الخال مجدي على كتفك بما معناه؛ هذا هو ولدي الذي لم ألده.

في القرية وبين أحضان الريف أُورثتَ حب العمل والاهتمام به، رأيت تطبيقًا عمليًّا للقانون الأزلي الذي تعلمته البشرية كلها منذ اكتشاف الزراعة؛ "من زرع حصد"، وصار بعد ذلك هو محور مبادئك كلها، لكنك أضفت عليه قانونًا آخر كنتيجة طبيعية للقانون الأول، وهو "..ومن حصد كسب". وعلى محطات رحلة الحياة علمت أنه أيضًا من كسب هنأ، فكان قانونًا ثالثًا أيضًا.

الطبيعة، والنظافة، والنقاء، والصحة الجيدة، هذا كل ما يتميز به الريف، الطعام الخارج لتوّه أمامك من رحم الطبيعة، الهواء المنعش ليلًا، والفجر الساطع محملًا بالأرزاق نهارًا، كل ما في القرى جميل لأنه طبيعي فقط، وأنت أحببت هذا الخليط العظيم.

*****

ارتسمت على جانب فمك الأيسر ابتسامة ساخرة و أنت على الحال نفسه من النظر بعيدًا نحو أفق الصحراء المقيتة، وقلت في ذات نفسك: "ها أنت ذا يا باشمهندس كريم قد حققت حلمك، هلا سعدت!"، ثم انتبهت سريعًا لحركة الجر افة القادمة نحوك متخذًا خطوتين سريعتين للخلف لتتيح لها المرور ليس من فوق قدمك. أشار إليك سائق المُعدة الصيني الجنسية بإبهامه علامة العمل الجيد، وبادلته الإشارة ذاتها.

لغة الإشارة هي الأفضل وسط هذا الكم من الضوضاء الصادرة من آلات الحفر المحاطة بالغبار المتطاير الذي يعمي العين، كما أن معظم العاملين هنا من جنسيات مختلفة ومن بلاد متفرقة.. الصين، والفلبين، ومصر، وغيرها.. جاءوا ليحصِّلوا رزقًا أوسع في أراضي تحمل الخير في باطنها.

حُصرت الحراسات وقوات الأمن المسؤولة عن حماية المشروع بين الأمريكيين والعر اقيين أصحاب الأرض، أما المشروع ذاته فمشترك بين بلاد عدة أهمهم أمريكا بالطبع التي لها كلمة الحرب لسببٍ واهٍ، ثم نعلم بعد ذلك السبب الحقيقي وراء تلك الحرب، أثناء هذه الفترة الكافية لتحقيق الأغراض تعم الفوضى، وتحل الكوارث، ويفتقد الناس للأمان وللطعام والمأوى كما يفتقدون أحبتهم و أبناءهم وأصدقاءهم، فتعود صاحبة الجلالة لتكون لها الكلمة أيضًا في توفير الأمن، فتنتفع بذلك شركاتها الأمنية، وتوصي بإعادة الإعمار، فتنتعش بذلك شركات المقاولات لها ولغيرها، وتستخرج كنوز البلاد فيتهيأ الجمع للأكل من الكعكة العر اقية التي ستنعش اقتصاد الجميع، وترفع الأسهم بالبورصة، وتنعم شركات البترول العالمية، وترى كل الأيادي تصل إلى الكعكة بمقدار ما ساهمت به في تلك العلاقة الآثمة، بينما أيادي أصحاب الديار لا تصل إليها، ولا ينعمون إلا بالفتات.

على كل حال كنت هناك.. في محافظة البصرة جنوب شرق العراق، ليس بعيدًا عن مدينة الفاو الساحلية، حيث يتمثل دورك في هذا مشروع من ضمن تلك المشاريع الكعكية، تشرف على مراجعة التصاميم الهندسية وعلى عمليات التنفيذ.

المشروع من أكبر وأهم مشاريع خطوط البترول في جنوب العراق، ويهدف إلى نقل النفط الخام عبر خط أنابيب عملاق يصل طوله قر ابة المائتي وسبعين كيلومترًا، تمتد بمحاذاة الحدود العر اقية الإير انية، وتم تقسيم الخط الطويل لمراحل خمس، وكِّلت بإدارة واحدة منها، كما وكِّل لكل مرحلة منها مهندس مصري كفء، شأنك شأن صديقك ماهر، صديق دراستك ومشوارك المهني أيضًا، وزميلك بالشركة، وكلاكما

منغمسان في عشق التحديات والعمل الشاق الذي يدرُّ عائدًا وفيرًا، و اقتناص الفرص أيضًا.

*****

تزداد ثقةً كل لحظة، فأنت تقوم بتنفيذ ما خططت له منذ سنوات، اجتزت الصعاب، وحققت نجاحات عدة بجدارة، ودفعت ثمن كل ذلك حرمان من المرح واللهو في ذروة مراهقتك وريعان شبابك، حتى أكملت قائمة النياشين خاصتك بالزواج، وأسست البيت الأسري صغيرًا وجميلًا كما تمنيت، وما لبث البيت عامًا حتى تعطرت أركانه بصراخ طفلة جميلة سميتها سارة، وعزمت منذ رؤيتها أن تهئ لها حياة أفضل، وترتقي بهم إلى مستوى أرفع وأعلى، ولهذا السبب الوجيه أنت هنا بالعراق.

في الو اقع كان السفر إلى العراق يحمل مخاطرًا تعلمها مسبقًا، لكنه أيضًا يحمل مقابلًا ماديًّا يكافئ تلك المخاطر، وقد اعترض المقربون منك على هذه المخاطرة وعلى هذا السفربالذات؛ رغم أن عملك في الشركة كان كافيًا جدًّا لحياة ر اقية، إلا أنك أيضًا تعمل عملًا إضافيًّا كهو اية وزيادة للدخل؛ فهناك عدة ساعات ما زالت شاغرة في اليوم والليلة وفي أيام الإجازة الأسبوعية، وكل هذه الساعات غير مستغلة جيدًا؛ فقمت بتأسيس شركة صغيرة خاصة في مجال التشطيبات العقارية، أنشأتها بنفسك بعد زواجك مباشرة، وكنت قبل ذلك قد خضت تجربتين كافيتين في هذا المجال مع صديقك ماهر وخالك مجدي.

كانت التجربة الأولى عندما اعتمد عليك خالك مجدي في تجهيز شقته الكبيرة بالقاهرة، فوجدت نفسك تدير الأمر من الألف للياء، لكن الشقة التي أنهيتها ببراعة و إتقان لم يُكتب لها أن تتزين بعروس حتى الآن، حسبها أنها أضافت إليك موهبة ر ائعة جديدة، ومهارة تم اختبار مدى كفاءتها أثناء تجهيز شقة صديقك ماهر بعدها، فتلك كانت التجربة الحقيقية الثانية.

اختلف ماهر آنذاك مع مهندس الديكور الذي كلّفه بالعمل في شقته، وتطور الأمر لإلغاء الاتفاق بينهما، لكنه لم يكن يملك متسعًا من الوقت ليبحث عن بديل له، ولم تسمح له كرامته باستكمال الأعمال مع هذا الرجل الذي وصفه بالمخادع.

صار صديقك في ورطة حقيقية من أمره، فقد تحدد موعد حفل زفافه، وحجز بالفعل قاعة كبيرة للاحتفال، ليُرضِي بذلك أهل خطيبته ببعض المظاهر البر اقة، وقراره بتأجيل الزفاف حتمًا كان ليكلفه مزيدًا من المال، هذا بالإضافة إلى اهتزاز صورته أمامهم.. لولاك.

- اترك الأمر لي.

قلتها له بكل ثقة، وقد سمعها بمزيج من الاستغراب والسرور والأمل معًا.

- كيف ذلك يا كريم؟! لقد وضعني هذا الرجل المستغل في مأزق سخيف مثله.

طلبت منه أن يطلعك على ما تم من أعمال وما كان يريده في بادئ الأمر في تجهيز شقته، وأخبرته أنك من سيقوم بالمهمة كاملة دون الاضطرار إلى وضع يده تحت ضرس ذلك المخادع.

بينك وبين نفسك لم تكن واثقًا إلى حدٍّ كبيرٍ من أن الرجل مخادع بحق، لكنها فرصة ممتازة سقطت برفق على رأسك من السماء، وأنت لا تقول أبدًا للفرص كلمة لا.

توهّج بصيص الأمل في عيني ماهر، وتمسك بذراعك معلنًا ثقته الشديدة بك، ولإضافة الطمأنينة إلى قلبه أخبرته أنك لن تقوم بهذه المهمة مجانًا أو على سبيل المجاملة، ليدرك من ذلك أنك محترف في هذا المجال دون أن يدري، فالناس لا تطمئن سريعًا بمن يقدم لهم الخدمات المجانية، وخصوصًا ماهر الذي يدقق ويحلل كل شيء يدور حوله ليصل إلى نتيجة ما، ومن ثمّ يهدأ.

وهكذا سلّمك على الفور مفاتيح شقته للبدء بأسرع ما يمكن.

أصابه انبهارًا شديدًا بما قمتَ به من أعمال متقنة في وقت قصير، بينما حصلت أنت على مبلغ زهيد حددته خصيصًا لمجاملة صديقك، واعتبرت بقية مستحقاتك ثمنًا لاستثمارك في نفسك للتمكن والاحترافية في هذا المجال.

ومن هنا تخمَّرت في رأسك فكرة إنشاء شركة صغيرة للتشطيبات العقارية، اشترك مراد معك بدايةً في تسويق المشروع، لكنه لم يكمل ما بدأه بسبب السفر.

ازدادت سعادتك بالنجاح، وذاع صيتك في شركتك، وسمع الجميع عنك، وقمت بالفعل بأكثر من عمل مع زملائك في العمل وذويهم بصورة مشرفة.

مدام ثريا هي مديرة قسم شؤون العاملين بالشركة الهندسية التي تعمل فيها في مصر، ولها أيضًا دور لا يقل أهمية عن وظيفتها، فهي المصدر الأوثق للتحقق من أي إشاعة تنتشر في الشركة، فكل ما تتحدث تلك السيدة به أو عنه فقد اشتهر أمره، سواء كان ذلك بحسن السمعة أو بسوئها، فحمدت الله أنها كانت تمدحك بقصائد الثناء ذات يوم أمام المهندس ياسر عبد الهادي الزميل المخضرم ذو الكفاءة والخبرة الواسعة، نوع من المهندسين ذوي شعار "المثالية لا تكفي"؛ الرجل كان يعمل في العديد من البلاد الأوروبية، وقد مكث بألمانيا ثلاث سنوات، فليس غريبًا عليه أن يكون من

أصحاب ذاك الشعار. تمنيت من داخلك أن تعمل في أي مهمة عمل مع هذا الرجل المهم.

قالت مدام ثريا مشيدة بك: "لن تجدوا في إتقانه، وإجادته، وتسليمه للأعمال في المواعيد المحددة، والأهم من كل ذلك أمانته، ليس جشعًا أو طماعًا، فهو الأفضل بين الكثيرين، واسألوا عنه المهندس ماهر أيضًا؛ فله تجربة معه، ولو أن شهادته له مجروحة، فهو صديقه المقرب منذ الدراسة، لكن دعوني أخبركم شيئًا مميزًا عن طريقته في تنفيذ الأعمال؛ لا قدرالله إن حدث خطأ ما وهو المتسبب فيه، فإنه يتحمل كآفة أعباء تصحيحه دون أن يُكبّد عملاءه أية مصاريف إضافية، كل ذلك ابتغاء رضا عملائه.. إنه فعلًا شخص مريح ومحترم جدًّا، سلوني أنا عنه".

في الو اقع لم تترك مدام ثريا لك المزيد لتخبربه من ينوي العمل معك، لقد أجادت تسويقك مجانًا أمام الجميع من الزملاء الذين يعلمون أن مدام ثريا هي الصندوق الأسود للمكان، وكل ما يتحرك به لسانها مبني على الكثير من التمحيص والأدلة، والنميمة الهادفة التي لا تقبل الشك، كنتَ على الدوام ممتنًّا لها وتخشاها في الوقت ذاته.

*****

الر ابعة مساءً بتوقيت البصرة..

لقد انتهى الاجتماع على خير، حان وقت المغادرة والإياب إلى معسكر المبيت.

لم يخطر في ذهنك قط أنك ستحاط يومًا بحراسات خاصة من وإلى العمل!

سيارات دفع رباعي مصفحة بيضاء تتحرك بنظام، يحيط بك من الجانبين جنديان ملثمان ومسلحان بالكامل، بينما يقود السيارة سائق لا يكفّ عن الثرثرة والمزاح مع الجنود؛ لكنه في العادة لا يستقبل ردًّا منهم ولا اهتمامًا، مع العلم أنهم عر اقيو الجنسية مثله ويفهمون جيدًا كل نكاته. لاحقا استقرّ الأمر على أن يترك أحد الجنديين مكانه بالخلف ليجلس بجانب السائق الساخر، وقد أتاح لك هذا العمل مساحة للتنفس، وينذُر أن يكتفوا بجندي واحد فقط في كل سيارة؛ فالأخطار هنا متعددة الهيئات، والصور، والأنواع، و أقرب تلك الأخطار منك الآن هم الأهالي الغاضبون.

أن تضحي أو تغادر مغصوب الإرادة من مكان نشأت فيه وغرست في أرضه الخصبة كل ذكرياتك لتراها تنمو وتكبر شيئًا فشيئًا، أمر على النفس عسير التنفيذ، حتى وإن كانت مبررات ذلك تصبّ في المصالح العامة!

قرارات الحكومات في هذه البلاد ربما لا تعبأ كثيرًا بشأن الأفراد ومصالحهم الشخصية، قدر ما تهتم وتعظم المصالح والمنافع العامة، الغريب أن تتباين اهتمامات الحكومات بين مصلحة شخصية ونظيرتها بقدر مكانة الشخص في المجتمع ومدى نفوذه، وهذا ما تتسم به معظم المجتمعات العربية.

لا تفكر كثيرًا إن كان هذا يروقك أم لا، بل أنت بصدد إلى مدى قد تؤثر عليك مشاركة المصيبة مع هؤلاء الغاضبين بسبب تهجيرهم من أراضيهم، وقرارات هدم منازلهم لتنفيذ هذا المشروع الوطني الضخم؟

من جانب الحكومة العر اقية عدَّت أن تشييد المباني السكنية في هذه المناطق تم بغير إذن أو تصاريح من الدولة؛ الأمر الذي يُعد خرقًا للقوانين بالطبع، لا تدري أي الأمرين سبق الآخر؛ تشييد المباني أم سنّ القوانين! إلا أن الأهالي المسلحين لم يخضعوا لمثل هذه الترهات الملفقة في ثياب القانون، هم يرونها بمثابة تُهمًا مختلقة لشرعنة تهجيرهم من أراضيهم حتى يتثنى لبعض الدول السيادية الأخرى الاغتراف بملء كفوفهم من خيرات بلادهم وأراضيها العائمة على النفط، وحيث إنهم يمتلكون العديد من الأسلحة المتنوعة الخفيفة منها والثقيلة، فقد أدى ذلك إلى زيادة حدّة اندفاعهم وجرأتهم للوقوف رأسًا برأس أمام الدولة، تكررت الاشتباكات كلما سنحت لهم الفرصة، لا يبالون بتحديد عدو بعينه، كل من يقف على أراضيهم مهما كان يفعل فهو عدو لهم، اشتبكوا مع قوات من الجيش وغيرها من الحراسات الخاصة الذين قد سُخِّروا لضمان أمن المشروع والقائمين على تنفيذه في هذه البقعة، وكنت من ضمن القائمين على تنفيذه.

تتساءل أحيانًا كيف سيكون موقفك لو حدث ما حدث هذا في أراضيكم الريفية الجميلة، أم أن الأمر يختلف ولا يوجد وجه مقارنة؟!

هنا على أرض العراق، وعلى هذه البقعة من الخارطة؛ وجدت نفسك مهددًا بالقتل أو الإصابة مع مراعاة التفاؤل.

*****

لا يعلم أحد بتلك المخاطر التي تحيطك سوى صديقك مراد، فهو الذي تأتمنه على أسرارك وكل ما يخصك.. صديق قديم ودائم التواجد معك بكل جوارحه، ومن

قبل سفرك وهو يحاول بشدة أن يقنعك بأن الأمر لا يستحق المخاطرة، لكنك ترى عكس ذلك، فكلما ارتفع معدل المخاطرة ارتفع معها قيمة المقابل، والمقابل الذي كنت تبغي الوصول إليه من العمل هناك ليس ماديًّا وحسب، لكنه مهنيًّا أيضًا.. ستعود بعد عام على الأكثروقد ازدادت ثروتك، وكذلك خبرتك، وحتى يحين ذلك فلا ينبغي أن تقلق أباك أو أمك أو أختك الوحيدة عليك، ولا داعي أيضًا لإفزاع زوجتك علا بمزيد من التفاصيل المرعبة؛ يكفيها هي الأخرى أن تتفرغ للاهتمام بالطفلة الصغيرة سارة بدون توتر أو قلق عليك حال بُعدك عنهما.

وهذا هو ماهر صديق دراستك، ورفيق غربتك حاليًا، صحيح لا يزورك كل يوم لبعد المسافات بينكما في مراحل العمل، لكنك تحدثه هاتفيًّا كل يوم لتضييع الوقت، أو لكسر الملل، وتحاول أن تحاكي قياسه لكل ما يحدث من حولك هنا، فهو يقدس العمل تقديسًا مثلك أو قد يزيد عليك، ففي نظره الحياة بأجمعها مخاطرة كبرى، عليه فيها أن يقتنص كل فرصة، ويحصل على أكبر مكاسب ممكنة، ويحقق ما تصل إليه ذروة أحلامه وأمانيه.

- اسمع يا صديقي، القلق لن يفيدك بشيء.. أريدك أن تنظر إلى مدى كفاءة الحراسات والإجراءات الأمنية وحسب، فالأمر هين ما دامت وحدة المعيشة ونطاق السكن والعمل مؤمّنين بالكامل.

ترد ضاحكًا عبر الهاتف:

- لذلك أعتمد عليك دومًا في الأمور العملية يا رجل، أنت لا تفكر بقلبك أبدًا، وكلامك هذا يُريحني شيء ما.

ماهر يصلح دومًا لتشاركه أفكارًا وطموحات حالمة، أهدافًا قابلة للتحقيق على أرض الو اقع، مثل منزل أكثر اتساعًا في حي أرقى، أو سيارة فارهة من حديثة الطراز، وربما وحدة سكنية ترفيهية بالساحل الشمالي أيضًا، لمَ لا؟! أم أنك قد أقبلت و افدًا إلى هذه البلاد لتتحسس السير على أرض مُلئت بالألغام من أجل المرح وحب المغامرة وحسب!

*****

يدلف السائق مجدان بالسيارة "اللاند روفر" المصفحة من البو ابة الفولاذية للمعسكر بعد ما استوقفه الجنود للتفتيش ورؤية التصاريح؛ روتين متكرر يوميًّا قد اعتدته ولن تستطيع تغييره، لكن مجدان لا يفعل، لذا تراه متذمرًا ينفخ كثيرًا ويمتعض وجهه ويرتفع حاجبه الأيسر في طريقة منه لاستعجالهم، حتى ينتهوا من

عملهم الممل، وقتها تبتسم وتدير وجهك واضعًا يدك على فمك حتى يتم التأكد من هويتكما، ثم أخيرًا تترجّل من السيارة عند باب الوحدة السكنية المخصصة لك، تلوّح لمجدان بيدك فيتحرك عائدًا.

تتخلص من حذائك "السيفتي" العملاق تاركًا إياه بالخارج لينعم بالهواء النقي بعد يوم طويل وشاق، تنظر إليه قبل أن تمرر بالكارت الممغنط في الجهاز المثبت على باب "الكر افان" المصفح بالكامل فيُفتح، ذلك الحذاء الضخم يذكرك بحذاء "فطوطة"، وفطوطة يذكرك بالأيام الجميلة التي لا همَّ فيها ولا شغل، لماذا في كل الحكايات يكون الماضي هو أجمل زمن؟

تلقي بخوذة الحماية البيضاء جانبًا، وتضع نظاراتك الطبية على مكتب صغير بجوار سرير متواضع تلقي بجسدك عليه مخرجًا زفيرًا معتبرًا.

غفوت قليلًا، وسرعان ما نهضت في نشاط، حان الآن وقت إعداد الطعام، هذا وقت محبب لنفسك ومُسلي أيضًا.. اتصلت على صالح الطباخ الذي يعمل في الموقع معكم، تأكدت أنه اشترى كل ما يلزم للطعام، وطبخه كما وجهته؛ لن تأكل أنت والخمسة مهندسين المصريين وصفات عر اقية كل يوم! لا أحد منهم يكترث لما سيأكل في هذه الأجواء المقلقة والقاسية، و أنت من يرؤسهم جميعًا؛ لذا استغللت الفرصة والسلطة في اختيار الغداء اليومي بنفسك، وطدت علاقتك بصالح الطباخ لتلقنه العديد من دروس الطبخ المصرية، هذا الأمر أضفى عليك شيئًا من الراحة النفسية واستغلال الوقت في ما يفيد، المذاق الجيد يعني شعورًا أقوى بالسعادة، وقد رأيت ذلك عندما كان صالح يضع الطعام أمام أحد المهندسين، فيبدأ الرجل بالتذوق مُصدرًا النغمة المشهورة: "امممممم، ما أجمل هذا الحساء يا صالح! لقد تحسن أداؤك بشكل ملحوظ"، فيبتسم صالح ويرد: "صحة وعافية يا باشمهندس"، ثم ينظر إليك مبتسمًا، فترتفع عيناك من طبقك ناظرًا إليه تبادله الابتسامة قائلًا: "تطورت حقًّا يا صالح، مذاق لذيذ"، فيتبسم ولا يرد.

كنتَ تهوى الطبخ، وتعدّه من نقاط القوة للرجل، لست بحاجة إلى من يعدّ لك طعامك، ولست من النوع الذي يرضى بأي شيء والسلام، فالطعام يعدل من التقلبات المزاجية، ومصدر للسعادة غالبًا، ولا بد أن نعيره الاهتمام الكافي، مع ذلك لم يسجل ميز انك أي مؤشر لزيادة الوزن يومًا ما، عملك وطبيعتك المتوترة دائمًا وحدهما يكفيان لحرق أي سعرات زائدة عن الاحتياج.

ينتهي الغداء، ثم يجمعك الحديث مع بقية الزملاء أثناء تناول الشاي، تستمع لرأي هذا وتنصح ذاك، وتشير على آخر بفكرة جيدة.. كانوا يحبون الكلام معك على الرغم من أنك أصغرهم سنًّا، يحترمون رأيك المبني دومًا على العقل، والتخطيط، والتفكير المنطقي السليم.

هم متفقون عليك في الرأي.. مهندس شاب وكفء، جاد أكثر مما ينبغي مقارنة بهم؛ فلا يعجبه ميل الحال أو التأخير، يكره الغباء، مُلاحِظ دقيق إلى حد التضييق، ومع كل ما يصفونك به فلم يردع ذلك بعضهم من فعل الحيل والألاعيب ليقتنص ساعة خروج مبكرة من العمل، أو يتهاون شيئًا ما في تقارير العمل الدورية، هذه الأفعال كانت تضايقك في البداية، وكنت تفكر كيف ستدير هؤلاء وتقنعهم أنك لا تتكبر عليهم ولا تأمرهم لمجرد الأمر! أنت مشرفهم ورئيسهم وعليك فعل هذا بمزيد من الحكمة للوصول بهم إلى ما تريد، و أنت أيضًا لستَ بالشخص الصغير التافه في الوقت ذاته إن جال ذلك بخاطرهم.

لما انتهوا جميعًا من تناول الشاي همّوا بالانصراف، فاستوقفتهم معتذرًا طالبًا منهم أن ينصتوا إليك لدقيقة واحدة، فعاد من قام منهم إلى مقعده مرة أخرى، و انتبه الباقون إليك، فبدأت حديثك بسؤال له غرض:

- هل تعلمون ما حقيقة وظيفتي هنا يا سادة؟

تحدث المهندس رأفت مبتسمًا كاشفًا عن بياض أسنانه:

- أنت العصفورة.

و انفجر ضاحكًا ليتناغم ضحكه مع ضحكات الجميع بما فيهم أنت، ثم عقّب سريعًا:

- لا أقصد الإهانة بالطبع يا هندسة، إنما هي دعابة.

فقلت بشبه جدية:

- دعابة لطيفة باشمهندس رأفت، وإن كانت تحمل الكثير من الواقعية بالنسبة إلينا على الأقل.

حككت أرنبة أنفك بسبابتك وأكملت:

- أنا هنا بالفعل لتغطية الحدث، ولنقل كل صغيرة وكبيرة للإدارة العليا، وهذا في رأيي عمل محرج جدًّا، ومن المؤكد أن بعضكم يسمونه بمسميات أقبح من العصفورة، ولكم الحق في ذلك؛ لذلك فقد أردت أن نضع قانونًا جماعيًّا مشتركًا بيننا، ييسر علينا المهمة.

نهضت من كرسيك لتعطي إحساسًا بمدى أهمية كلامك التالي:

- أيها السادة الأفاضل، أنتم مديرون أنفسكم في هذا العمل؛ لكل منكم مهمة هو يعلمها جيدًا، والمفترض أنكم تقوموا بها على أكمل وجه.. لا أريد تعكير صفو ذلك الجو المتعاون بملحوظاتي الدقيقة والمقيتة، فهي لن تروق لكم كما لن تروق لي أيضًا، وبالتأكيد لن تروق للإدارة العليا؛ لذا فأنا أدعم بشدة فكرة مسئولية الفرد عن عمله، وتنفيذه بالدقة والسرعة المطلوبة، اضمنوا لي هذه و أنا أضمن لكم أنني سأتعاون مع جميعكم بكل مرونة ممكنة في أي طلب حتى وإن كان شخصيًا، وفي ظني أن هذا سيُضفي الراحة للكل، فما رأيكم؟

لم يكن ثمة اعتراض على مضمون كلامك من جانبهم، خصوصًا بعد ما ألقيت الضوء سريعًا على بعض أخطائهم، ومماطلتهم في تنفيذ المهام بأدلة قاطعة للمجادلة والشك، وكأنك تحاصرهم بأسلوب راقٍ يليق بهم.

شكروا لك تفهّمك واحترامك الشديد لهم، ثم انصرفوا معاهدينك بحسن التعاون والانضباط.

بعد مرور فترة قصيرة نسبيًا ستصير الأمور أفضل، ستتعالى ضحكاتكم ليلًا على بعض النكات السخيفة التي يلقيها أحدهم، وستستمتع بالإصغاء للمغامرات العاطفية التي خاضها رأفت دون أن تعلم زوجته شيئًا عنها، وكيف مرت تلك النزوات بسلام، لقد جذب انتباهك ألاعيبه الماكرة والخبيثة في عالم النساء، ماذا لو استخدم عقله بالطريقة نفسها في العمل؟ كان لينجح بشدة أو ليُفضح بطريقة مشينة.. هذا رجل امتلأت سطور تاريخه بخداع جميع من حوله، لقد نال من الجميع بطرق مقززة، لم يكن كل ذلك الكم من الخداع والشر مضحك بالنسبة إليك؛ لكنك كنت تسمع لتفهم كيف يقوم بخداع كل هؤلاء النساء؟!

رغم كل هذا كان رجلًا مضحكًا، يجيد جذب الآذان إليه، كأنه يحكي لكم السيرة الهلالية، لكنها سيرة بطولية في النزوات القبيحة والمكر، تحدون بها من سطوة الوقت وبطئه في تلك الظروف العصيبة.

*****

زواج عادي

استلقيت على السرير غير المميز في شيء سوى أنه بالكاد يصلح للنوم؛ لا يوجد في الصحراء الكثير من الترفّ والرفاهية كما تعلم، بدأ النوم يتسلل إلى عينيك ببطء كي لا تشعر به فتقاطع شغله كعادتك.

يقولون إن ليل الصحراء مُلهمٌ وكئيبٌ في آن، له القدرة على إشعال الرماد الخامد، ليلٌ يُحرّك المشاعر المستكينة ويشتتها في اتجاهات غير محددة وبغير هدف، ليلٌ يرهف الحس بداعٍ أو غير داع، يستثيرك لتبحث عن شيء يتناسق مع تلك الرومانسية المصطنعة ذات المحتوى الخاوي، بالون من الرومانسية ذو ألوان بهيجة، لكنه خاوٍ إلا من الهيليوم الخفيف.

وتعود لتفكر في الشيء المفقود دومًا، وتغضّ الطرف عن الموجودات، وهل من موجودات في العزلة الجبرية هذه؟!

لم يُدوَّن في سجلات ثرثرتك اليومية مع ماهر شيء بعيد عن نطاق العمل أو الأهداف التي تبغيان تحقيقها، حياتك في هذا الوقت مثل إناء امتلأ عن آخره بكل ما هو مادي وعملي، فأين حظ قلبك من معنى الحياة إذن؟

على الأرجح تجده مع علا زوجتك.. لا بد أن تجده معها، فهي المرأة الوحيدة في حياتك التي يجمع بينكما علاقة حب رومانسي، هي زوجتك وحبيبتك إذن.

لقد عاهدتها أن تحدثها هاتفيًّا كل يوم خلال فترة سفرك هذه، بعد ما استجابت على مضض لفكرة ابتعادك عنها بغير داعٍ، سفريات أخرى داخل البلاد لم تمثّل لها أي مشكلة من قبل، لذا كانت تردد دومًا: "إن كل شيء على ما يرام، لا ينقصنا شيء، لا نبغي بيتًا أوسع ولا نريد سيارةً فارهة من أحدث طراز، نريد فقط أن نعيش في سلام ونربي ابنتنا معًا"، هذا ما طلبته بالحرف، وأرادته بالفعل، لكنه لا يتناسب مع آفاق طموحاتك الشاهقة، وما إن أردت شيئًا فلا بد من الوصول إليه.

مر شهر تقريبًا، و أنت تواظب على التحدث معها هاتفيًّا كل يوم مرة على الأقل، في دقائق قليلة خاطفة تطمئن عليها وعلى سارة وجدتها التي تقيم كل الوقت مع ابنتها، لتتأكد أنهم بخير وكل ما يلزمهم متوفر، وتساعد معها ما استطاعت.

"لماذا لم تعد تطيل الحديث هاتفيًّا معي كما كنت تفعل في فترة الخطوبة؟".. كان هذا هو سؤالها لك في مكالمة أمس، ولم تقدم إجابة حقيقية لها؛ لم تكن تملكها ولم تفكر في هذا من قبل.. على حسب ذاكرتك القوية فإن آخر مرة زادت دقائق المكالمة

الهاتفية مع علا عن عشْر دقائق كان ذلك منذ عامٍ وإحدى عشَرَ شهرًا، كنتما حينها على وشك الزواج بعد فترة خطوبة لم تزد عن أربعة أشهر.

لقد تبخّر شغف استكشاف الفتاة التي ستكمل المسيرة معك، ولَّت و انطفأت شهوة الحديث معها؛ أصبحتما تتشاركان السكن والفراش، تراها وتراك على الطبيعة دون أي تصنّع أو تجمّل، ربما الشيء الناقص فيها أنها... أنها ليست عادية! بل هي بالفعل عادية جدًّا، مثالية كزوجة عادية، من الطراز الذي إذا رفضته تصير جاحدًا، وإذا قبلته فهناك احتمال لا بأس به لتصير ملولًا؛ و أنت الذي لا تدوم ميولك لأي شيء عادي، وهذه معضلتك في الحياة؛ تعشق العسير، لكنَّ علا ليست مجرد شيء؛ إنها إنسان.. المرأة التي اخترتها لتعيشا معًا بقية حياتكما، وقد و افقت على هذه الشر اكة الممتدة لسنوات العمر، هي زوجتك التي لا ذنب لها في عشقك لكل ما هو تحدٍّ وصعب المنال.

تستمع لصدى صوت يتردد في أروقة خيالك و أنت على حافة السقوط في حفرة عميقة من النوم، همهمات غير مفهومة ترددها سارة الصغيرة، همهمات استدعاها عقلك بغير إرادة منك...

لقد تجاوزت عامها الأول قبل مغادرتك بشهر تقريبًا.. حرصت على إقامة حفلة ر ائعة لها، ودعوت فيها أجدادها الأربعة، وأختك جيهان، ومحمود أخو زوجتك، كانت ليلة ر ائعة وسعيدة على الجميع، التقطت لهم عشرات الصور لتوثيق الحدث المفرح، لا شك أنك بارع في إسعاد الآخرين بطرق شتى، في الو اقع أنت تبحث عن سعادتك في إسعاد من حولك، لكن ينتهي بك المطاف دومًا لتجد نقصًا حادًّا في هرمونات سعادتك الخاصة.

بعد مضي ساعة من التجول في جناح الذكريات، تقرر النهوض من السرير الصغير مرسومًا على وجهك علامات الفشل في محاولة النوم ولو لهُنيهة، تنظر في ساعة هاتفك.. إنها التاسعة والربع، حسنًا فلتتصل بـ علا، ولتكن مكالمة طويلة نوعًا ما.

- علا حبيبتي، كيف الأحوال؟
- حبيبي، أفتقدتك كثيرًا، أخبرني أنت عنك، كيف كان يومك واجتماعك؟ انتظرت مكالمتك بعد الانتهاء من الاجتماع.
- آاه.. كان يومًا طويلًا ومرهقًا كعادة الأيام هنا، لكنه كان اجتماعًا مثمرًا في ظني، لم أستطع مكالمتك في رحلة رجوعي؛ كنت أقود السيارة بنفسي، وما زلت غير متمكن بعد...

قاطعتك بنبرة قلق:

- و أين كان السائق؟! ولماذا تخاطر بالقيادة يا كريم، لست متمرسًا بعد؟ أنت تهوى دومًا أن تُقلقني عليك.
- أردت أن يأخذ مجدان قسطًا من الراحة، ثم لا تقلقي من القيادة على طرق السفر؛ فهي لا تحتاج مهارات مثل الطرق الداخلية المزدحمة، وقد أردت أن أعتاد قيادة السيارات الأوتوماتيكية لأننا على وشك أن نبتاع واحدة.

ولم تخبرها أن جندي الأمن سمح لك بفعل ذلك بعدما وعدته بهدية فاخرة عندما تعود لمصر في أول إجازة، وفرحت علا بالخبر فرحة أنستها قلقها، وقالت:

- غير معقول! لا أصدق! سيكون لدينا سيارة قريبًا، أنا سعيدة لسماع ذلك.

شاركتها الفرحة قائلًا:

- و أنا أيضًا سعيد جدًّا بذلك، هذا رزق صغيرتنا سارة، حدّثيني عنها قليلًا، ما الذي تغير فيها منذ غيابي؟
- سارة بخير والحمد لله، هي نائمة الآن، لولا نومها لكنت سمعت طريقتها المضحكة في الكلام بنفسك.
- هل بدأت في نطق أي كلمات، أم ما زالت تحاول؟
- نجتهد معها أنا وجدتها، إنها دومًا تريد الهاتف لتلعب وتشاهد الصور، لقد التقطت لنفسها مئات الصور، سأنتقي لك بعضها لأرسله، وكثيرًا ما تُقبِّل صورتك التي لا تفارق الهاتف، تنازعني فيك سارة هذه!

قلت متعجبًا:

- تنازعكِ! هل ستنال سارة ابنتنا من غيرتك نصيب؟!

ترد بتودد ممزوج بالمزاح:

- أغار عليك حتى من نفسي.

فترد أنت ساخرًا:

- ليتك معي هنا في الصحراء، إنه المكان الأمثل حيث لا تشعرين بالغيرة، إلا لو كنتِ تغارين من إناث العقارب والحيَّات.
- يا إلهي.. فليحفظك الله، احترس يا كريم أرجوك.

وأردفت في دعابة:

- ولكن لا تقلق كثيرًا.. فالعقارب والحيَّات لا يلدغنَ إلا من يخون زوجته.

ثم انفجرت في ضحكات طويلة متتالية كأشرار الأفلام القديمة، فرددت بملل:

- اطمئني يا سيدتي، سيرحلون قريبًا جدًّا من هنا، وسينفد صبرهم إذا كان هذا شرط لامتصاص دمي أولدغي.

تتنهد وتكمل بنبرة أهدأ:

- والله أنتِ رائقة البال يا علا، على العموم أفتقد كثيرًا مزاحك السخيف هذا، أخبريني، هل أمك بخير؟

تهدأ من سرعة قهقهاتها تدريجيًّا كالسيارة التي تتأهل للتوقف وتقول:

- نعم هي بخير الحمد لله، لكنها ملَّت من المكوث هنا، وتقترح أن نقضي أسبوعًا مع أبي ثم نعود ونقضي أسبوعًا هنا في بيتنا، وهكذا حتى لا نتركه وحيدًا، فما رأيك؟
- علا أنتِ تعرفين رأيي جيدًا، لقد اتفقت مع والدكِ ومعكِ بخصوص هذا الأمر قبل السفر، والرجل لم يمانع أن يأتي هو إليكم كل فترة، هو متفهم الأمر إذن، فلماذا تصرُّ أمكِ على أن تختلف معي؟!
- نعم حبيبي اتفقنا بالفعل قبل السفر، لكن هي عجوز ملولة، وفي حالة إصرارها على الذهاب لن يرضيك أن أمكث وسارة وحيدتان في المنزل.

تحشرج صوتك وارتفع، نذير بداية انفعال وقلت:

- أنا لا أحب تغيير ما رتبنا عليه أمورنا، وأمكِ تهوى أن تخالفني وحسب، لقد بينت لها أهمية أن لا تغادروا المنزل لفترة طويلة؛ فلربما راقب أحد اللصوص المنزل، وتأكد أنه بلا أهل أو سكان، فيسرقون المنزل لا قدر الله.

كانت علا في محاولة لتهدئتك، لكنها بدت جدالية فقالت:

- وما العمل إذًا يا كريم إن حاول اللصوص سرقتنا ونحن بالمنزل؟
- يا إلهي! طريقة جدالها نفسها يا علا، لا أعلم لماذا ترسّخت تلك الجينات الوراثية فيكِ ولم يظفر بها أخوكِ محمود، عمومًا حبيبتي انقرض منذ زمن ذاك النوع الغبي من اللصوص الذي يقرر سرقة منزل مأهول بقاطنيه.

تسكت ولا تجيبك، بينما تتنهد أنت وتكمل:

- لا أعلم كيف تفكرون؟! هانت، مضى أكثر من شهر، والأيام تمر سريعًا، أقل من شهرين آخرين وتجديني أمامك، لقد أخبرونا أنه من اليسير تدبير أمر السفر إلى مصر أكثر من مرة خلال فترة تنفيذ المشروع، فقط أخبريهم أن ينتظروا قليلًا من فضلك.
- أُخبر مَن بالانتظار يا كريم؟!

بلهجة ساخرة أجبتها:

- أملكِ، واللصوص يا عزيزتي.

تسمعها تكتم ضحكتها وتقول:

- ظريف.

ثم تردف بتودد:

- لا أريد مضايقتك، وأريد راحتها أيضًا، و أنت تعلم أنها...

تقاطعها بملل قائلًا بنمط نهاية المكالمة العملية الذي تعتاده:

- سيدة كبيرة... ولا بد أن نتحملها... أعلم حبيبتي، أعلم جيدًا، قبِّلي سارة من أجلي، تصبحين على خير.
- انتظر.. هل ستنام الآن؟
- نعم، أشعر بالإرهاق من كثرة القيادة.
- حسنًا حبيبي، و أنت من أهله، لا تؤخر مكالمتك لي غدًا، إلى اللقاء.

تغلق الهاتف وتُخرج من أنفك زفيرًا طويلًا، تقول في نفسك: "هذا ما نجنيه من المكالمات الطويلة!".

تتجه إلى الثلاجة الصغيرة بجوار المكتب وتفتح بابها القزم لتنظر بحيرة إلى داخلها؛ أنت تعلم أنه ليس من شيء يوجد فيها إلا زجاجات المياه المعدنية، وتفاحة وحيدة مثلك، لكنه طقس اعتدت أن تفعله مع ثلاجتك القزمة هذه، وستكون آثمًا لو توقفت عنه.

سحبت زجاجة مياه صغيرة، وشربت نصفها وأعدتها إلى مكانها مرة أخرى، ثم تناولت الهاتف لتتصل بحماك..

بعد سؤالك عن أحواله واطمئنانك على صحته، أخبرته أن فكرة علا ووالدتها بمغادرة المنزل قد ضايقتك، وأصابتك بالهم، حيث أنكما اتفقتما قبل السفر على تلك الأمور، وأوضحت له أنك لن يسعدك أيضًا بالطبع تقييد والدتها بعيدًا عنه...

- فقلت في نفسي، أتحدث إليك يا عمي لعلني أجد الحل عندك.

أجابك بنبرة العقلاء:

- لا تقلق يا ولدي، ولا تعكر صفو تركيزك في العمل، دع الأمر لي.
- أشكرك يا عمي، والله إنك في منزلة والدي، ألقاك على خير إن شاء الله.
- مع السلامة يا بني.

أغلقت مبتسمًا بدهاء؛ تعلم أنه سيقوم بما ينبغي عمله ويوفّر عليك عناء الدخول في مجادلات تضيع الوقت، أو كنت ستلجأ في النهاية لقرار حاسم مع علا، ربما تكون نتيجته مدعاة لتذمرها.. أما الآن أنت خارج الصورة بعد تفويض حماك ليكون ضامنًا لاستمرار قوانينك مفعَّلة كما أردت؛ هذا الرجل يستحق التقدير.

في صباح اليوم التالي، وبينما أنت تباشر عملك وصلتك رسالة من علا تخبرك فيها: "حبيبي لن نضطر لمغادرة المنزل، أبي فاجأنا جميعًا هذا الصباح إذ أتى بنفسه ليقضي معنا بضعة أيام في بيتنا، وبهذا لن يتغير شيء مما اتفقنا عليه، اطمئن، أحبك كثيرًا".

قرأت رسالتها بسعادة مما فعله أبوها الحكيم، أسعدك كذلك تفكيرك للوصول إلى ما تريد بأنسب الطرق.

*****

اليوم يمرّ ما يقارب العامين ونصف العام على انضمامك لهذه العائلة الراقية وارتباطك الوثيق بهم، منذ المرة الأولى لدخولك بيتهم استرحت للطريقة التي يدير بها هذا الرجل الوقور البيت أجمع، هادئ الطباع، كثير الذكر لله، يتّسم حديثه معك دومًا بالميل نحو المبادئ الأساسية، والأصول التي تاهت وسط زحام بعض الحداثات المقلدة عن جهل في المجتمع.. أثار إعجابك التشابه بين ما يحاول الحفاظ عليه وبين والدك الذي يتبنى أيضًا الرؤية الاجتماعية والثقافية نفسها، وقد انعكس ذلك عليك وعلى أختك جيهان، كما انعكس على أولاده علا وأخيها الأكبر سنًّا محمود.

الريف يتّبع أيضًا الثقافة ذاتها، ومهما بلغ تأثره وتلوثه ببعضٍ من الحداثة الزائفة تظل الثوابت الأخلاقية كاللون الأخضر تميزه عن باقي بقاع الأرض، ولها السلطة الغالبة على مساحاته الممتدة.. هناك يُصنع الرجال العظماء، والنساء العظيمات في اعتقادك.

أخذ الحاج عادل – حماك - يروي لك عن جهاده وكفاحه في بناء ذاته من الصفر كما يقال، فعزز ذلك من مكانته عندك، وتقديرك له.

تشعر أنك ليس بغريب عن هذا البيت، ترتاح أكثر فأكثر على أرائكه الفكرية، يجذبك التشابه في كل التفاصيل بينكما كعائلتين، وتتوالى المبشرات تترى بالقبول الأوّلي.

كانا الزواج والإنجاب مشروعان مهمان في حياتك، لا بد من القيام بهما في وقت مناسب من العمر.. السادس والعشرون سن مناسبة للبدء إذن.. درست الهندسة، فتخرجت بتفوق منقطع النظير، وتدربت فعملت في أفضل الشركات، وكوّنت مبلغًا من المال لا بأس به، تستطيع معه أن تقْدِم على هذه الخطوة العظيمة. حان الوقت لتحقق ما يدندن بيه أبيك في صلواته وسجوده من أدعية تدور حول أن يرزقك الله ببنت

الحلال، آن لأمك أن تقر عينها برؤيتك مزينًا في حُلة العُرس، لتتلهف بعد ذلك لرؤية طفلًا لك من صلبك.

إذن، وحيث إن السابقون قد رسموا خطًّا مستقيمًا لمسار الإنسان الطبيعي فسوف تتزوج، قلبك من أخبرك بهذه النتيجة الحتمية دون تفكير في الأمر، فهل يصمت عقلك ويتبعه؟ أبدًا.. ما كنت قاطعًا أمرًا من دونه...

ستتزوج لأنها سُنّة الحياة.

ستتزوج لإنجاب الذرية التي ترجو أن تكون صالحة.

ستتزوج لأن الجميع من قبلك ساروا في الطريق نفسه، وقد خلف بعضهم بعضًا.

ستتزوج لتلبي حاجات جسدك الجنسية، وحاجات قلبك العاطفية.

ستتزوج لتكون قائدًا لبيتٍ ناجح.

ستتزوج لأنك تستطيع أن تتزوج.

ستتزوج لتسعد غيرك، فأنت تحتاج لذلك دومًا.

ستتزوج لتحصل على التقدير المكافئ لكونك أسعدت غيرك، فأنت تحتاج لذلك دومًا.

ستتزوج لأنك قدرت مسبقًا أن هذا هو الوقت الأنسب للزواج، ولست ممن يحبون الندم بعد فوات الأوان.

ستتزوج لتتحدث إليها بكل ما يحدث في حياتك من مغامرات عملية ليست شيقة، ولكنها قابلة للحكي.

ستتزوج من أجل أبيك وأمك و أيضًا.. من أجل أن تتخلص من إلحاح جيهان عليك بالأمر.

كانت صديقتها المقربة، رأيتها عدة مرات ببيتكم مع أختك وفي الشارع وحدها، يُضرب بها المثل في الأخلاق الحسنة، ويشيد الجميع بذلك.

استخرت ربك ثم توكلت عليه...

تناقشت مع والدك عن رأيه فيها، وأمسيت ليلتك تلك ترتب وتجمع كلماته القليلة التي ألقاها عليك، أنت في حاجة لرأي يدعم ما تنوي عمله، رأيٌ مرَّ صاحبه بتجارب أكبر منك.

قال أباك الحاج شوقي: "يا بني، إنها فتاة مهذبة وذات خُلق، ومن بيت ذي أصول؛ يقوده رجل على قدر كبير من الحكمة والعقل، و إنه يشرفه أنك ستضع يدك في يد هذا الرجل، ثم إنها صديقة أختك من الدراسة الجامعية، وجيهان على دراية بصفاتها وطباعها".

في الأصل كانت علا اختيارًا من قبل أختك جيهان، أو بمعنى أدق اختارتك أنت لها، ومن قبل ذلك لم تسمع من جيهان عنها إلا كل خير.

هل كان قرار قلب لم يجرب الحب قط أم كان قرار عقل واعٍ بما يفعله؟

قلبك لم يعرف الحب من قبل بالمعنى الذي يتعارف الجميع عليه، لكنك أردت له أن يشارك بالاختيار، حتى وإن كان جاهلًا لما يريد.

قلبك لم تقتحمه أحاسيس تدفعه لفعل شيء، كان يضخ الدم وحسب.

اجتمعت مع عقلك وقلبك على طاولة اتخاذ القرار بعد كل ما نويته من أسباب للزواج، كان الأمر كله مزعجًا شيئًا ما لقلبك؛ فهو الأجهل بهذا الأمر على هذه الطاولة، لو تكلم سيلقي خطابًا قصيرًا جدًّا عن بر الوالدين، وربما حب الريف، ومساعدة المساكين والفقراء.. وفي هذه الأثناء كان يحق للعقل أن يتصرف باحتراف، كأنه يفعل ذلك كل يوم؛ إنها ليست سوى مسألة حسابية سينتج عنها نتيجة نهائية منطقية تحسم القرار..

لم تختَر شيئًا في حياتك خالطك فيه التردد، إذا ترددت انسحبت على الفور رافضًا، واليوم أنت لست مترددًا، بل أنت حائر لا تدري كيف تفكر، وبما تفكر!

أنت تفكر بطرق منطقية دائمًا، بطيئةً كانت أو سريعة، وعند زواجك من علا كان تفكيرك مبني على منطق أن كلهم يفعلون ذلك في يوم ما.. حسنًا، لديك رأي أبيك، وإلحاح أختك وأمك، وأخيرًا قرارك أنت بفعل هذا الآن.

ستفعل هذا بشكل اجتماعي اعتيادي؛ ولتَحِد عن أي رأي سلبي في مشروعك الاجتماعي طويل الأمد، حتى وجهة نظر مراد عن مدى صعوبة الزواج وقلة نسبة ضمان نجاحه لن تعبأ بها، لعل تخوفه الشديد من القيام بهذه الخطوة يرجع إلى عدة أسباب تخصّه وحده لا تعلمها أنت، فهو يتّسم بالغموض أوقات كثيرة.

خالك مجدي أيضًا الذي ينتهي به العقد الخامس من العمر بداخل شقة متسعة خاوية من البشر غيره لا يُعتد بر أيه في هذا المحفل العالمي.. مراد والخال مجدي شذوذ عن القاعدة العامة، ولن نعتمد الشواذ من القواعد، لكنه سألك سؤالًا واحدًا لم ينتظر إجابته منك، سألك: "هل عندما رأيتها وتكلمت معها، رأيت فيها مستقبلًا مريحًا؟!"، في الحقيقة لم تفهم ما قصده حينها، ولم يشرح هو أكثر، فأخبرته أن نعم؛ فقط لتُنهى نقاشًا رمزيًّا مع رجل تُقدّره جدًّا، لكنك تعلم أنه لم يحظَ بتجارب عاطفية سابقة في حياته، حتى لم يُقدم على خطبة إحداهنَ حتى لو على سبيل التجربة.

أما عن مراد فأنت تعلم أنه مجنون شيء ما، شيء ما كثيرًا جدًّا.

عزمت أن تخوض الأمر كما خاضه الناجحون من قبل.

ألحّت جيهان عليك لتفكر سريعًا وتتخذ قرارك بالموافقة، فهذا سيسعدها كثيرًا، فظلت كالذبابة العالقة بأذنيك حتى طلبت منها رقم هاتف والد صديقتها المقربة، لتجد نفسك تقوم بالزيارة التقليدية حاملًا طبقًا عظيمًا من الحلوى الشرقية يزن طنًّا ونصف الطن تقريبًا، وذراعك الأخرى تتأبط ذراع أمك ويتقدمكما أبيك وأختك الوحيدة إلى منزل عائلة علا.

كل شيء تم بيسر وبأقصى درجات البساطة، كانوا يشترون رجلًا كما يقال بغير تزوير أو تزييف للكلمة، وكنت أيضًا تطمع في بناء الاستقرار والبيت والأسرة، وأن تحظى بامرأة ذات خُلق وجمال لديها القدرة على إدارة بيتك، وتربية أولادك، وإسعادك أيضًا، إن هذا لفوز عظيم.. إنها لإحدى تلك المعادلات التي تتصف بالمستحيلة في هذا الكون، وفي هذا العصر تحديدًا، وفي هذا البلد أيضًا كتحديد أكثر دقة!

وكما ترى.. لم تكن ثمة قصة رومانسية مزهرة كملامح أشجار الربيع، ولست ممن يجيد دور البطل في مثل هذه القصص، لكنه على الأرجح سيصبح زواجًا ناجحًا داخل بيت مستقر.

في غضون أربعة أشهر هي مدة الخطوبة التي حددتها بنفسك ورحّب بها الجميع، لم يظهر على قلبك أي شيء.. لا تستطيع القول بأن قلبك قد تحرك لها، ولا يمكنك الافتراء أيضًا واصفًا الفتاة بأنها لا تصلح لأن تكون زوجتك، كل شيء يتأرجح في نطاق طبيعي، لا يعلو جدًّا كاشفًا عن مشاعر عاجلة منبعثة من قلبك، كحب من أول نظرة مثلًا، أو أي انطباع عاطفي يسرع خطاك إلى إتمام الأمر، لكن كل شيء كان يسير كمشروع من مشاريع العمل له وقت محدد للتسليم، و أنت تجيد تنفيذ هذا النوع من الخطط، و أثناء التنفيذ تقوم بتقييم كل مرحلة من المراحل فلا تكاد تلاحظ عيبًا.

القرارات الختامية في دراسات جدوى المشاريع غالبًا ما تتم في ورقة واحدة بغير تفاصيل مملة سبق أن ناقشتها.

حسبة بسيطة هي: أخلاق جيدة، أهل خيرين، مستوى تعليمي واجتماعي يتناسق مع مستواك، أضِف إلى ذلك رأي أبيك فيهم، ويزين الاختيار أيضًا وجود مرجع حكيم إذا ما ساءت الأمور بينكما لا قدّر الله تستطيع اللجوء إليه، وهو أبوها بالطبع، وفي النهاية ستتخلص من تلك الذبابة التي ما زالت عالقة بأذنك المسماة جيهان.

*****

تم العُرس بأبسط صورة أخاذة لم يشهدها تاريخ عائلتك أو عائلتها من قبل، لم يعترض أحد على ذلك من الفريقين؛ حديقة واسعة مزينة أركانها بالستائر البيضاء والحمراء، بدت الألوان خلابة ومبهجة تحت ضوء الشمس الرباني؛ ليس أول عقد زواج يتم عصرًا في العائلتين لكنه كان أيضًا توقيت الزفاف! فلا داعي للإضاءات المزعجة ليلًا.

حضر العُرس الأشخاص المهمين والمهمين فقط، حيث حضر من العمل رئيسك وصديقك ماهر ولا غير.

انسابت موسيقى هادئة بين الحاضرين لا تثير خصر أي فتاة من الجالسات، فاضطررن إلى التحرك بغير هدف بين الطاولات والمقاعد للفتِ انتباه بعض الأمهات اللواتي جئنَ بدورهنّ باحثات عن بنات الحلال لأولادهنّ.. كنت تقعد رزينًا بجوار عروسك علا سعيدًا لكسر معظم العادات والتقاليد السخيفة المرهقة التي ما خلا منها

فرح مصري قبل ذلك؛ رقص، وصخب، وضوضاء؛ أنت تكره كل ما سبق، ولذلك لم تبدأ موسيقى الحفلة بأغنية "طُلّي بالأبيض"، ولم تنتهِ كذلك بسهر الليالي.

أما عن شباب العائلة فيعرفون من أنت جيدًا، فلم يجرؤ أحدٌ منهم على جذبك من بدلتك مقطعًا إياها لتقوم بحركات هيستيرية بهلوانية على أنغام الأغاني الشعبية، ولم يكن هناك من الصحبة عدد كافٍ ليحملونك بأيديهم ويقذفونك ضد الجاذبية لترى ربطة عنقك في السماء بينما أنت تسقط سقوطًا حرًا لا يعلم عاقبته الوخيمة إلا الله! كلا، بل لم يتم دعوة أحد من الأصدقاء أصلًا سوى ماهر.

وبدأت حياتك الزوجية، لتبدأ معها مرحلة جديدة تمامًا برفقة علا، واخترتما منزلًا صغيرًا في حي قريب من بيت أهلك وأهلها.

*****

حرمانُ قديم

النوم كفتاة لعوب أثارت الشهوة فيك، فلما سلمت لها و أقبلت على احتضانها، تمنعت بمكر و انسحبت لكن رويدًا رويدًا تبدأ في ترك نفسك للغوص في الأعماق بلا مبالاة لشيء، وبلا إرادة منك.. في كل ليلة عندما كنت صغيرًا كنت تعتزم على السهر و إبقاء عينك مفتوحة لتلاحظ متى بالضبط سيأتي النوم لك لتعرف السر، فتستجلبه وتحضره وقتما أردت أو احتجت إليه، لكن ما نجحت في الإمساك به متلبسًا، في كل ليلة أو نومة يأتيك بغتة وقد سُلِبتَ الإرادة بالكامل، فلا تدرك متى حدث هذا، ولا تجد نفسك إلا مستيقظًا من أعماقه التي جذبك إليها بسحره.

أخيرًا حصلت على غفوة لوقت لا تستطيع تقديره حاليًا، فكثيرًا ما تقلق وتستيقظ مفزوعًا سواء على أصوات طلقات النيران بين الأهالي من جانب وحراسات المشاريع وقوات الجيش من جانب آخر، أو حتى على رنين هاتفك؛ إذ تتصل عليك سارة الصغيرة كلما سنحت لها الفرصة حين غفلة من أمها عن هاتفها.. تنزعج وتتأفف، لكنك لا تجرؤ على إغلاق الهاتف تمامًا لتنعم بنوم هادئ متواصل؛ تخشى أن يكونوا في حاجة ماسّة للتحدث إليك، فلا يتمكنوا من ذلك.

نغمة محمولك تعلن أنك استلمت رسالة على تطبيق المحادثات، تستدير بجسدك نحو الهاتف لتمسك به مستندًا على مرفقك؛ هذه القردة الصغيرة لن تكفّ عن إزعاجك طوال الليل.. تنظر بعين واحدة شبه مفتوحة في محتوى الرسالة الواردة وتقرأها ببطء وبصوت كصوت الحمام: "مَن أنت؟"، تتنفس بعمق وتقول في ذهنك متعجبًا: "رزان... أي ريح أتت بكِ الآن!"، تعجبت للحظات من رسالتها التي يُفهمُ من محتواها أنك مجهول بالنسبة إليها، خمنت سريعًا أنه ربما حدث خلل ما في هاتفها، أو هي مجرد رسالة خاطئة لست مقصودًا بها.. ألقيت الهاتف جانبًا لتستكمل صراعك مع النوم ومنغصاته.

في الصباح تمر على مو اقع العمل كعادتك لتتفقد ما تم من مهام.

كنت غارقًا في دوامة من التفكير التحليلي كعادتك مع أي أمر مهم كان عابرًا أو غير ذي شأن؛ كأنك ما خُلقت إلا لتفكر بعمق، تنظر عبر زجاج السيارة إلى صور تمر متلاحقة وسريعة، فلا تكاد تميزها، استحضرت صورتها منذ آخر مرة التقيتها.

رزان لطفي، تلك القطة الصغيرة كما كنت تصفها بعد أول لقاء بينكما، تعرّفت عليها أثناء تسوقك في أحد المتاجر بمدينة الرحاب، كنت تسأل عن بعض أنواع الأقمشة اللازمة لديكورات الستائر والمفروشات الخاصة بشقة أحد عملاؤك في المدينة نفسها، وكانت هي تعمل في هذا المتجر الكبير.. من العسير أن تنسى هذا الوجه المبتسم المريح في التعامل، وهذه الملامح الجميلة كجمال الطبيعة ذاتها.

كانت متعاونة معك لأبعد حد، صبورة جدًّا على أسئلتك الكثيرة ذات التفاصيل الدقيقة المملة عن الأنواع المختلفة وجودتها وعن أسعارها والخصومات المتاحة على الكميات إن كانت هذه هي سياسة المكان البيعية، وهي تعلم جيدًا أنك ربما لن تقوم بعميلة الشراء في الوقت نفسه كبقية العملاء المملين الذين يترددون عليها كل يوم، مع ذلك كانت تؤدي عملها بإتقان وصبر.

تُرى ما الذي حدث في ظنك لترسل هذه الرسالة المحيرة؟ لا بد أن تتبين منها.. كتبت لها رسالة لكنك ترددت في إرسالها، لا تدري لماذا؟! فأرسلت لمراد تستشيره في الأمر كنوع من الثرثرة خلال اليوم:

- مراد، لقد استلمت رسالة قصيرة من رزان تسأل فيها من أنا؟! أعتقد أنه حدث شيء ما بهاتفها، ما ر أيك أنت؟

كان مراد قد سمع عنها منك، لكنه نسي من تكون، فسألك:

- من تكون رزان هذه يا صديقي؟

ذكّرته بها، وشبهت ذاكرته بذاكرة السمك، فتذكرها، ثم نصحك بعدم الرد ما دمت لستَ في حاجة إليها.

لم تستسغ رده، بل أنت ربما تحتاج إليها يومًا ما، أيضًا كان بينكما العديد من المحادثات واللقاءات القليلة لاحقًا.. سكتّ ولم ترسل له تعليقًا، و بعد ما يقرب من ساعة أرسل لك رسالة كأنه يفكر بعقلين، أحدهما في رأسك.

"لماذا أنت مهتم بها يا صديقي؟ ثمّة أمر لا بد من أخذه في الحسبان.. أنت في غربة مؤقتة، بعيدًا عن بلدك وأهلك وزوجتك، و أيضًا عن هو اياتك الممتعة، ذلك إن كان لك هو ايات غير العمل لا أعلم بها أنا، وبالطبع ليس لديك ما تفعله سوى العمل والملل والحفاظ على النفس في هذا المكان تحديدًا كما أخبرتني وكما أسمع من الأخبار، إحساس الغربة والملل يورث بقلوبنا حنينًا وعاطفة طاغية لأي شيء ولأي شخص، أتفه الحوادث قد تحدث جلبة، ردود أفعالنا تتضخم من لا شيء بفعل مشاعرك المرهفة، فتحزن بشدة، وتغضب بصورة أكبر من طبيعتك، وتتوتر سريعًا.. هذه هي الغربة يا

صديقي، تفتح أبوابًا محكمة الغلق، وتشعل فتيلًا من الوهم للأحاسيس، فتُضاعف مقدار أي أمر كبيرٍ كان أو صغير".

لعل مراد أحس أنك تهتم لتلك الفتاة عندما تذكر ما حكيت له عنها قبل ذلك، ربما تذكر أيضًا وصفك لها بشيء من المبالغة، وخشي أن تزداد محادثتكما أثناء السفر، في وقت الفراغ الذي لا بد أنك لا تجد ما تفعله فيه، فخشي أن تتعلق بالفتاة كما تعلق هو أثناء سفره سابقًا بفتاة، ثم تمزق قلبه بعد ذلك لما كان الفراق أمرًا حتميًّا بينهما، فأراد أن يقي قلبك مما أصاب قلبه من لوعة الفراق بعدم التعلق، والآن يراك تسير نحو مصيدة التعلق نفسها، وكافة الظروف مناسبة لنجاح تلك المصيدة، وأهمها الغربة وملل الفراغ في اعتقاده؛ فالغربة على حد قوله تتلاعب بالقلوب الهشّة النقية مثلما وصف قلبك.

أرادك أن تفهم من رسالته كل هذه المبالغات التي دسّها بين سطورها.

أنهيت قراءة رسالته، لم تفهم جيدًا ما يعنيه، وربما تجاهلت فهمه عن عمد فأجّلت الرد على رسالته إلى وقتٍ لاحق؛ لأنك ستتكلم معه عن تهويله للأمر.

أرسلت لرزان رسالتك المؤجلة: "أنا كريم.. كيف الحال؟ هل حدث شيء ما لهاتفك؟ أم انها رسالة أتتني بالخطأ".

وصلت لإحدى نقاط العمل، فترجلت من السيارة وقمت بجولة على قدمك في موقع العمل، قمت بفحص بعض الأنابيب، وعاينت نتائج الاختبار لبعض الأجهزة والمضخات، ثم وقّعت على التقارير المطلوبة، وبينما تتحدث مع بعض المهندسين الصينيين جاءك اتصال منها!

لا يحدث ذلك كثيرًا! حتى رسالتها أمس ما كانت لترسلها هكذا بغير سابق تمهيد، فهي تعلم أنك متزوج، وتحافظ على عدم إزعاجك وتلبية رغبتك بعدم التواصل إلا في أوقات محددة اتفقتما عليها، لكنها اختفت منذ مدة أكبر من المعتادة مؤخرًا، ولم تكن متفرغًا للسؤال عنها آنذاك.

بالطبع هي لم تعلم بسفرك هذا، لكن اتصالها الآن لن يسبب شيئًا، الغريب في الأمر أن الهاتف التقط إشارة اتصال في قلب الصحراء، وفي هذه البقعة النائية؛ التغطية هنا تكاد تنعدم تمامًا!

على كل حال أجبتها، وبمجرد قولك: "مرحبا"، أتاك ردًّا يملؤه الاشتياق والود:

- كريم، كيف حالك؟
- رزان، كيف حالك؟

- آسفة حقًّا لضياع رقمك من هاتفي، لقد تعرضت للسرقة ولم أستطع إخبارك أو الوصول إليك، لكنني استطعت استرجاع بعض الأرقام والمحادثات، فأردت التأكد أن هذا الرقم لك.. لماذا لا تضع صورة على الو اتس آب؟

نبرة الفرحة كانت واضحة في صوتها، تخيلت وجهها متّشحًا بالسعادة عندما تحدثت إليك:

- حسنًا، هذا يفسر رسالتك الغريبة أمس.. أعذريني الآن سأتحدث معك لاحقًا، بل الليلة، سأتحدث معكِ الليلة بالتأكيد.
- حسنًا، سأراسلك أنا مساءً في حدود العاشرة.

أغلقت الهاتف والعرق يتساقط من جبهتك بسبب حرارة الجو، وربما بسبب حرارة الاتصال.. سماع صوتها وسط هذا الجفاء قد أسعدك، رغم استنكارك لقصة فقد رقمك هذه!

و انتظرت قدوم الليل بشغف لتتحدث إليك رزان، فملأت ساعات الانتظار بمكالمات هاتفية مع علا و أبيك وأمك وجيهان، وما زالت العاشرة مساءً بعيدة كأنها علمت أنك تنتظر حلولها فتبطأت لإغاظتك واختبار صبرك.. أجريت المزيد من المكالمات الهاتفية مع العمال والفنيين وبعض العملاء هذه المرة، بغرض متابعة الأعمال الخاصة بوحداتهم السكنية، وعندما أنهيت عملك أرسلت إلى مراد لتخبره بما حدث في مكالمتها صباحًا، و أثناء انتظارك لرده فتحت صفحة محادثاتها، بالطبع لم تكن بيضاء فارغة، فقد كنت تحذف كل الرسائل بينكما ما عدا الذي تعلق منها بالعمل، ذلك لأن أسلوبك في الحديث معها كان قد اتخذ بعض اللطف والود، وستنزعج علا ولا شك إذا اطلعت على شيء من ذلك.

كنت تحترم غيرة علا عليك ولو كانت زائدة عن المعقول، فهي امرأة غيورة جدًّا، وكنت حريصًا على ألا تكون هذه الصفة مصدر توتر في علاقتكما، فلا تتسبب في غضبها أو تقييد أفعالك أيضًا، لكن الشيء الأهم هو عدم إثبات تُهمة الرجل اللعوب ذو العلاقات النسوية المتعددة، فهذا ليس أنت.

تأملت في صورتها على الو اتس آب.. كنت مبتسمًا بدون وعي، تنظر وتنتظر، وإذا بها تكتب الآن...

ما هي إلا لحظات وأرسلت رسالتها المكونة من سبعة أسطر تشرح فيها كيف تمت سرقة هاتفها من لص يمتطي دراجة نارية، استغل غفلتها وتحدثها في المحمول أثناء عبورها الطريق، فاضطرت بعدها إلى شراء هاتف أقل إمكانيات لفترة مؤقتة.

كنت تقرأ رسالتها بينما هي تسطر رسالة أخرى سريعة أيضًا: "أخبرني الآن ما سبب وجودك في صفحة محادثاتنا؟"، و أتبعت رسالتها بثلاثة رموز تصرخ في مرح.. توترت، وارتفع ضجيج نبضك.. فطنت لظهورك متصلًا وقد رأت هي من خلال علامات قراءة الرسالة أنك في صفحتها في الحال.. اللعنة على تحديثات تطبيقات التواصل التي تسبب الفضائح، لو كان الأمر متعلقًا ببرنامج هندسي لما استطاعت مجاراتك، استنشقت نفسًا عميقًا وشرعت في الكتابة:

- أولًا حمدًا لله على سلامتك، ولا يهمك أمر الهاتف، المهم أنكِ بخير، ولكن فلتأخذي حذركِ بعد ذلك ولا تتكلمي في الطريق إلا للضرورة.. ثانيًا، فأنا كنت سأكتب لكِ ووجدتك تقومين بالفعل ذاته، مصادفة غريبة، أليس كذلك؟

كانت قد اعتادت طريقتك المفعمة بالنصائح والإرشادات، وكأنك أخ أكبر لها.

تأخرتْ في الرد كثيرًا، ثم بدت غير متصلة، كتبت لها: "أين ذهبتِ؟"، فلم ترد ولم ترى الرسالة رغم أنها وصلتها. شعرت بضيق لتركها المحادثة بغير تلميح..

إنّ باب الظنون في عقلك يتسع لكثيرٍ من الآثام، وقد تسللت من خلاله كل الأفكار السيئة، وكان أكثرها احتمالًا هو أنها لم تفهم الأمر على أنه صدفة، وظنت أنك متلهف منتظر لرسالتها، ربما ذلك ضايقها، وتظنك ذئب بشري تلاحقها باهتمام خانق.

إنَّ أولى اهتماماتك النفسية ألا يُساء بأفعالك الظن، وألا تحيط التهمة رقبتك ظلمًا أو عدلًا؛ سرعان ما تسعى لتصحيح وتنظيف الصورة مما قد يشوبها من أدناس الأفكار، فأنت تخشى من نفسك إذا نظرت يومًا في المرآة أن تشعر بخذلان النفس أو تأنيب الضمير جراء أفعالك.

قمت بإرسال رسالة صوتية إلى مراد شرحت له ما حدث سريعًا، فلفت انتباهك إلى أنها فتاة في بيت له طابع شرقي كما فهم منك، وفي هذا البيت الشبه ريفي لا تملك الفتاة مساحة كبيرة من الحريات؛ لعل من أهلها أحد بجوارها الآن ولا تستطيع أن تمسك بالهاتف لتحدث رجلًا غريبًا عنها، فالوقت ليلًا والاحتمالات عديدة.

ليس خبيرًا هو بكل هذه السيناريوهات المحتملة، ربما أنت الذي لا تفكر في ذلك إلا بعد أن يضيء أحدهم في عقلك نورًا، لكنك تسأله لأن لديه العديد من العلاقات النسوية، وهو أكثر حرية منك في التعاملات معهنّ، لكنه كما يقول دومًا عن نفسه: "أنا أكتفي بالتدريب من خارج الملعب فقط، لكن لا أنصح بالحب أو التعلق بأحد".

قبل أن تخلد إلى النوم عادت رزان لتعتذر عن غيابها المفاجئ، فكتبت لها:

- لا مشكلة، قلقت عليكِ فقط.

أرسلت ضحكة طويلة على سطرين، وعقّبت بتهكم:

- فعلًا.. البيت مقلق جدًّا هنا!

بدا لك سخافة رِقة و ابتذال جملتك، فكتبت مغيرًا الموضوع:

- أنتِ تتصيدين زلّاتي، سأردّ لكِ ذلك حين أعود.
- تعود! تعود من أين؟
- أها، نسيت إخبارك بأني في العراق في مهمة عمل.
- في العراق! وهل الأوضاع مستقرة عندك؟ نحن لا نسمع من الأخبار عنها أو عن سوريا أي خير.
- حتى أكون صادقًا فالأمور ليست مستقرة على الإطلاق.. الأجواء عمومًا في البلد مضطربة، وتوغل تنظيم "داعش" يزداد يومًا بعد يوم في اتجاه بغداد، وفي حالة نجاحهم في ذلك فعلينا المغادرة وترك كل شيء في الحال.. أظن أنهم هنا لديهم خطة حال وقوع ذلك، أما عن مكان عملي بالتحديد، فأنا في الجنوب من البلاد، والخطر الأقرب هنا يتمثل في صراعات الأهالي أصحاب الأراضي التي يقوم عليها المشروع، والذين طبعًا يرفضون المساس بأراضيهم، وقوات الجيش والحراسة المكلفة بتأمين المشروع وتأمين العاملين به، وهم من جنسيات مختلفة، الوضع يبدو معقدًا شيئًا ما.. لكنهم حريصون على إبقائنا على قيد الحياة حتى هذه اللحظة.
- مقلق جدًّا.. كل ما ترويه مقلق يا كريم، أسأل الله أن يحفظك من أي سوء.. هل الأمر يستحق كل ذلك الرعب؟

خوفها عليك جعلك تشرد لبرهة، لا تنكر أنه ترك بداخلك إحساسًا مريحًا، كتبت لتعود إلى الحديث:

- أعتقد أن الأمر يستحق، لو لم يستحق ما كنت أقدمت على العمل هنا في هذا المكان المضطرب أمنيًّا.

لما انتهت المحادثة معها كنت هادئًا مسرورًا، كأن الغربة قد خففت وطأتها من فوق صدرك، لولا الغربة ووحشتها ومخاطر أقبلت عليها لما كنت حصلت على ما حصلت عليه الآن من شعور رقيق.. ألم الغربة مستمر، لكن يصاحبه بعض التقلبات العاطفية التي قد تجعله ألم ممتع، مثل الذي تشعر به أثناء تأدية العمل ثم تحصل في نهاية الشهر على راتب جيد يغير من مرارة التعب إلى حلاوة الكسب.. بعض الأشياء لا تستطيع الحصول عليها في ظروف أخرى مستقرة، مثل اهتمام رزان الآن؛ هل كانت ستدعو الله لك أن يحفظك و أنت تقف أمامها في متجر الأقمشة كأي عميل آخر يطلب

ما يطلبه من مشتريات وينصرف في النهاية؟ هل كانت لتهتم بأمرك كثيرًا بغير علمها بهذا التوتر الذي تعيشه الآن؟ كنت لا تريد أن تثير قلق عائلتك عليك، لكن إثارة قلق رزان كان له مذاق طعام الصالح حين يجيد تتبيله، وكان له فخرك بتقاريرك المقدمة حين يثني عليها رئيسك، كان يبدد الخوف والشعور بالوحدة، بل كنت ترغب في مزيدٍ من صوت الطلقات لتسمعها إياها فتصرخ خوفًا وقلقًا عليك.. لاهتمامها نشوة ملأتك شوقًا، وكأنك بئر فارغ من المياه، فهو فارغ من الحياة، وقد وهبتك شيئًا من الحياة.

كلَّفت مراد بشراء هاتف محمول جديد لها، حددت له نوعه وإصداره، و أكدت عليه أن يقوم بتسليمه لها.. سيرتّب معها موعدًا ليعطيها إياه بعد تغليفه ووضعه في حقيبة كرتونية زاهية الألوان، ليخبرها هاتفيًا أنه صديقك ويحمل لها شيئًا، و أنت ستمهد له ذلك معها حتى لا تصدّه بغير علم.

اعترض مراد على هذا الفعل، واجتهدت في مناقشته و إقناعه لربع ساعة، كان يؤكد عليك مرات أن الهدية بمثابة إعلان عن الاهتمام الشديد لا داعي له ولا ضرورة منه، كان يقول: "...إنها لغة حب واضحة ليست في حاجة لتفسير، ما السبب وراء إرسال هدية بهذه القيمة لفتاة كل ما يجمعك بها مجرد عمليات بيع وشراء عادية تحدث كل يوم بين الملايين أمثالكم؟!".. كيف تجيبه وهو يتكلم بالمنطق؟ بل كيف تفعل ما تفعله أنت و أنت تمتطي المنطق في مسيرة الحياة؟

- مراد، أنت لا تفهمني.. إنها فتاة بسيطة من أسرة متوسطة الحال، إن مساعدتها في شراء هاتف هي في أشد الحاجة إليه هو أمر لا بأس به.

أضفت وقد بدأت تؤمن بما تقول:

- أنت تعلم أن أعمال المفروشات والديكور تحتاج إلى التصوير وتبادل الصور بين العميل والبائع.. اعتبره من باب أعمال الخير يا صديقي.

قال مراد لينهي الحديث الذي لا يروق له:

- لست مو افقًا، لكني سأفعل ما تريد.

قلت بصوت يملؤه الفرح لفوزك في الجدال:

- صديقي، لا أعرف كيف أشكرك، واطمئن لا شيء مما تفكر فيه سيحدث، إنها مخطوبة كما أخبرتك.

أغلق مراد وهو يحدث نفسه: "أنت على أعتاب السقوط في فخ الحب يا صديقي.. سقطت قبل ذلك في فخ الزواج، والآن لا أستطيع أن أنقذك من فخٍ آخر!".

وفي العراق حيث أنت.. كنت تلوك الأكاذيب في فمك لتشبع بها قلبك، وتسرح متخيلًا مشهدها وهي تُخرج العلبة من الحقيبة الملونة.. ستندهش حتمًا وتردد: "ما هذا

الشيء؟!".. ستقوم بفتحها وهي لا تفهم شيئًا، وستظهر الفرحة في عينها وعلى وجهها، ربما ستحضن مراد من فرط سعادتها.. ستقول قولتها الحميمية التي تحب أن تسمعها منها حينما تتعجب: "ووواااو!".. ستسأل عنك حتمًا بكل شوق، وستتمنى لقاؤك في أقرب وقت لتشكرك بنفسها على هديتك، فأنت رجل نبيل نادرًا ما ستجد مثلك.

*****

حينما نقّبت في كهوف قلبك المظلمة، وجدت أن رزان، هذه الفتاة الرقيقة قد أزالت الكثير من خيوط العنكبوت عن تلك الكهوف؛ إذ وهبتك شعورًا عظيمًا بأهميتك وقدّرت معنى وجودك في الحياة عبر كلماتها العذبة التي ترددها لك بطبيعتها الجميلة، تجزم أنها لا تتصنع أو تنتظر مردودًا من أي نوع، ولربما ستقبل الهدية بصعوبة لا كما تخيلت، بعد أن ترهق صديقك بإصرارها على رفضها، لكنه سيجد طريقة حاسمة معها في النهاية لتقبلها.

من كانت رزان فعلًا لتحوز هذه الرقعة الأخطر من اهتمامك؟

رزان هي الشخص الذي كنت تتمنى أن تحبه، هي النوع الذي كنت تريده، لكنك لم تدرِ من قبل أنك كنت تريدها هي أو غيرها، ما كنت تخطط للزواج بهذه الطريقة؛ أن تحب فتتزوج من أحببت، أو أن تكون لك مواصفات ومعايير لزوجتك، ظهرت هذه المعايير والصفات الآن، الآن تكتمل الرسمة السيريالية لتغوص في أعماق معانيها فتفهم ما لم تفهمه من قبل، ولتتضح الرؤية، ولتتجلى صورة متأخرة عن فتاة أحلامك، اكتملت متأخرة جدًّا للأسف!

في البداية جذبك إليها إحساس ما، عرفته فقط لمَّا عرفته، ولم ترقَ من قبل للتعرف عليه قبل ظهور رزان في حياتك، وما كان لك القدرة على فهمه أو تقدير خطره؛ لأن هذا لا يعني سوى أن الحب الحقيقي الكامل والزواج الناجح لكلٍّ منهما لديك اتجاه مختلف.

لقد كنت الفتى الأول من حيث الأهمية في أسرتك، لا غريب في ذلك، فليس لك من الأخوة الذكور أحد.. حظيت بالاهتمام المفرط من أسرتك وخصوصًا من أمك طوال سنوات نشأتك كاملة حتى سئمت طريقتهم، ما كرهتها ولكن سئمتها، خوفهم المبالغ عليك كان نوعًا من الاهتمام لا ترى له داعيًا، لم يفسدك ولم يشبعك كذلك.

أما علا فقد تعاملت معها كزوجة، وليست كحبيبة.. بادلتها الاهتمام، والحب، والمودة، فهذه ضرورات التعايش تحت سقف واحد مع آخر؛ إذ لن تستقيم الحياة الزوجية إلا بقدر وافٍ من هذه العواطف، كأنها الهواء والماء والطعام لأي كائن حي، كنت تشعر دومًا أنك مضطر لذلك، مسيّر لم تختَر شيئًا، وسواء أحببته أم لم تحبه

فأنت رضيت به، دينٌ اعتنقته بالوراثة دون أن تؤمن به على وجه اليقين؛ ولهذا كانت رزان مختلفة في كل شيء.

أحببت اهتمامها أكثر من اهتمام غيرها؛ فبقيت كلماتها وهي تحُثك على الاعتناء بنفسك تطرب أُذنيك، هذه النصيحة التي اعتدت سماعها من أهلك وزوجتك آلاف المرات، وكأنك تعيها للمرة الأولى في حياتك؛ لأنها خرجت من الأنثى المدفونة في أدنى أعماق ثقافتك، حتى وإن لم تعرف من قبل أي أنثى بشكل ما أو بآخر، ولم يدق قلبك في حضرة الجنس الآخر بينما كان سيتوقف مرات عديدة في حضرة رزان، أو بمكالمتها هاتفيًّا.

وكأن جولة التفتيش الذاتية أصابتك بالتوتر الشديد، فأدركت أن وضعك مزري أكثر من وضع مراد، لقد كان صديقك محقًّا في ما قاله، إنّ للفتاة مكانًا محجوزًا باسمها في قلبك منذ قديم الأزل.

لكن ماذا عن المبادئ التي نشأت عليها؟! ما أنت عليه الآن يخالف ما آمنت به من قبل؛ لم تعترف قط بعلاقة بين رجل وامرأة تخلو من نية صالحة، أو هدف اجتماعي لائق.. أنت يا من يلقب بالرزين جاءت رزان لتهزعرش رزانتك، جاءت عن غير عمدٍ منها لتخطّ في دستور ثقافتك قوانين رومانسية عاطفية خرقاء، جاءت لتقرر بواح القصص الوردية الحالمة، وتبيح السهر لسماع الأغاني والتأثر بها، وتدير وجهك نحو السماء لتلاحظ القمر، ولا تجرؤ أن تشبهها به حتى لا تخسر صداقتها، فهي لا تعلمك إلا رزينًا كاسمها.

ويلٌ للشجي من الخلي! ماذا فعلت بنفسك يا ابن الحاج شوقي؟ هل ماضيك المميز بالتحفظ كان عيبًا؟ هل انشغالك طول السنين قبل زواجك بالدراسة والعمل كان سببًا في ترك مساحة داخل عقلك وقلبك فارغة تزينها خيوط العنكبوت؟ ظلمت نفسك ربما، لكنك ظلمت قلبك مؤكدًا، ولست وحدك من سيدفع الثمن.

تحدث نفسك: "انهمك بالمهام يا كريم - أي مهام والسلام - في الحياة، انغمس بالكامل في بِركة تقليدية من الضغوطات والعمل، لا تترك دقائق فارغة لتفكر مرة أخرى في هذه الأساطير".

لعل يدك احترقت عندما وضعتها فوق منبع الحيرة التي تعاني منها، لعلك تفتقد ما امتنعت عنه، لعل ما تلقاه اليوم هو حرمان الماضي.

*****

ها هي قطتك المدللة تدنو لتتمسح في سروال اهتمامك، ولتعبّر عن امتنانها الشديد لهديتك القيمة.

شكرتك بكل أدب ولطف، و أقسمت لولا أنها متيقنة من نواياك الحسنة لما قبلتها.

تخيلتها أمامك ترفع وجهها نحو وجهك وتركز بجرأة في عينيك، وقد خرجت خصلات من شعرها الأسود من تحت سيطرة وشاحها القصير ليزيد من اتساع تحديقك فيها وسحرك بها، كانت لتقف على أطر افها وهي تفعل ذلك بالتأكيد، فهي قصيرة ولا تتجاوز برأسها موضع قلبك، ظهرت الابتسامة على ثغرك حين تخيلتها على هذه الهيئة، لقد زادها قصر قامتها حُسنًا على حسن، بينك وبينها آلاف الأميال إلا أنك تشعر بقربها الآن.

أرسلت إليك:

- صديقك هذا ظريف جدًّا، وجريء أيضًا.
- ماذا فعل؟ كنت على يقين أنه سيسبب لي الإحراج.
- أبدًا.. لكنه ذكر شيئًا عن تشبيهك لي بالقطط وهذا الذي سهّل له التعرف عليّ.. هل تحب القطط؟

مراد هذا لا يكفّ عن المزاح.. عادته المستدامة.. لقد اطلع على صورتها من قبل، لكن هناك شيطان في رأسه يملي عليه أفعاله.

توقفت عن مراسلتها لدقيقة مفكرًا هل لسؤالها عن حب القطط مغزىً أم أنه سؤال عابر ليس إلا؟

كتبت لها: "لا"، فردت بمكر: "هل هذا يعني أنك لا تحبني؟!"، وعقّبت بإرسال سطرين كاملين لرمز وجه قد أسدل شفته السفلى ليعبّر عن شروع أحدهم في جعلها مستاءة، ثم تبعته بعشرات الوجوه الباكية ليخيم الحزن المصطنع على صفحة المحادثة.

ضحكت حتى أسمعت نفسك صوت ضحكتك وعينك لا تفارق شاشة الهاتف، لكن سرعان ما اكتست ملامحك بجدية أخفت قهقهاتك خلف ستارٍ من الرجفة؛ لا بد أنك قد أفرزت قدرًا لا بأس به من الأدرينالين أيضًا فور وصول رسالة من علا تتساءل فيها عن السبب في بقائك ساهرًا حتى هذا الوقت المتأخر، فأنت تظهر لديها متصلًا؟!

و أنت لا تهوى الكذب ولا تألفه، لكنك كذبت!

و أنت لا تحترم الكاذبين ولا تثق بهم، لكنك كذبت!

إخبارها بالحقيقة مسألة معقدة مثل سلك سماعة هاتفك؛ سيطول تفسيره وشرحه بلا فائدة، رجحت أن إخفاء الأمر سيخفف عن عاتقك سلسلة لا تنتهي من الأكاذيب، وسلسلة أخرى من الاتهامات التي ستوجه إليك حتمًا وليتك بريء في معظمها، وستغضب علا لا شك في ذلك.. الأفضل ألا تحيط رقبتك بأطواق النار بسبب تفاهات صغيرة؛ يكفيك ما يحيط بك هنا من هموم، ثم هذه كذبة بيضاء لن تضر أحدًا!

تركت الهاتف على السرير ونهضت، أطلقت زفيرًا قصيرًا ليس له صبر، وعاهدت نفسك أمام نفسك قائلًا: "الأمر لن يزيد ولن يتطور عن مجرد الاهتمام بفتاة بسيطة لمساعدتها في متطلبات الزواج".

*****

مرت دقائق قليلة تساقطت فيها سهام النوم على رأسك تترى، حتى عجزت يدك عن رفع درع المراوغة أكثر من ذلك، فاستسلمت لمن لقّبوه بالسلطان مغلقًا جفنيك المرهقين، وسرعان ما انتظمت أنفاسك وغرقت في سباتٍ يتعمق تدريجيًّا رويدًا رويدًا.

"كانت الفتاة تجلس على مقعد جوارك في الحافلة، جميلة وبسيطة في ثيابها كالقطط تمامًا لا تتصنع، وقد بدت بكامل استعدادتها لبدء يوم عمل جديد لتزيد بأجره من فرص اقتناء كل ما ينقصها ويلزمها من تجهيزات بيتها المستقبلي؛ شأنها شأن أي فتاة أخرى في حالتها، ففي أسرتها من الأخوات غيرها ما يُعد همًّا ثقيلًا على أبيها، غير أنها تكبرهنّ جميعًا، فتجدها بمرور الأيام تقتسم الأعباء مع أبٍ يسعى على أرزاقهم بسيارة أجرة تلهث وتسعل مثله تمامًا كل بضعة أمتارٍ من السير، لكنها كل ما يمتلك في هذه الحياة الصعبة، وهذا ما يتقن عمله.. على رزان أن تشقى أكثر لتلحق بركوب أول قطار زواج يلج محطتها، فلا تتعطل مسيرة المنتظرات من الأخوات خلفها، الأخت الكبرى أولًا كما قررت أمها.. كلها أفكار ساحت خارجة من عقلك الباطن، والآن هي بجوارك في الحافلة تحدثك عن خطيبها سامح، وعن طباعه السيئة معها.. لا بد أنك تكنّ له قدرًا لا بأس به من البغض والحقد، كأن الرجل سرق منك أحد متعلقاتك المهمة، ما أدراه هو أنك تفكر فيها على أنها متعلقات مهمة؟ بل من أخبرك أنت بذلك وصدّقته؟ لا تلومنّه إذ وجد جوهرة ثمينة قبلك فأحاط بها، بينما لم تلقِ أنت بالًا يومًا ما بالبحث عن جوهرتك الخاصة من تلقاء نفسك.. كل هذا يدور بخاطرك بينما محصِّل التذاكر ينتظرك في ملل حتى تقوم بإقناعها بالدفع في مرة لاحقة، عزيزة النفس هي، وهذا يزيدها جمالًا وجذبًا، "فلتدفعين في المرة القادمة.."، فقط على أملٍ خفيٍ لديك أن تكون مرة قادمة.. ويظهر مراد في المشهد بغير تمهيد، كتلته العضلية المستفزة توفر له

مساحة جيدة في كل الأماكن، يضحك مبديًا أسنانه البيضاء كعادته، أخذ يعرض عليك صورًا للهدية، التقطها ليرسلها إليك، تنظر للصور بإعجاب والبهجة تتقافز بغير حذر فوق تضاريس وجهك، ثم فجأة يسحب مراد الهاتف كالبرق يخطف الأنظار، فتوبّخه قائلًا: "ماذا دهاك يا مجنون؟"، فتنظر إلى ما ينظر إليه خلفك لترى علا تقف على مسافة قريبة جدًّا منك، مسافة تُمكّنها بسهولة من مشاركتك رؤية تفاصيل الصور على هاتف صديقك.. تحدّق إليك كأنها ستحرقك بنظراتها، وتغادر ساحبة سارة من يدها الصغيرة بدون كلمة واحدة.. تقف متجمدًا لا تهتز ولا تهتم لشيء سوى مصيبتك، لكنك لا تدري ماذا تصنع؟!

لحسن الحظ، توقظك أصوات طلقات متتالية من "كلاشينكوفات" الأهالي الغاضبين، فتنتفض في فزع مضاعف وقد تعرقتْ كثيرًا رغم أن مكيف الهواء على درجة تجعل الجو لطيفًا وباردًا شيئًا ما.. تنظر في هاتفك فتجد أنها تجاوزت الثانية صباحًا ببضع دقائق، إذن لم تستغرق في النوم سوى عشر دقائق تقريبًا، وقد رأيت فيها ما رأيت، وحلمت فيها بما حلمت.

صوت طلقات النيران لم ينتهِ بعد، لقد انتصر الملل على الفزع والخوف في هذه الليلة.

*****

فجوة عاطفية

الأيام والليالي يُجيدان التكرار بطريقة ملهمة ومملة، ولا يبدد الملل ولا يغيره سوى حديثًا ليليًّا منتظرًا معها، موعدًا قد حددتماه يناسبكما كل ليلة، يتو افق مع طبيعة معيشتها وسط أسرة متحفظة، و أيضًا كونها فتاة لديها وظيفة مجبرة على الحفاظ عليها.

أما عنك فلم يكن هذا الموعد ليناسب طبيعة عملك؛ لكنك ستعتاد على السهر، وسيكفيك من النوم القليل، ما دام يصاحب ذلك مزاجًا جيدًا.

أصبحت أهدأ كثيرًا مع علا، وصار بالك أطول في تحمل أخطائها الساذجة المتكررة التي تلاحظها أنت دومًا؛ كأن هناك قوة خفية تمدّك بالصبر على أفعالها الآن، ثمرة نادرة وربما خبيثة تلك التي تنبت على فروع العلاقات المتعددة، أو لعله ضميرًا مستترًا يدفعك نحو المبالغة في حسن المعاملة معها بدلًا من تأنيبك لثرثرتك الطويلة مع رزان في كل ليلة، وكذبك على علا.

صارحتك الفتاة بما ينغّص علاقتها بسامح خطيبها العصبي دائمًا، كثير الصراخ لأتفه الأسباب، لكنها تحبه ولا تستطيع البعد عنه.. لقد أرغمته على التقدم خطوة نحو المسار اللائق بها، فحددت له موعدًا لمقابلة والدها وطلب يدها منه، وبذلك تتخذ علاقتهما شكلًا طبيعيًّا ممهدًا تكون نهايته الزواج، بينما كان سامح على العكس من هذا تمامًا، فحماسه للسعي في هذا الطريق أقل مما ينبغي، هو لم يفكر فيه بجدية كالتي يشاهد بها مباراة كرة قدم لفريقه المفضل على المقهى، ماذا كانت تنتظر منه؟ هؤلاء الأشخاص الذين تجبرهم فتياتهم على لقاء آبائهن لطلب أيديهنّ لا يكملون الرحلة بقلوبهم للنهاية.

امتدت علاقته معها لسنوات تحت مظلة وهمية من الظروف خلقها هو لتغض الطرف عن مصارحة أهلها بوجوده داخل إطار حياتها، هي أسيرة في سجن غرامه المشدد بعد كل محاولات التودد منها والتقرب إليها ليظفر بقلبها، أذاقها الحب بشكل ولون مختلف في أكثر من مرة وموقف، وأخبرها بأنها مثيرة، وقد أدمنت مشاهدة ذلك في عينيه، فلما وقعت في شباك حبه اللعينة شعر بنهاية المغامرة العصية، وحقق غايته في امتلاك قلبها، بالطبع زهد فيها بعد ذلك وصارت مملة ولحوحة بين ليلة وضحاها، وغربت شموس إغرائها ليزول بذلك نهار حبها تدريجيًّا من سماء دنياه، لكن هيهات، فهي لن تتركه يتقن دور الوغد لنهاية القصة، ستكون أذكى منه وأمكر.

"الرجال يحبون المتكبرات.. ولا يسيء الرجل إلا لمن يضمن بقاءها".

دوستويفسكي

*****

اعتمد سامح في تجهيز شقته على جزء من راتبها.. لم تمتعض لذلك أو تتأفف، فهي تعتقد أن هذا ضروري وواجب في هذه الأيام المكفهرة؛ لتخفيف عبء تكاليف زواجها، ومشاركة شريكها المستقبلي في ترسيخ البنيان الاجتماعي.. ليس هذا الأغرب في قصتها معه، ما حاز على استنكارك أكثر كان اشتراطه عليها أن يبقى الأمر خفية بينهما ولا يعلمه أحد من أهلها أو أهله، فلا يليق برجولته أن يعلم الناس اتفاقًا كهذا، لكنه بالطبع لم يصرّح لها بالسبب الحقيقي، استمرارًا في أكاذيبه أخبرها بأن أسرار البيوت لا تخرج للملأ! كانت تحس بكل كذبة يختلقها، لكنها قررت أن تصنع من أكاذيبه و اقعًا ليس افتراضيًّا ولا مفر منه، وأهم كذبة قررت أن يعيشاها هي كذبة البيت الذي له أسرار، ذلك البيت الذي بناه لها على سحب فارغة لن تمطر يومًا، فتخيلته معه، وطارت فرحًا بغير أجنحة، وتغاضت عن تصرفاته الدنيئة متمسكة بالحلم الوحيد الذي شاركها إياه واعتزمت هي على تحقيقه.

لقد علم أنها لن تتذمر أو ترحل مهما أظهر من قسوة وقبح، فاعتاد توبيخها على الدوام، وأهملها حتى وإن أعلنت طلبها للاهتمام بكل وضوح.. نصحها الجميع من صديقاتها وأخواتها أنه غير لائق لها بالمرة، و أنه لا يستحق ظُفر إصبع قدمها الصغير، وهو نفسه يعلم ذلك في قرارة نفسه، لكنه الكِبر الذي نما بداخله جراء تمسكها به، وبذلها وتضحيتها من أجله؛ كان كالستار على مر آته، لا يستطيع رؤية قبح حقيقته من خلالها.

بعد الخوض في بحيرة المشاعر العظيمة ذات الشاطئ الواحد؛ فالشاطئ الآخر ما زال مجهول الموقع لم يُكتشف بعد! قصة غرامية مبتورة من طرفه صارت طويلة ومرهِقة لهما معًا، هي تتمسك بحبال العناد التي أدمت يداها، وهو يشعر بالحبال نفسها تحيط به وتجرّه إليها جرًّا بغير رغبة منه، ومع ذلك ما زال يداعبها الأمل أنه سيتغير للأفضل يومًا ما، يوم أن يُسجن برفقتها بين جدران صماء، وتحت سقف بيت واحد.

قلت لها ناصحًا:

- تلك الجدران ستسرب غلظة صوته لتصل للجيران بسبب كوب شاي تأخر عن وقته بعد وجبة دسمة.. صدقيني هذه هي أبسط أنواع المشكلات التي ستواجهينها في رحلتك معه، أنتِ عنيدة في حبكِ له، وهو لا يبالي.
- أعدك أنني سأحاصره حتى أقتصّ منه جراء كل المتاعب والضغط النفسي الذي جعلني أعانيهم.

كانت تحكي لك وتبكي، وفي صدرها يدور سؤال طبيعي جدًّا؛ من أي منبع ستستقي الصبر على حبها له دون أن يكون متبادلًا؟

أنت تدرك أن الفتاة تفتقد الاحتواء الكافي، هل عليك أن تكون البطل في كل قصة؟ بل أنت تود لو كنت البطل في كل مشهد!

عبثت برأسك أفكارًا كثيرة عن الحياة غير العادلة؛ لو كنت مكان هذا الشاب لفعلت وفعلت، أنت تراها تستحق الأفضل، وتراها أيضًا بعين قلبك أنها الأفضل، وكان من الخُبث المُقنع بالمواساة أن تلمّح لها بذلك، وأن تركز عليه أيضًا!

منذ بداية معرفتك بها وهي تتخطى الحدود التي بين قلبك وقلبها، تخطو برقة ورشاقة فتصير أقرب و أقرب، جريئة لا تخشى فخاخ الحب مثل مراد، تعلم ما تفعل كخبيرة في فنون الحياة كافة، تتنقل بخفّة كراقصة رشيقة بين لغام الحب، والإعجاب، والميل، والهوى، فلا تكاد تخطئ موضع قدم من قدميها.. لو كانت عاهرة لأسقطت الجميع وجعلتهم عهارًا، وأولهم أنت، لكنك تتلذذ بقربها، وتحاول أن تبقي عليه للأبد، ساذجٌ أنت إذ لم تعلم تمام العلم أن سر سعادتك بقربها ما هو إلا حرمان الزمن القديم، لكنك ساذج وضعيف، لا تقوى على التفوه بحقيقة ما يزداد يقينك به كل ليلة.

*****

لما كنت عائدًا من مدينة الرحاب حينها بعد معاينة شقة أحد العملاء، قررت أن تتسوق في إحدى متاجر المدينة لتأخذ فكرة عن بعض الأسعار والخامات المطلوبة للعمل، هناك رأيتها للمرة الأولى، وبعدها بنصف ساعة رأيتها مرة أخرى في الحافلة التي ستعود بكما، جلست بجوارك دون تردد؛ حيث لم يكن ثمة مقاعد كثيرة شاغرة.

ألقت التحية باحترام، وقد تذكرتها على الفور...

- تفضل.. الطريق طويل وممل.

كانت فطيرة محشوّة بالعجوة، أخرجتها من حقيبتها وقدمتها لك، لكنك رددتها بخجل شاكرًا إياها:

- أشكرك جدًّا على ذوقك.

رفعت حاجبيها كالمصدومة، وقالت وهي تشهق:

- ماذا؟! أتريد أن تجعلني عانسًا؟! لا بد وأن تأكلها، ليكن في علمك هذه من صنع يدي.

بدأ الخجل يتساقط من فوق رأسك وكتفيك أمام سجيتها وتلقائيتها المفرطة، بينما ظل محتفظًا بأقوى علاماته في صورة حبيبات عرق احتشدت على جبينك.

قلت بسرور:

- إن كان الأمر كذلك، فأنا سأتناولها ولا شك.

قضمة صغيرة لوكتها بين جنبات فمك الذي أحكمت غلقه جيدًا أثناء الأكل، ثم أبديت إعجابك بالشطيرة:

- مذهلة! إنها بالسمن البلدي.. أنتِ تُجيدين عمل الفطائر.

بنبرة مؤكدة يخالطها صوت المضغ قالت:

- هممم بالطبع، و أنت تجيد التذوق.

مدت يدها لك بمنديل و أكملت قائلة:

- أنا أجيد أعمال المنزل كافة.. هذه طبيعة بيئتي التي ترعرعت فيها.. العيش بالقرب من الأرياف له آثار مفيدة.. وطباع أهل الريف معروفة؛ لا بد للفتاة أن تتعلم جميع الخبرات المنزلية من إعداد للطعام، وتنظيف للمنزل منذ نعومة أظافرها.

ثم ضحكت وتغيرت ملامح وجهها للفخر شيئًا ما، ومررت أصابع يدها اليُمنى على أظافر يُسراها وهي تقول:

- والأهم من ذلك، أن تظل أظافرها ناعمة!

قالتها ببلاغة يندر مثلها أن يتكلم بها، فبدأ الطعام يظهر بداخل فمك؛ جراء انفرجه قليلًا من الدهشة، وتساءلت في نفسك: "أي ريف خرجت منه هذه التحفة الجميلة؟".

كدت تتكلم لكنها أكملت بخفّة دم صارت صفة ثابتة لها في رأيك:

- والآن هل تسمح لي بسؤال؟

اضطربت قليلًا وقلت و أنت تعدل من وضع نظارتك:

- تفضلي..

- ما اسمك؟ والسؤال الثاني هل أنت مرتبط؟

تسارعت دقات قلبك وازداد توترك، نظرت لها آخذًا نفسًا عميقًا، وكنت تفكر ما الغاية من سؤالها الثاني؟ فتاة لتوّها تعرفك، و أنت رجل غريب عنها لمَا تصبح بعد صديقًا لها حتى، فلماذا تريد أن تعرف إن كنت مرتبطًا أم لا، وخصوصًا أنت تدرك تمامًا من الوهلة الأولى أنها مخطوبة لرجل ما؛ الخاتم الذهبي يزين بُنصريمناها كإعلان متحرك لامع عن أنها تخص ذاك الرجل.

تكلمت هي مرة أخرى قبل أن تهم أنت بالإجابة:

- معذرة؛ كان سؤالًا واحدًا فصارا اثنان.

ضحكتما وقد بدأت دقات التوتر في الانسحاب تدريجيًّا وقلت:

- أنا كريم شوقي، أعمل مهندسًا، و أنا.. مرتبط بالفعل.. ماذا عنكِ؟

وكأن السؤال لم يوجه إليها، فقالت في بلاهة مصطنعة:

- ماذا عني؟ أها.. أنا رزان.. رزان لطفي، وأعمل كما رأيتني أعمل في هذا المتجر منذ شهور.
- رزان.. اسم رائع! قليلًا ما أسمع به.
- ربما.. لقد أراد أبي أن يميزني بشيء ما، أويستبشربأن أتحلى بالرزانة والعقل وتلك الأشياء الحميدة.

ثم ضحكت طويلًا، فضحكت مجاملة لها؛ إذ لم تعلم تحديدًا على أي شيء ضحكت، وقلت:

- أجاد الاختيار.. هل أنتِ مخطوبة منذ فترة طويلة؟

لم تبدُ عليها الدهشة، كان بريق خاتم الخِطبة يعكس ضوءًا في عيون من ظن أنها حرة.. في بيئتنا لا يزال المرء حرًّا حتى يرتبط بآخر، فيتم إعادة تعريف مفاهيم الحريات طبقًا لما اتفقا عليه، هذا إن اتفقا بالفعل ولم يهملا هذه النقاط المهمة والحاسمة، ولذلك لا ترى كثيرًا من العلاقات الناجحة في مجتمعنا الفاضل.

ردت بسلاسة:

- مخطوبة منذ شهرين ونصف تقريبًا، الحياة صعبة، ولا بد من الكفاح معًا.
- شيء رائع، بالتوفيق إن شاء الله لكما.
- أشكرك.

و ابتسمت برقة لا مثيل لها.

مرت فترة صمت مغلَّفة بالاسترخاء حتى أوشك الطريق على النهاية، جال بخاطرك تصوّر لم تعهده من قبل، ربما تصبح الفتاة أكثر جرأة مع الآخرين بعد

اطمئنانها بارتباطها من الشخص المناسب، وإلا ما الذي يجعل فتاة مثلها تبدو ودودة ومرحة وجريئة هكذا مع رجل تراه للمرة الثانية في يوم واحد؟

- أعتقد أنني سأحتاج إلى مساعدتك في شراء الكثير من أقمشة الستائر والأثاث وغيرها بطبيعة عملي في التشطيبات والديكورات.

ردت سريعًا لاقتناص فرصة محتملة لتحقيق أرقام مبيعات جيدة أمام صاحب المتجر:

- يشرفني ذلك طبعًا، اكتب رقم هاتفي ولا تتردد في التواصل معي إذا احتجت إلى معلومة ما.

ثم عوجت رأسها ناحيتك وقالت:

- مهندس ديكورات أنت إذن!
- في الحقيقة أعمل مهندسًا في شركة بترول، ولكن الديكورات وأعمال التشطيبات المعمارية تُعد أعمالًا خاصة بي خلاف عملي الأساسي.

ردت في غرابة:

- لكن أعتقد أن مهندسي البترول لا يجدون وقتًا كافيًا أو حاجة ملحّة لعملٍ إضافي..
- في الحقيقة أنا أجد متعتي في هذا العمل دون غيره، أو ربما في العمل عمومًا، وذلك بغضّ النظر عن حاجتي للعمل من عدمه.

في داخلك شعرت بسعادة غير مبررة، لقد حصلت على رقمها ليس إلا، قبّحت تفكيرك هذا الذي لا يتماشى ومهنيتك، وهمست في طيات وجدانك: "لا يجب أن تسعد أو تحزن لأشياء كتلك، فأنت رجل متزوج وقد رُزقت بطفلة منذ ثلاثة أشهر فقط، فلتتحلى بالرزانة قليلًا... "الرزانة".. اسمها يحمل معنىً خلابًا.

انتهت رحلة الرجوع أسرع كثيرًا في الحقيقة من رحلة الذهاب، ودَّعتك برقة متمنيةً لك التوفيق.

دارت بينكما العديد من المحادثات لاحقًا، وتوطدت علاقتكما، في البداية بادرت أنت بسؤال لا حاجة لك به عن أسعار بعض أنواع أقمشة الستائر، ثم صار الحديث شبه يومي أو معتاد، محتفظين فيه بكل لباقة من جانبك، وبكل خفّة ظل ولطافة من جانبها.

التقيتما مرة أو مرتين عن ترتيب مسبق؛ فطريقها للعمل هو طريقك نفسه لتلك الشقة، ولكن لم ينسحب بساط التحفظ من تحت قدميكما آنذاك.

صارحتها بعد فترة بأن طبيعة ارتباطك التي أبهمتها في البداية هي الزواج، ولديك طفلة أيضًا، أخبرتك أنها كانت تتوقع ذلك على الرغم من عدم تطويق إصبعك بخاتم الزواج، إلا أنك بررت ذلك بكراهيتك للتقييد في أي شيء، حتى إنك نادرًا ما ترتدي ساعة يد أو ربطة عنق للسبب نفسه.

لم تتأثر علاقتكما كأصدقاء بمعرفة أن كلًّا منكما مرتبط ارتباطًا عاطفيًّا جديًّا، بل بدت بذلك علاقتكما أكثر وضوحًا من ذي قبل.. هي فتاة ناضجة تعي ما تفعل، وكل ما عليك أنت فعله أن تحافظ على هذا الإطار الرقيق حول لوحة علاقتكما، هذا ينفِّث عنك شيئًا ما لا تدري كنهه.. أما عنها فلن تحظى كل يوم برجل يتّسم بالوسامة العقلية مثلك؛ الوسامة العقلية قد تجذب بعضهنَّ أكثر من الوسامة الشكلية، لقد وجدت رجلًا تستطيع الاعتماد عليه في بعض أمورها، تلقي عليه بعضًا مما عجزت عن حمله بسبب بلادة خطيبها سامح.

الوسامة العقلية ساحرة أيضًا عندما يُغلّفها الدعم والاهتمام الكافي، ولما تمتزج بكثير من التودد وتقديم الكثير من الخدمات المجانية؛ وذلك ما رفع عنها الحرج في كثير من الأوقات، لا شك أنك تجعل بطريقتك تلك من الحياة القاسية جنة مزهرة، لكن يبدو أن هناك خللًا ما؛ فالشعور بينكما غير متبادل بالوصف الطبيعي للصداقة نفسها، ويبدو أنك قد تعلقت بها، وهذا ما أثار تخوفك!

*****

أم هو مُجرد وهم؟!

منذ الصغر و أنت تؤمن بضرورة سرد ما حدث لشخص ما، شخص مقرب وعزيز؛ إذ لا بد من آخر يستمع للقصة كاملة دون نقصان ويشهد عليها، القصة التي اعتقد البشر أجمعهم منذ بدء التاريخ ضرورة توثيقها لمن سيأتون من بعدهم؛ وبذلك لن تنتهي الحكايات إلا بنهاية البشر.. هي الفضفضة التي تساعدك على التفكير، ومراجعة الأفعال، فالإنسان قصة منذ صرخة ولادته وإلى آخر نفس له، وكنت تعتقد أن مغامرات قصتك تستحق السماع والروي.

وقد مر هذا المستمع الجيد لحكاياتك بمراحل تكوين كغيره من الكيانات المختلفة، فكانت جيهان شقيقتك لسنوات طويلة من الطفولة البريئة هي المستمع الأول، كانت طفلة هي الأخرى بريئة تحب الاستماع إليك وإلى مغامراتك الساذجة آنذاك، ثم نضجتْ كفاية لتعي أن كل ما كنت تسكبه في دلوها من أسرار وحكايات تذهب لتروي به عطش فضول أمك التي يقتلها القلق والخوف عليك دومًا.. لقد كانت جيهان تبثّ لها الأخبار بانتظام، تطمئنها أن ابنها ما زال بخير ولم يدخن السجائر بعد، كما لم تظهر له فتاة أحلام يهيم بها باكيًا في الليالي الباردة دون داعٍ، لم يحدث شيء كهذا للأسف، ولم يُذكر في مذكراتك الكلامية معها كلمة فتاة أحلام.

بعد سنين اكتشفت الأمر بأكثر من دليل، وصدفة، وزلّة، لكنك لم تكُفّ عن الحكي لها؛ فقد صار إلزاميًّا لكليكما، و أنت في غنى عن الصداع الذي ستسببه لك جيهان إن لم تفعل لها ما اعتادت فعله، وهنا ظهرت القيمة الحقيقية لوجود صديق مثل مراد.

قسمت أسرارك بينه وبين جيهان حسب نوع القصة، فما لا تجرؤ على البوح به لأختك يُلقى في الصندوق المجاور الذي لُصِقت عليه لافتة تحمل اسم صديقك العزيز. يوم بعد يوم يكتظ صندوقه بالكثير من الحكايات والأحلام الوردية الجريئة، وكثيرًا من علامات التعجب عن العلاقات بين الرجل والمرأة، بينما كان يحوي صندوق جيهان كلمات روتينية شبه محفوظة ومتكررة كالتي يجيبون بها موظفو الحكومة.

مراد أيضًا يقدم آراءً معتبرةً وسديدةً، وإن لم يفعل فيكفي أنه يستطيع التفكير معك بطريقتك، فهو الصاحب وليس الساحب، يشير إليك بما يناسبك ولا يوسوس لك بالشر وإن كان يفعله، وهذا الذي فتح قلبك له بكل ما حوى، وبغير خوف منه أن

يفضحك أو يسخر منك أو يؤذيك، فهو الرجل الذي لن يدعوك لشرب الخمر حتى في حال سُكره.

اعتدتما أن تتقابلا عند ناصية في أول الشارع الذي فيه بناية منزل والداك؛ تتجمعا للسمر، وشرب زجاجات المياه الغازية، ولعق الآيس كريم.. لعق الآيس كريم كان من المحرمات عليك قبل اعتياد تلك الظاهرة برفقة مراد؛ تلك الأفعال التي كنت تُحرّمها على نفسك قبل مصاحبته، تعترف أنه دنّس بعضًا من طقوس الخجل التي كنت تحافظ عليها في مراهقتك، لكن هذا تم برغبة منك أولًا.

مراد هو الشخصية الغريبة المتناقضة لأبعد حد، أنت وكل من حوله يرونه كذلك، لقد ضيّق المنافسة على كل من يتهم نفسه بهذه الصفة عبثًا؛ هذا هو المتناقض "السوبر"، هلمّ لتطالعوه، وليكتشف معظمكم أنه لا نصيب لديه من مصطلح التناقض تقريبًا عندما يتعرف عليه.

عمل في مجال السياحة لسنوات كان فيها عملًا مربحًا يكفيه، لكن منذ اندلاع الثورة بات المجال واهنًا، يزداد ركودًا يومًا بعد الآخر، وصار العائد منه لا يُسمن ولا يغني من جوع، فقرر السفر إلى دولة الإمارات مع صديقة برازيلية له تُدعى آنا، كان قد تعرّف عليها أثناء عمله على متن مركب سياحي في مدينة أسوان.

أقنعته آنا أنهما سيجدان أكثر من فرصة عمل مناسبة في بلاد الخليج، كانت تعلم أنه يحبها كما كانت تحبه، بل تعشقه، ربما فقط ينتظر الوقت المناسب ليعلن لها ذلك، وفكرت أن سفرهما معًا سيعجل من حلول هذا الوقت المناسب.

- ما الذي تفكر فيه مراد؟ ما الذي تنتظره في هذه البلاد؟ فلنرحل معًا.

هكذا كانت تجاهد لتقنعه بإنجليزيتها الركيكة..

- مراد أنت هنا غريب لا عائلة لك، وخسرت عملك أيضًا!
- مراد أنا أشعر أنك شخص مهم في حياتي، بعثتي للدراسة هنا قد انتهت أيضًا كما تعلم، ولا أجد أي هدف لي هنا، كما أنني لا أريد العودة إلى البرازيل ولم أحقق النجاح الذي وعدت نفسي به.

هنا تكلم مراد أخيرًا:

- وما النجاح الذي تريدينه يا آنا؟

قالت بدون تردد:

- الحب.. الحب يا صديقي.

- لن أكون واهمًا إذا قلت أنكِ قد حققتِ ما أردتِ، أنا أحبك، و أنتِ تعلمين ذلك، وأعلم أنكِ تبادليني الشعورنفسه، فلا داعي لإخفاء الأمرأكثرمن ذلك.
- حسنًا، أنت محق، كنت فقط أريد أن نعلن الحب بصورة أفضل مما عليه الآن من مجرد مناقشة عادية في سياق موضوع آخر، لكن لا عليك، المهم الآن أن نظل معًا.

كان يعلم أن جبال الاختلافات بينهما ذات ارتفاع شاهق يستحيل عليهما تسلقه واجتيازه، بالاضافة إلى عائق آخر مضمرفي مفاهيمه المتأصلة في رأسه عن الحياة؛ فهو يرفض فكرة الزواج والارتباط الدائم، لكنه يقدس الحب ويمارسه بكل ألوانه وشتى معانيه، لكن لديه نظرية شاذة عن الحب والزواج، ربما عن الحياة ككل أيضًا، فتراه يرفض احتكار الحب أو اختزاله في شخص واحد فقط؛ فالحب كالهواء الذي يتنفسه، لا يخلومنه مكان، قد لا تراه بعينك، لكن تشعربه ولا بد، ولن تعيش وقتًا طويلًا بدونه، وحبس الهواء المحيط بك في أنفاس "زوجة" فكرة اجتماعية لا تبدوله مجدية.

الحب هو معنى الحياة، ولا يجب أن يفسد معنى الحياة تلك المنغصات الاجتماعية التقليدية.. إن كل ما يراه ويسمعه عن الحب يشترك في مصيره الذي ينتهي بالزواج أو الفراق حتمًا، ونهاية الفراق قد جرّبها من قبل مع والديه اللذينَ فارقاه إلى العالم الآخرواحدًا منهما تلو الآخر.. أما أخته الوحيدة فقد تزوجت وهاجرت إلى كندا قبل الوفاة بأشهرٍ قليلة، ولم تتمكن من الرجوع لتقبيل رأسي والداها قبل أن يُحكم مراد رباط الكفن عليهما، ليخفي جسديهما للأبد.

ماتت الأم وبعدها بعشرة أيام مات الأب؛ لم يحتمل الحياة بدونها، ومن زعم بأن الحياة لا تتوقف على أشخاص أوتنتهي بسبب فراق شخص ما، فعليه أن يعيد النظر!

لا.. لن يتعلق قلبه مرة أخرى ليتحطم مرة أخرى، من يثبت له أن الحب لا يموت بموت الأحبة.. لقد تمكن منه ألم الفراق الذي استبدله بالحب، والآن يريد أن يعيش حرًّا من قيود الحب، ومن المنغصات التي بسببها لا يعيش الإنسان حرًّا أن يرتبط بآخر باسم الحب أو الزواج، فالحرية في اعتقاده تتناقض مع فكرة ارتباطه بآخر، مهما كان الحب بينه وبين ذلك الآخرقويًّا أوعميقًا!

كانت فلسفته عسيرة الفهم عليك، فما ظنك بفتاة جميلة مثل آنا البرازيلية؛ آنا التي تمارس الحب والحرية بمفاهيم أخرى مختلفة لمفهوم صديقك المتفرد، هي لم تشك في حبه لها، لكنها لم تستطع أن تتقبل وجودها بجواره بهذا الشكل، كانت

مستعدة لقطع طريق وعر من التضحيات لأجله، لكن من دون وعد منه بالبقاء بات هذا أمرًا مستحيلًا عليها أن تفعله؛ لذلك.. وبعد أقل من عام واحد في الإمارات، قررا العودة إلى موطنهما الأصلي، ليجربا شيئًا آخر، حبًّا كان أو عملًا، أو أي شيء آخر لن يمكنهما أن يجرباه معًا!

*****

الواحدة بعد منتصف ليل القاهرة.. يصدر محمول مراد نغمة خاصة لصديقه المغترب في العراق، وللمرة الثانية تصرّ تلك النغمة على أن تُعزف بلا حياء..

يأتيك صوت ثور غاضب ذو أنفاس فارغة من الصبر:

- هل أصاب رأسك طلقة طائشة من رصاصاتهم أم ماذا دهاك؟ إن كان اتصالك في هذه الساعة لغير سبب آخر سوى أنهم سيذبحونك الآن لأنك سُنّي ولست شيعيًّا مثلهم فسآتي أنا بنفسي لأذبحك بيدي.

تضحك طويلًا قبل أن تسبّه، وتقول:

- أعلم أنك توشك أن تنام الآن، لكني أريد أن أتحدث معك قليلًا.

وتكمل حديثك دون أن تعطيه خيارًا للرفض:

- مراد أنا أجد بداخلي شعورًا حقيقيًّا لتلك الفتاة.
- أي فتاة؟
- مراد لا تضيع المكالمة في اصطناع الغباء.

يتنهد مراد بملل ويقول:

- كريم، ماذا تريد من تلك الفتاة؟ ما بالك مشغول بها وهي ليست لك ولست لها؛ أليست مرتبطة بآخر؟ والأدهى أنك متزوج أنت أيضًا، لا هي من حقك ولا أنت من حقها.

حاولت أن تضفي قليلًا من الاتزان على كلماتك وقلت:

- اسمعني من فضلك يا مراد، أعلم فكرتك السوداوية عن العلاقات عمومًا؛ ولهذا أسألك أنت بالتحديد هذا السؤال: هل أنا تسرّعت بزواجي من علا؟
- كريم، أنت مستيقظ حتى هذه الساعة لتسألني سؤالًا الرد عليه عندك وليس عندي، وعندك فقط لا غيرك.. لكني لا أعتقد أنه يوجد رابط بين ما يحدث مع

رزان الآن وبين إن كان قرار زواجك صائبًا أم غير ذلك.. أنا أرى الأمر شبيه بمراهقة متأخرة إن لم يضايقك التعبير.

وأضاف:

- كريم، أنا أعلم أنك تحب علا، كما أعلم أنها أول امرأة في حياتك، وعندما نتكلم عن العلاقات من هذا المنظور فأمك وأختك لا يعدون نساءً، هذا ما يجعلك تفكر بعد معرفتك لرزان أنك ربما تسرعت في اختيار المرأة التي من المفترض أن تكمل معك الحياة للنهاية، لكن يجب أن تفطن إلى حقيقة أن هذا التفكير لم يزورك قبل هذه الأيام.. من المؤكد أنك اخترت علا لأسباب ما مقنعة وقتها، وكنت راضيًا جدًّا بهذا الاختيار؛ هذا ما أعرفه عنك، فأنت لا تأخذ قرارًا في حياتك قبل تفكير صحيح، وصحيح أيضًا أنك لم تتطرق لاختيارات مسبقة، ولكن الأمر قد تم على خير مع علا، و أثناء فترة خطبتكما لم يظهر شيء يدل على اتساع رقعة الاختلافات بينكما، والآن هي زوجتك، ولديكما سارة.. حالتك مثالية مقارنةً بشخص مثلي مثلًا!

تنفست الصعداء كأن جبلًا انزاح من فوق صدرك وقلت:

- كلامك صحيح، ومريح أيضًا يا صديقي، أنا بالفعل أحظى بزواج ناجح، وزوجة صالحة.. ربما ما جعلني أبدو مشتت الفكر هو إعجابي بتلك الفتاة، أتعجب من التوقيت، لماذا الآن؟ ولماذا رزان المخطوبة لآخر؟

- ما رأيك أن تؤجل التفكير لحين عودتك لمصر، ستتأكد وقتها أن كل شيء على ما يرام، وأن وميض إعجابك بتلك الفتاة سيخبو تمامًا.. أنا أؤكد لك أن هذا ما سيحدث.

قلت مقتنعًا بكلامه:

- فليكن ذلك.

من الغريب أن تأخذ النصيحة ممن لا تجربة له، فمراد ليس متزوجًا، ولا يميل للارتباط الجاد بأي فتاة كما تعلم عنه، مع ذلك لا تراه إلا متسكعًا لشهور عدة مع هذه أو تلك.

*****

عودة وفراق

بدأ الخريف في فرض سلطانه على أوراق الشجر معلنًا أوان سقوطها أرضًا لتدهسها أقدام المارة في انتشاء وسادية فور سماع صوت تحطمها المميز؛ ما أقسى الإنسان عند قدرته، حتى الطبيعة لا تسلم منه!

لا يختلف خريفك الخاص في العراق عن خريفك في مصر، فأنت لا تعبأ بدهس أوراق الشجر، ما يشغلك هو ارتداء الملابس المناسبة فقط.. فاض بك الكيل من البعاد عن البلاد والأهل، و افتقدت فجأة خريفك المصري الذي صار محببًا الآن وحسب.

ظننت في بداية سفرك أنك ستعتاد الحياة بدون كل ما يتعلق به قلبك وتحبذه عينيك، واعتقدت أن تلك اللوعة الناتجة عن حنينك للرجوع ستقل تدريجيًّا، وحسبت أن شعورك بوجع الفراق سيصير أهون بفعل الزمن، والآن تجد من اللوعة ازدياد، والحنين يشرع في صنع قارب للرحيل وتريد العودة اليوم قبل الغد.

ظهور رزان من جديد على مسرح حياتك، وتواصلها الدائم معك، ملأ ثقوب الفراغات التي اتسعت حيث أجواء السفر، صارت الفتاة تولي اهتمامًا كبيرًا للثرثرة معك في أي وقت، لم يكن هذا أمرًا سهلًا؛ كنت تتعجب جدًّا عندما تنتهي من محادثتها بعد منتصف الليل لتجدها ترسل لك عبر الو اتس آب صورة ورود حمراء، وذلك قبل موعد استيقاظك للعمل بدقائق قليلة، ثم تعقب قائلة: "صباح الخير"، مع مراعاتها الدقة في فروق التوقيت بين البلدين؛ هذا الفعل وحده كان يبهرك بشدة، هذا اهتمام مكافئ لمجاملاتك واهتمامك ودعمك المعنوي لها بالتأكيد.

انساب تيار هادئ يحمل على صفحاته زبد غفلتك، لم تلحظ أن دفّة مشاعرك قد استدارت في اتجاهها بلا أدنى وعي منك هذه المرة، وقلبك صار يسير في طريق غير ممهدة، نهايتها جرف مخيف ينذر بحدوث أضرار وشيكة بعلاقتكما، وسوف تؤثر تلك الأضرار على علاقتك بعلا أيضًا، فحسرة المقارنات التي ملأت عقلك الهندسي تمرر حلقك منذ عرفت رزان.

الآن تفهم ما قصده مراد بأحاديثه عن تأثير الغربة على العاطفة، ويزداد يقينك تدريجيًّا باقتراب سقوطك في فخٍّ جديد على حد قوله، وإلا فما تفسير شوقك لرؤيتها؟ لقد ضربت بفضفضتك مع صديقك عرض الحائط.

*****

في المركز الرئيس انعقد اجتماع ذو أثر سيء على الجميع، لم يستثنِ مدير المشروع أحدًا من اللوم والتأنيب، لكن من دونهم شفع لك إتقانك في ما سبق من أعمال أن تكون أقلهم توبيخًا.. في خلال ساعات معدودة ستصبح مرحلتك التي كُلفت بها مكتملة وجاهزة للتسليم، تُوجت بهذا الإنجاز مشرفًا على كافة تقارير المشروع الأخرى، فازدادت المهام فوق رأسك تزامنًا مع ارتفاع ضجيج عقلك.. أنت بحاجة إلى هدنة وراحة.

تقدمت بطلب مباشر إلى مدير المشروع للسماح لك بإجازة مدتها شهر واحد، فو افق على ثلاثة أسابيع فقط، على أن يتم السفر بعد التسليم النهائي للمرحلة، وهذا لم يمثل لك سخطًا، لكن ما أثار استياؤك أنه قد كلفك بالإشراف على مرحلة أخرى فور عودتك من الإجازة، مرحلة هي الأقل إنجازًا والأكثر بُطئًا.

هذه آفة إتقان العمل دومًا؛ نصيبك من ضريبة النجاح أن تتحمل تصحيح أعباء تقصير غيرك بصفتك الخبير المتميز.. لن ترفض بالطبع؛ كلها مهمات تحت اسم العمل على كل حال، وستقبل أي شرط للحصول على إجازة بعد علمك بأن إجازتك استثنائية دون سواك من بقية الزملاء، حتى ماهر لم يحصل على ما توشك أنت على الحصول عليه الآن، على الرغم من استقرار سير الأعمال في مرحلته، فلتعتبر نفسك محظوظًا يجيد عمله إذن كما وصفك مديرك بهذا الوصف.

*****

صباح أول يوم من أكتوبر عام 2015

تُحكم غلق حقيبة صغيرة بها جواز سفرك وبعض الأوراق والتصاريح اللازمة لتحملها على كتفك الأيسر بعد ما تتأكد من غلق الحقيبة الأكبر حجمًا، تشدّ على زمامها بقبضتك وتستعد للمغادرة.

اليوم هو ذكرى مولدك الثلاثون.. رقم معتدل ووسط، يسوق إليك من القلق القليل، ومن الطموح الجزء الأكبر، رقم يجعل من السعادة والقوة خيولًا تجرّ عربة الحياة إلى قصور الأمنيات العظيمة.. لست شيخًا بعد، وفارقت جميع محطات المراهقة مركزًا بصرك على ما علمت أنه تحديد المصير والمستقبل.. أصبحت أقوى لتخوض معارك الحياة، وأعمق تفكيرًا للتخطيط لتلك المعارك، وأهدأ من ذي قبل، واثقًا من النصر، متقدمًا في سباق الحياة بمركز لا بأس به، ومع ذلك كله لا ترى لقلبك عرشًا يرتكز ويتربع عليه متنعمًا بالمُلك العاطفي.

اليوم هو ذكرى مولدك الثلاثون، لو علمت علا بعودتك لفاجأتك حتمًا باحتفال رائع، لكنها اكتفت بمكالمة قصيرة أمس هنأتك فيها قائلة: "كل عام و أنت في حياتي ملكًا

و أنا ملكتك يا حبيب قلبي"، لقد اشتقت حقًّا إليها ولطفلتك سارة وعليك أن تحضر لهما بعض الهدايا قبل عودتك، فكرت أنه من الصعب فعل ذلك في البصرة.. من حسن حظك أن طائرتك ستمر بمدينة دبي، وستنتظر بالمدينة أربع وعشرون ساعة كاملة يمكنك خلالها التسوق لشراء الهدايا وبعض الملابس، ولن تنسى بالتأكيد إحضار هدية مميزة لرزان، صحيح أنها لم تتذكر يوم مولدك ولم تهنئك حتى الآن، لكنك لا تهتم لمثل تلك الهفوات الصغيرة، لو كنت أنت الناسي لذكرى مولدها لصرت من المغضوب عليهم.

مراد الوحيد الذي يعلم بخبر عودتك، وسينتظرك في مطار القاهرة هو وسيارته الزرقاء الصغيرة الجديدة؛ إذ أصرّ أن يستقبلك بها حين وصولك، أخبرته أن هذ اا النوع من السيارات لن تتسع حقيبتها لأغراضك، لكنه رفض نصيحتك بغطرسة ساخرة.

وأمام صالة الوصول تبين له حمق إصراره؛ إذ رآك خارجًا تجرّ خلفك حقيبة كبيرة رمادية اللون تكاد تفوق سيارته حجمًا، فضلًا عن أخرى رقدت فوقها كالجاثوم الأسود.

لوّح لك بيده فانتبهت له وبادلته التحية مع ابتسامة عريضة تفي أيام فر اقه، وأسرعتما الخطى في اتجاه بعضكما لتتعانقا، وتبادلتما القهقهات الصاخبة.. ربما لم يحدث أن تعانقتما قبل ذلك أبدًا في رحلة صداقتكما العامرة، فأنت تُفضّل المصافحة فقط وليس العناق وإن طالت مدة البعد.

تم حشو السيارة بالحقائب بعد عناء بذله مراد عقوبة كافية له على تقدير اته الخاطئة، باركت له على السيارة بكل ود، ثم دلفت جوار مقعده منتظرًا إياه أن يبدأ القيادة..

- هل ما زالت علا لا تعرف شيئًا عن خبر عودتك؟

وجّه سؤاله وهو ينظر إلى الطريق المزدحم أمامه، فأجبته:

- نعم، أفضل أن أفاجئها بذلك.
- حسنًا فليكن.. سأقترح عليك شيئًا غير قابل للرفض أو النقاش؛ سنتناول الغداء في مطعم قريب أولًا، ثم ننطلق بعد ذلك إلى المنزل.

و افقته على فكرته بشرط أن يختار مطعمًا جيدًا تسدّ فيه رمق جوعك، فشركات الطيران لا تقدم طعامًا يرضي معدتك، فانطلق مراد حيث مكانًا لا يصلح لسد رمق جوع قطٍ شريد!

"كافيه" مرموق يقدم المشروبات الساخنة والباردة مع بعض العجائن والمخبوزات أو الكعك!

- هذا المكان يصلح لشرب القهوة والثرثرة، لكن أين اللحم المشوي في هذا المكان؟! أنت هو أنت يا مراد، لا تكاد تفقه شيئًا عن فنون الطعام والتغذية.
- لا تلومني كثيرًا، ستتغير نظرتك للأمر عاجلًا.

كدت أن توبّخه مرة أخرى همسًا بعد دخولكما للمكان، لكنه توقف خلف طاولة تشغلها فتاة وحيدة تجلس في هدوء، نظر لك وهو يشير إليها من خلفها قائلًا:

- أعلم أنك لا تحب المفاجآت يا صديقي، لكنها هي من دبّرت كل ذلك!

التفتت الفتاة الجالسة بطريقة درامية فأضاءت عينك بالتفاتها، ونهضت من جلستها متجهة إليك...

إنها رزان! ومن غيرها يمكنه فعل هذا! ومن ادعى أنك لا تهوى هذا اللون من التدبيرات المفرحة! كانت تصفق بحرارة وتقول:

- كل عام و أنت بخير وسعادة يا كريم.. عيد ميلاد سعيييييد!

وإذا بموسيقى أعياد الميلاد تنبعث من المكان، وفرد من العاملين يتوجه متبسمًا نحوكم حاملًا كعكة شيكولاتة صغيرة في منتصفها شمعة واحدة، تمنيت لو انشقّت الأرض و ابتلعتك لتتخلص من الخجل الشديد الذي أصاب وجنتيك باحمرار ملحوظ، كيف اتفقت رزان مع مراد؟ الآن تفهم لماذا لم تهتم بتهنئتك.. لقد جهزت لذلك بطريقتها المختلفة.. إنها ميهرة حقًّا تلك الرزان.

قلت والعرق يغمر جبهتك:

- لا أجد وصفًا لما فعلتماه إلا أنكما مجانين بحق.. أشكركما بشدة! لا أدري ماذا أقول... لقد غمرتني الدهشة والسرور في آن!

خجل شديد خالطته الدهشة غلّف وجهك بالاحمرار، بينما الشيطان مراد جوارك ضاحكًا فخورًا بفعلته، وتلك القطة الصغيرة التي أجادت التخطيط تنظر في عينيك سعيدة بما تراه من فرح يخرج منهما.

*****

رزان الفتاة النصف ريفية، التي اختلطت كثيرًا بجو المدينة الصخب المربك، لكنها وسط كل هذه الضوضاء الفكرية والاختلافات الثقافية احتفظت بعقل متزن يرضي الفريقين، اعتمدت على ذاتها؛ يقينًا منها أنه لن يقوم أحد غيرها بتقديم العون،

فساعدت أباها بكل بروحب كي لا تحمِّله شيئًا من تجهيزات زواجها، يكفيه مسؤوليات البيت، وثلاث أخوات بنات يصغرنها جميعًا.

بطبيعة عملها في أماكن شتى تعاملت مع الكثير من الرجال والشُبَّان، وتفهم الطبيعة الذكورية المتسرعة في الإعجاب بذلك الطراز من النسوة، لكنها لا تتفهمها، فقد تجعل تلك الطبيعة بعض الذكور لاهثة على أي أنثى أحيانًا، لكنها بعد فترة من الوقت استطاعت أن تفرق بين ما يختبئ خلف كل تلك النظرات المختلفة التي توكزها من كل جانب، فاتخذت استعدادتها لرد الفعل المناسب بما يتفق مع الموقف.

لم تكن لتهمل إحساسك نحوها أو لا تلتفت إليه؛ لقد فهمت أنك تحمل إليها مشاعرًا مختلفة، فلم تنزعج من صداقتك التي بدأت كلوحة زيتية رُسمت بحركات هادئة لفرشاة ذات وبرٍ ناعمٍ وقوي، لا تترك أثرًا خادشًا على سطح لوحة علاقتكما، فعلمت أنك قد تتعلق بها دون وعي أو عمد، أو تنبثق مشاعر إعجابٍ منبتها قلبك لتلتف حولها كأوراق اللبلاب، تزحف رويدًا رويدًا بخبث لطيف، حتى لا يظن أحد أن نباتًا شاردًا قد زين الجدران فجأة، أو أن اهتمامك الذي ينمو دقيقة بعد دقيقة قد يتلطخ بلون من ألوان الحب المتشابهة.. في كل الأحوال هي ما وجدت نفسها أمام شخصية سيئة سواء من النوايا أو الأفعال، بل الأفعال هي ما تثبت عكس السيء من الظنون التي قد تُعرض على قلبها، وكأية فتاة تشعر بالقلق جراء الاهتمام المتزايد؛ كان عليها الحذر من هذا الاهتمام الآسر منذ أول يوم رأتك فيه.

هل ستجرح قلبًا طاهرًا أصابه إحساس بنكهة مقدمات الحب على حين غفلة من صاحبه؟

كل ما كان يقلقها ويهزها هزًّا هو خوفها من نفسها؛ ماذا لو وقعت هي وصارت الفريسة؟ ماذا لو عشقت السمكة صنارة الصياد بدلًا من حدوث العكس؟! الخوف الأدهى من ذلك أن تتمرد على من تعاني معه قلة الاهتمام والحب، فهو رغم عيوبه القاتلة يظل الظافر الوحيد بلقب حبيبها، وهو الرجل الذي اختاره قلبها الأعمى بغير أن يتحسسه أولًا، ولو قارنت مقدار حبهِ لها بحبها له سيكون صاحب النصيب الأقل.. إلا أنها ستنهي اللعبة معه في عش الزوجية لا محالة، بينما الرجل الآخر لن تظفر به إلا في احتمال نادر الحدوث على الأرجح؛ عصفور في اليد خير من عصفورٍ شاردٍ عن عشه القائم بالفعل.

هكذا أدركت رزان مبكرًا مدى تعقيد العلاقة في حال انزلقت قدمها في هوة الحب العميقة، فسارعت مرغِمة نفسها على البعد فترة غير قليلة، لكنه الحنين الدائم للاهتمام.. هذا الإحساس اللعين الذي ظل يثبط من عزيمتها المتعقلة.

بعد ما أقلعت عنك، وأغلقت أبواب الحكمة في وجهك دون أن تشعر أنت بشيء من كل ذلك، عادت من جديد مختلقة قصة وهمية عن سرقة هاتفها وفقدها لرقمك، حينها استقبلتها أنت بحلولك السريعة، وحفاوتك الكبيرة كعادتك، فانسحبت قدمها إلى دائرة الاهتمام السحرية مرة أخرى، ولم تجد مانعًا من التوغل لمسافة أبعد هذه المرة بداخل غابات ترحيبك المشجرة المزهرة، التي تضم شعاع الشمس الحنون مع ظل هادئ يحميها.. بعيد أنت الآن، والبعيد عن العين بعيد عن القلب!

مرت ستة أشهر منذ أن غادرت القاهرة متجهًا إلى العراق في تلك المهمة الشاقة والخطرة، خففت رزان خلال تلك الفترة قسوة الغربة عليك، وكانت فيها الداعم الأول لك، ومصدر الاهتمام المتبادل والمحبب، وخمنت أنك توشك أن تعود قريبًا، وبمنطقها أقنعت مراد أن ينقل إليها الخبر إذا ما صدق تخمينها، حتى ترد لك مفاجأتك لها بهدية الهاتف عن طريقه، وبهذا ابتلع مراد الطعم المقنَّع بغير مضدد، وأخبرها فور معرفته بموعد عودتك، بل وأضاف ملمحًا أن ذلك التاريخ هو اليوم التالي لعيد مولدك؛ لم تكن رزان بحاجة إلى تلك الإضافة، إلا أن اقتراحه الاحتفال بك بصورة بسيطة قد راق لها بشدة، وقررا التنفيذ خفية.

يبدو أن ملامح الدهشة والاستغراب لن تفارق وجهك لنهاية اليوم!

كنت تستمع لها بتركيز مفرط وكأنك في محاضرة من محاضرات ميكانيكا الكم، ثار من أعماق قلبك بركان من الإعجاب بها وبأسلوبها الممتع، ولم تلاحظ حتى إن مراد قد غادر المكان منذ دقائق ليتيح لها الحديث بكل ارتياح؛ كان هذا من ضمن الاتفاق المبرم بينهما أيضًا.

أما هي فأكملت رو ايتها بثبات المشاهير قائلة:

- وهذا يفسر لك وجودنا هنا الآن، وقد يسرت علينا بقية الخطة بعدم إخبار زوجتك بموعد مجيئك، فلم يكن محتمل قدومها مستقبلةً إياك على حين فجأة.

صمتت هنيهة تلتقط أنفاسها ثم وضعت كفها أمامك على الطاولة، وللحظة فكرت أن تمسك يداك يداها، بينما هي تنظر إليك وتقول:

- والآن.. أيها الرجل المميز جدًّا في حياتي، أريد أن أستمع إلى تعليقك على ما سمعت، وأريد منك أن تساعدني على فعل الصواب.. هذا عهدي بك دومًا يا كريم.

إنها ذات إطلالة آسرة الآن، و أنت في الأسر مرهون.. نظرت في عينيها متبسمًا، ثم أدرت رأسك يمينًا إلى مقعد مراد الفارغ، لقد أتاح لكما الفرصة كاملة، وتحجج بأنَّه نسي محفظته في السيارة.. الآن فقط تذكرت لما غادر.. هل كل ما يحدث يشير إلى أنك تحبها فعلًا أم هذا بحر من الأوهام تكاد تغرق فيه؟!

- رزان، الكثير من الكلام بداخلي الآن غير مرتب، في رأيي هذا أمر طبيعي لما أمر به الآن، لكني أستنتج من كلامك الآن أنكِ في حالة من الحيرة والتخبط، وهذا الذي تعانيه أنا سبب فيه.. أعلم أن علاقتي بكِ قد تخطت شيئًا ما إطار الصداقة العادية، بقصد أو بدون قصد، حدث ذلك ولا أنكره، ولا أنكر أيضًا أن وجودك أصبح مهمًّا في حياتي.. هذا واضح بالفعل، لكن لا أعتقد أن الفراق حلًّا عمليًّا يريح الجميع؛ ما رأيكِ أن نحدد إطارًا جديدًا للعلاقة ونلتزم به سويًّا؟

تنفست بعمق ثم قالت:

- وهل التحكم بذلك سهلًا؟ هل إذا نجحنا فيه سيستمر طويلًا؟ وإلى متى بالتحديد؟ إلى أن تَطّلع زوجتك على بعض رسائلي لك أو رسائلك لي، لتكتشف أن علاقتنا أعمق من مجرد علاقة عادية بين صديقين.. هل سبق أن أعدت قراءة محادثاتنا يا كريم؟ أقول لك.. أنا فعلت، و أنا على يقين من أنك فعلت هذا مثلي.. أو ليس هذا بالحب؟!

هممت بالكلام لكنها قاطعتك باعتراف أسعدك، لكن بعض الاعترافات تُعجل بسقوط المصاقل على الرقاب..

أكملت بالحماس المتعقل نفسه قائلة:

- لا أعتقد أنك ستعترف به.. ربما لا تملك الجرأة الكافية، ليس في هذا شيء يشينك قدر ما يثقلك، لكني أستطيع أن أخبرك بذلك.. هل تريد أن تسمعها مني؟ ها أنا أمامك وجهًا لوجه وأعترف لك.. لقد وقعت في حبك بالفعل يا كريم، وأُحمّل نفسي نتائج هذا الفعل غير الصائب.

سقطت دمعة سريعة من عينها دون أن تنحدر على وجنَتها، دمعة تمثل انتحارًا لقلبها المتألم.. هل هكذا يصنع الحب بأهله؟ لماذا لا يحترم الحب مواعيد حضوره

وانصرافه؟ هل صار لزامًا على الحب أن يقترن اسمه بالألم والفراق في كل القصص حتى تلك التي لم تكد تبدأ بعد؟

تنهيدة طويلة كرحلة عودتك للديار ثم قالت:

- لا بد لنا من الفراق...

نظرت لها برقة و أنت تكاد تتقطع من تأثير كلامها المفاجئ وقلت:

- رزان، لقد امتلأ قلبي بالشوق لرؤيتك منذ حصولي على تصريح السفر، وتعجبت لهذا الشوق الذي غلب شوقي لرؤية أي شخص سواكِ.. وأعتقد أنه يوجد حلّ ما..

قاطعتك مرة أخرى:

- حتى زوجتك؟ هل غلب شوقك لرؤيتي شوقك لرؤية زوجتك علا يا كريم؟

ظننت أن جملتك من الوضوح كفاية لإدراك جواب سؤالها؛ مفهومها كمنطوقها كما يقال، لكنها كانت تتأكد من حقيقة استثنائها عن الجميع، فوضعت نفسها في مقارنة مع أفضل من تتضمنهم كلمة الجميع، مع علا!

إذا أجبتها بـ "نعم" لصدقت، فهذا ما تشعر به فعلًا الآن، لكنه شعور وقتي يسيطر على كيانك، ربما يتغير بعد ساعات أو أيام؛ لن تستطيع أن تنظر في وجه علا إذا ما صدَّقَ اللسان القلب.

ولو أجبت بـ "لا" لكان هذا أفضل ما تقدمه لها على سبيل مساعدتها في اختيار سبيل الرشاد، وتنفيذ طلب دعمك إياها لفعل الصواب، فالصواب لديها أن تبتعد عنك.

في الصمت حكمة كما يقولون؛ لذا آثرته.

*****

"فإن كان الصوابُ لديكِ هَجري فعَمَاكِ الإِلَه عنِ الصوابِ".. لو كنت تدري بمقولة أبو النواس تلك لدندنتها خلال صمتك.

*****

لم تكرر سؤالها المعضل، أخرجت هاتفها من حقيبتها وأخرجت معه هاتفًا آخر من الطراز نفسه، لكنه جديد لم يستخدم، ويرقد بسلام في علبته، وقالت:

- هذا هاتفك الذي أهديتني إياه عن طريق مراد أثناء سفرك، جديد كما هو لم يُمسّ، أشكرك بشدة على اهتمامك البالغ وذوقك العالي، لكني بالفعل أملك هاتفًا مثله تمامًا.

تعجبت من ذلك وسألتها:

- ولماذا قبلتيه وفي نيتك أن تعيديه لي؟
- لم أرد أن أسبب لك ضيقًا و أنت وحيد، لن تجد من يهوّن عليك.

ابتسمت بحزن وقلت:

- لستِ مضطرة لإرجاعه، فلتبقيه معكِ لتتذكريني بشيء ما.

قلتها و أنت تزحزحه إليها، فأعاقت يدك بيدها لتلمسها عن قصد قائلة:

- لست بحاجة إليه! أتمنى لك التوفيق في حياتك.

ثم استقامت و اقفة دون أن تترك يدك، وأضافت موضحة:

- لستُ بحاجة إلى هدية أو تذكار لأتذكرك؛ من العسير نسيان شخص مثلك يا كريم!

و انصرفت بهدوء، و أنت ترتعش من لمستها التي تعالجت فيها الرقة والحب والحزم، الرقة لحالك المزري، والحب الذي تكنّه إليك، والحزم في قرار الفراق.

*****

"كان عليها أن تطلق رصاصة الرحمة على قلبك لتستفيق من أحاسيسك الرومانسية المتأخرة هذه".. هكذا علّق مراد عندما عاد ووجدك وحيدًا مع كعكة الشيكولاتة وهدية تم ردّها إلى صاحبها.. هدية ما زال يتذكر تفاصيلها جيدًا.

لست في مزاج جيد لتلقى علا وسارة الآن.. لمَ لا تقضي بعض الوقت مع صديقك، على الأقل لتلوث عليه وحدته، وتثرثران في شرفة منزله الممتعة، وتحتسيان الشاي كما كنتما تفعلان من قبل!

ستصارحه بكل ما شعرت به نحوها، وستقرأ ما بداخلك له بكل شفافية، فليس أمام مراد خجل من ذاتك الحقيقية، ولا داعي من الخجل الآن أصلًا.. افسح له المجال ليوبّخك، يلومك، وينصحك.. أنت بحاجة لأن تستمع إلى نفسك وهي تخبر أحدهم بالصدق دون تزييف.

- لكن هل لي أن أعرف كيف تأثرت برزان بينما علا وسارة متواجدتان في حياتك؟ أعني أن حياتك مستقرة على ما يبدو، ليس فيها من المنغصات ما يدفعك لاستقبال علاقة رومانسية ما.

وجه سؤاله لك وهو ينفث دخان لفافة تبغه نحو السماء، حيث أطلت النظر بغير هدف، لا تدري كيف ترد على سؤاله هذا الآن، أنت تفتح قلبك لمراد، وهو يرى ما

بداخله، ومع ذلك أنت لا تملك إجابة حقيقية، لكنك أجبته بسؤالٍ تحاول به نزع رداء اللوم الذي ألبسك إياه:

- أو لست من أنصار فلسفة أن الحب لا وقت له ولا مناسبة! ألم تخبرني أن الحب إحساس غير مقيد ولا محصور على شخص أو شيء بعينه؟
- بلى، ولكني الآن أخاطبك بلغتك لا بلغتي، أتحاور معك بمعتقداتك وليس بما أؤمن أنا به، ناهيك أن رأيي الشخصي هذا يُقابل بسيلٍ من الاتهامات والرفض والسبّ أحيانًا من الجميع كلما أعلنته.

أضاف مراد:

- أنت رجلٌ نجح في تحقيق كل أمانيه تقريبًا؛ تعمل عملًا محترمًا تحبه، وجمعت بينه وبين هواية لطالما تحرك إليها شغفك، وتستمتع بمضي الوقت المتاح لك خلال ممارساتها، بالإضافة إلى أنها تدرّ عليك دخلًا إضافيًّا لا بأس به.

رشفة شاي ليضيف مرة أخرى:

- علاقاتك الاجتماعية جيدة إلى حدٍ كبير، وفعلت ما لم يستطع العديد من شُبّان هذا الزمن فعله؛ تزوجت زواجًا هادئًا مستقرًّا في وقت مناسب من عمرك، ورزقك الله بطفلة جميلة كأمها، وما زلت تخطط لمزيدٍ من الأمنيات حتى الآن، وستحققها ولا شك.. ما الذي تبحث عنه ولم أذكره في كلامي هذا؟

شاردًا في سماءٍ قد اشتقت إلى نجومها، نظرت له بطرف عينك ولم تجبه..

- كريم، أكرر عليك سؤالي السابق: هل ثمة خلاف بينك وبين علا؟ ألم تعد تحبها؟

تنهدت وقلت لتقطع صمتك الطويل:

- لا خلافات بيني وبينها، صدقني.. أعتقد أن أشياءً مثل ترتيب وتنظيم المنزل وما إلى ذلك من أمور لن تكون مبررًا كافيًا لأن يميل قلبي لغيرها.
- أكيد، وخصوصًا أن تكون "غيرها" هذه فتاة مخطوبة.

ابتسمت متهكمًا على حالك:

- هذا ما يجعل موقفي كسلة قمامة مهشمة، وكل محتوياتها المقززة ملقاة بإهمال أمام فوّهتها.

ضيق عيناه وقال:

- هناك احتمال آخر لتفسير ما حدث.. دعنا نقول إن رزان فتاة جريئة، تلقائية، وودودة كما يتضح، ولكنك تعاملت مع هذه الصفات على محمل شخصي، الفتاة تضحك للجميع وليس من فرط سعادتها لرؤيتك، أما حرصها على الحفاظ على استمرار العلاقة معك فهذا لأنك شخص خدوم وذو خلق، ولما تطورت العلاقة إلى ما تسمونه حبًّا، فهي اليوم قد اتخذت القرار السليم وعليك أن تتقبله.

وأضاف مراد بعد احتساء المزيد من الشاي:

- تذكر أن خبرتك تكاد تكون معدومة في التعامل مع الجنس الآخر يا صديقي.

تنظر كعادتك إلى الأفق، بعيدًا عن كل شيء، وتهز رأسك متفقًا مع ما تسمعه وتنهي الحديث قائلًا:

- لعله خير.. أريد منك أن تجد من يشتري هذا الهاتف.

*****

طارت علا من فرحها بعودتك المفاجئة، وبمجرد محاولات سارة في نطق كلمة "بابي"، أنساك ذلك مرارة الغياب، لقد طُبعت صورتك داخل عقلها الصغير في كل مرة أمسكت بهاتف أمها، وعزمت على أن تعوضهما خلال الأيام القادمة القليلة عن فترة بعادك.

كنت قد خططت مسبقًا لشراء سيارة.. كان تواصلًا مثمرًا مع مدير مبيعات معرض سيارات مشهور، وكان الرجل صديقًا لخالك مجدي، فسهّل عليك تنفيذ عملية الشراء في صباح اليوم التالي؛ لا بد من استغلال كل دقيقة في فترة الإجازة القصيرة تلك.

أبهرت علا بإجادتك في القيادة، علمت أن هذا الأداء قد تطور في فترة سفرك ولا شك، اصطحبتهما في جولات عدة بين والداها ووالداك، وقضيتم يومًا جميلًا في الريف، حيث فرحت سارة كثيرًا باللعب والمرح في البيت الكبير مع أطفال العائلة والجيران، فالجميع تجمعهم الألفة في هذه الأماكن النقية.. كنت تر اقبها وهي تمرح وتضحك من قلبها، "ربما ننتقل لبيت أوسع في المستقبل يا صغيرتي؛ بيت يليق برغبتك في اللعب بحرية مثل ما تشعرين به الآن في البيت الكبير"، كانت تلك الكلمات تتشكل داخل رأسك لتسطر رغبة مُلحَّة في تطوير مستواك كل حين.

في المساء من ذلك اليوم هممت بالرحيل؛ لقد استنفدت كل أرصدة الطبيعة في كسب مختلف أنواع المتع الممكنة لك ولسارة وعلا، الطعام الريفي الدسم، والشاي

الذي مهما ذُقت غيره من وصفات تحن إليه، السماء اللامحدودة، والأراضي الخضراء الشاسعة، حتى البهائم الهائمة لها مكانة في قلبك.

رغب الجميع أن تنتظر معهم حتى الصباح، الأجداد، و أبيك، وأمك، وأختك، كلهم ألحّوا عليك بالمبيت، لكن علا عارضت الفكرة بشدة؛ لم يرُق لها اليوم كثيرًا، فلم ترغب في مدّ الفقرة الخضراء من الإجازة ليوم وليلة.

وبالفعل قُدت سيارتك على مهل بين البيوت الدافئة، تتبعك نظرات الأهل المودعة واللائمة لزوجتك بغير داعٍ.

قالت وهي تعدل من وضع رأس سارة على كتفها حيث غطت الطفلة في سبات عميق من أثر التعب:

- هل ضايقك إصراري على المغادرة؟
- أبدًا.. ولو مكثنا لليلة واحدة لكان أفضل بالطبع، أقصد أنهم استضفونا ورحّبوا بنا..

قاطعتك قائلة:

- هل بدر مني أي فعل يقلل من تقديرهم واحترامهم؟
- أنا لم أقل ذلك.. ومع ذلك فقد كان سكوتك معظم اليوم غريبًا، وكأنكِ غير سعيدة بهذا التجمع، لا تبادلينهم أي حديث مهما كان!
- ولم لا تقول بأنني غير معتادة على ذلك، وقد فعلت ذلك من أجلك.
- كان ذلك الفعل رائعًا منكِ على كل حال.. ما رأيك أن ترتاحي قليلًا أثناء القيادة؟

لم تعلق وسكتت، لكنها سرعان ما مالت برأسها لتلامس رأس سارة لتتعانق أحلامهما معًا.

ستدافع في رأسك فكرة تتسلق أسوار كل وضع مستقر لتزعزعه؛ ماذا لو كانت رزان مكان علا؟ لكنتم مقيمين الليلة بين أحضان القرويين الذين حتمًا سيفرحون بذلك.. لكنك لن تسمح بأفكار كتلك بالولوج لعقلك.

يضيء الطريق ويظلم كلما مررت بمدخل قرية إلى أخرى، كل شجرة على جانب الطريق تعرفك وتعرفها، ربما عددتهم ذات مرة، صورتهم تلتصق بحيطان ذاكرتك كالتصاق جبهتك بزجاج الحافلة البارد أثناء عودتك من الريف للقاهرة، عندما كنت تستطيع أن تشرد طويلًا تفكر في اللاشيء؛ الأشجار والنخيل يمرون مسرعين على أرض

مدهمة كالظلام، يعلوها نجوم تتسابق معها بالسرعة نفسها في تناسقٍ بديع، فينجلي بصرك لتسترجع أحداثًا خضّتها بقليل من الحكمة، وحفنة شحيحة من تو ابل الخبرة، فتغير أقوالك و أفعالك إلى ما كان ينبغي لك عمله حينها، ولا تدري أظلمٌ هذا لنفسك؛ أن تقارنها بنسخة حالية أكثر تطورًا وخبرةً وحكمةً من ذي قبل! لكنك تعود لتحدث نفسك قائلًا: "لا نملك إلا هذه اللحظة؛ فلنفعل فيها ما نراه جميلًا".

ولأنك تعيش اللحظة، تختار ما فيها بإرادة حرة؛ غيّرت وجهتك إلى الإسكندرية بدلًا من القاهرة.. من يغفو طويلًا في سيارة على أمل العودة إلى بيته، فيستيقظ ليجد نفسه أمام بحر الإسكندرية فجرًا لهو من المحظوظين.

لما فتحت علا عيناها ضحكت بكل حواسها، وشهقت من الدهشة، بينما درات سارة بنظراتها الفضولية البريئة إلى كل اتجاه مستكشفة الطبيعة الجديدة التي تراها لأول مرة.. كنت تتطلع إلى السعادة النابعة من أعينها لتسقي بها قلبك العطش، قلبك المتألم من فراقٍ لا تستحقه؛ لأن سببه تعلقًا لم ينبغِ لك من البداية الاقتراب منه.

رغم الفرحة التي أحاطت بكم من كل جانب خلال التسكع على شاطئ المتوسط، إلا أن الإرهاق قد كسا ملامحكم جميعًا من كثرة النُزه والمغامرات اللطيفة، فكثيرًا ما يصعب على القلب والجسد تحمل الكثير من انفجارات المسرات الهائلة؛ لذا قدتهم إلى فندق مريح لترتاحوا جميعًا، وبعد كسب بعض الطاقة الكامنة في إفطار صحي، وغداءٍ مكون من شتى أنواع المؤكولات البحرية، اصطحبتهم للتسوق؛ ابتعت لهم تشكيلة ر ائعة من الاكسسوارات، والزينة، والملابس التي تكفي لأعوام، حتى اعترضت علا برفق قائلة:

- حبيبي لم نفتح حقائب السفر بعد ولم نخرج ما فيها من الهدايا والملابس؛ لا داعي لشراء المزيد.

ترد عليها بكل ود:

- ربما لا يعجبكما اختيار اتي.

*****

المهندس كريم شوقي

لم تقتصر الإجازة على التنزه والرحلات فقط بالطبع، فهذه ليست عاداتك؛ لقد تابعت جميع أعمالك الأخرى ومو اقع الشقق التي تشرف عليها، وتوجب عليك تعيين مساعدًا ليحل محلك ويشرف على تنفيذ الأعمال بدقة أثناء السفر، فأشار عليك مراد بفتاة تُدعى هدير.. صغيرة السن هي، ونشيطة لأنها تدرس وتعمل في آن، فالفتاة لديها قدرًا و افرًا من الصبر.. عيّنتها على الفوردون تجربة، مما جعل مراد يلمزك بالكلام عن ميولك التي باتت غريبة، ولم يشفع لك أنه من رشحها لك.

وفي إحدي مو اقع العمل تحت التشطيب، كنت ومراد وهدير هناك.. قدم مراد كلًّا منكما للآخر، فأوضحت لها المهام المتوقعة التي ستقوم بها، وبعد الانتهاء انطلقت مع مراد في جولة بالسيارة مصطحبين هدير لمنزلها.

فارقتكما عند منزلها وشكرت لك صنيعك اللطيف هذا، ووعدتك بأن تكون عند حسن الظن.

قلت بعد ما أشبعت نظرك من مشهد رحيلها:

- لطيفة هدير هذه.. وذكية أيضًا.
- وأمينة جدًّا يا كريم، لن تشتكي منها، كما أن أختها الكبرى صديقتي، أنا أضمنها لك برقبتي.

صحت في مرح:

- لا بد أن تعرفني على أختها أيضًا.. لكن عيبًا واحدًا فقط لاحظته فيها حتى الآن..
- وما هو؟
- ممتلئة قليلًا.. ينبغي لها أن تفقد بعض الوزن.

نظر مراد لك بغضب وقال بتهكم:

- آه.. معذرةً، في المرة القادمة سأحضر لك "شاكيرا"!

ضحكتما معًا، وكدت تفصح عن آراء أخرى مازحة لولا أن أتاك اتصالًا من علا، فأشرت له أن يخرس لترد عليها، وبعد ثوانٍ قليلة كنت تقول لها: "حسنًا حبيبتي

افتحيهم جميعًا، وأخرجي ما فيهم من حقائب صغيرة وهدايا و أنا سأصل قريبًا جدًّا"، ثم جاء دور مراد لينزل من السيارة متجهًا إلى بيته...

ولجت المنزل فوجدت علا تقف وسط غرفة استقبال الضيوف، والفوضى الناجمة عن فتح الحقائب واستكشاف ما فيها جلية حولها؛ هممت بتوبيخها على هذه الفوضى، لكنها كانت ترمقك بنظرة حادة لم تعتدها منها من قبل..!

تناولت من فوق المنضدة علبتان صغيرتان فضيتان اللون أنت تعرفهما جيدًا، رفعت بكل يد علبة منهما، وتنقلت ببصرها بينهما بالتبادل متعجبة من التماثل الواضح بينهما حتى في محتواهما، فبداخل كل منهما ساعة ذهبية ثمينة وبر اقة.

هدية غالية اخترتها بعناية لزوجتك، وجلبت معها مثيلتها تمامًا بغير تفرقة، حتى في لون العلبة الفضي ذو النجوم السوداء البر اقة على جو انبه؛ لقد كانت هذه الهدية الأنفس من بين الهدايا التي جئت بها من دبي، وكان من المقدر أن تهدي النسخة الثانية منها لرزان، لكن هذا لم يحدث.. ولن يحدث! وبالطبع قد نسيت تمامًا أمر الهدية، وشغلك الألم الذي تحاول الهروب من قبضته منذ قدومك حتى الآن، ويبدو أنك مقبل على مشكلة جديدة فضية اللون!

قالت علا بلهجة يملؤها الشك:

- لا أخفي عنك أنها هدية رائعة، لكن.. واحدة فقط كانت تكفي لي!

ابتلعت ريقك، وذبلت نضرة وجهك، وتداخلت الحروف و أنت تقول:

- الأخرى.. لجيهان.. أختي..

لكن علا كانت قد تقمصت شخصية الممثلة "جيليان أندرسون" في دورها كمحققة في الفيلم المشهور X-Files، فأسرعت التفكير لتضيق دائرة الشك حولك، وقالت بحذق:

- جيهان! ولكنك بالفعل أعطيتهم هداياهم عندما ذهبنا لزيارتهم منذ أيام، طنط وعمي وجيهان، لقد أخذ كل منهم نصيبه من الهدايا، ثم إن جيهان تكره اللون الذهبي!

ومن قال إنك لا تعلم ذلك عن جيهان؟ أنت على در اية بهوى كل منهم جميعًا.. أمك و أبوك وجيهان وعلا، أوَلست بابانويل الهدايا.

لا شك أنها أربكتك، لكنك تعصبت وقلت:

- نسيتها يا علا.. ماذا في ذلك؟

ابتلعت ريقك وأضفت:

- أعلم أن جيهان لا تحب اللون الذهبي، لكن كان بالمتجر عرضًا ممتازًا على نظيرة هذه الساعة بالتحديد.. هل ارتحتِ الآن عندما أحرجتيني؟

بدا انفعالك مقنعًا نوعًا ما، و انقشعت بعض صواعق الشك من فوق رأسها، لكنها ما زالت تتحدث بصوت خفيض مربك، فجاءتك عن كثبٍ قائلة:

- أنا آسفة.. لقد تسرعت في الحكم عليك، ظننت أن الهدية لفتاة أخرى، فمثل هذا النوع من الهدايا لا تُجلب إلا لواحدة، امرأة واحدة فقط يا كريم، فلو كانت هناك أخرى أرجوك أخبرني أنت أفضل من أن أعرف الأمر من غيرك.

وطبعت قبلة باردة مجردة من المشاعر فوق رأسك.. فقلت و أنت تتنهد تنهيدة النجاة:

- أنا لا أعرف فتاة أخرى، ولا أحب غيرك، أقسم لكِ.
- أصدقك و أكرر اعتذاري.

كان في صوتها شكوك بعدد نجمات السماء في الليلة الصافية من السحب.

بعد دقائق غادرت المنزل بحجة شراء بعض الفاكهة، وفي الشارع ومن خلف مقود سيارتك اتصلت بجيهان، أخبرتها أن في حقيبة هداياها ساعة يد فضية اللون بداخل علبة صغيرة زرقاء على جو انبها نجوم سوداء لامعة، وعليها أن تحضرها وتخرج لمقابلتك حالًا.

كانت تبحث في أشيائها أثناء مكالمتك.. فقالت:

- نعم.. نعم، وجدتها، لكن اشرح لي من فضلك فأنا لا أفهم شيئًا!
- بدون شرح وبدون ذكر تفاصيل إضافية؛ ليس لدي وقت لذلك الآن، فقط أخبريني أنك لم ترتدِها بعد أمام أحد، وخصوصًا علا.
- لم ألاحظها إلا الآن و أنت تحدثني عبر الهاتف.. لا تقلق، هل فيها عيب وتريد إرجاعها؟

قلت بحسم:

- سأمرُّ عليكِ خلال عشر دقائق، قابليني عند ناصية الشارع..

وأغلقت الخط قبل المزيد من الأسئلة التي لا تنتهي.

كانت في المكان قبلك، أخذتَ منها العلبة الزرقاء التي تحوي الساعة الفضية، تفحصتها سريعًا ووضعتها في حقيبة السيارة بداخل كيس بلاستيكي أسود كبير كان مخصص لبعض الأدوات الكهربائية، وأدخلت الكيس في حقيبة أدوات للدهانات تخص أحد رجالك الفنيين، ودفست الحقيبة بين كومة من الكراكيب غير المنظمة، بحيث يستحيل إيجادها إلا عن عمد.

أحكمت غلق حقيبة السيارة وأخبرتها أن علا ستقوم بإعطائها ساعة أخرى أجمل وأروع، لكنها ذهبية اللون، وستخبرها أيضًا أنهم قد نسوا تلك الهدية بداخل الحقائب.. وعليها ألا تتسبب في إحراجك أو إحراج علا؛ فلتقبل منها الهدية وتشكرها والسلام!

- لكن الفضية تروق لي أكثر، أنت تعرف أنني أفضل هذا اللون ولا أطيق اللون الذهبي.
- سأجلب لكِ غيرها، أعدك، لكن لا تنسي ما أخبرتك به الآن.

ظنت جيهان أن ثمة خطبًا غير طبيعي، وتعجبت من طريقتك هذه؛ لكنها استمعت لكلامك غير مقتنعة به، وطمأنتك أنها لن تبين شيئًا حين تحدثها علا عن هديتها التي نسيها أخوها، وستنسى أنها التقت بك اليوم، فهي لن تثير الشبهات حول أخيها ولن تسبب له الإحراج عمدًا.

غادرت بالسيارة مسرعًا ولم تنسَ شراء بعض الفاكهة، ورجعت جيهان إلى بيت والديكما بعدما خسرت ساعة رائعة فضية اللون كالذي تهوى، لكنها كانت تقلب الظنون في رأسها عن أخيها الذي لا ينسى ولا يخطئ في مثل تلك الأمور أو غيرها!

*****

مرت الإجازة سريعًا مثل مرور كل وقت جميل، لكنك شعرت بداخلك بحالة من الرضا عن النفس، فقد فعلت كل ما خططت له تقريبًا؛ زرت الأهل والمقربين، أسعدت علا وسارة برحلات ممتعة، ونجحت في شراء سيارة جديدة في وقت قياسي، كما تلقيت مكالمات مهمة من بعض الزملاء في الشركة، يرغبون في تنفيذ أعمال التشطيبات والديكورات بشققهم وفيلاتهم الخاصة، كان من بينهم مكالمة هاتفية من مدام ثريا شخصيًا، أخبرتك من خلالها أن نهال وهبة زميلتكم من قسم الجودة تود التحدث معك بخصوص بعض الأعمال لديها، لكنها لم تفعل حتى الآن حتى فقدت الأمل فيها، فلن تبدأ أنت بالحديث معها في أمر يتعلق بالعمل إلا إذا كانت رغبتها في العمل معك

سابقة لذلك.. أما المهندس ياسر فقد حدثك بالفعل في مكالمة طويلة احتشدت بالتفاصيل الصغيرة المعقدة والمملة، حتى كاد رأسك أن ينفجر.

رتبت جدول الأعمال مع هدير، وأوصيتها للمرة الألف بتبليغك بكل صغيرة وكبيرة في كل ما يتعلق بالعمل.. الفتاة سريعة التعلم بحق، ولديها مهارات تواصل جيدة مع العملاء والفنيين، وقد أفادك المهندس ياسر بذلك في مكالمة بينكما؛ يبدو أنها ستصبح ذراعك اليمنى وعيناك المدققة المتفحصة، لقد مررت أشعة استيعابها سريعًا على ملفات عقلك، فحفظت ما تريده، وكيف تريده.

هدير فتاة صالحة وذكية؛ أثبتت أنها تصلح لهذا النوع الخشن من العمل، لكن علا لا يعنيها كل ذلك؛ وعقب ذكر سيرتها أو انتهاء اتصالًا عمليًّا معها كانت تشعل نار الخلافات معك، كنت تعلم أن هذا سيحدث، لكن إخفاؤك لوجودها سيزيد الأمر تعقيدًا، وعليك أن تتعامل مع علا بتروٍّ؛ هي زوجتك ومن حقها أن تغير عليك، حتى إنها اقترحت أن تقوم بالدور الذي تقوم به هدير أثناء أسفارك كلها، المنطق الذي رفضته تمامًا، وأعلنت في مقابل فكرتها استياؤك من تقصيرها في شؤون البيت والطفلة، فكيف لها أن تكلف نفسها بما سوف تفشل فيه حتمًا إذا كلَّفتها به! كما أن أعمالك لا تحتمل الأخطاء والتقصير.. لكنَّها امرأة، والنساء لا يستسلمن إذا تعلق الأمر بفتاة تعمل لدى أزواجهنّ أو زوجة ولد لهنّ، بالأحرى لو كانت كائدة، هكذا حيثما توجد امرأة أخرى فهذا ما لن يقبلنَ به البتة.

ظلت علا تقلب في ملفات الشك مرة أخرى، واتخذت أكثر من حيلة في ذلك، فتسآلت: "لماذا وكيف تقوم فتاة بمثل تلك العمل وسط مجموعة من العمال والفنيين من الرجال، ألا تتقي الله فيها؟!"، لكنك أقسمت أنك بالفعل تتقي الله فيها إذ أتحت لها فرصة للعمل في مجال تهواه وتحبه، وتريد أن تتعلمه وتطور من نفسها فيه، أما عن طاقم العمال الذين يعملون معك فقد دافعت عنهم بكل شراسة.. "إنهم ذوو خلق جميعهم.. أولاد بلد؛ يعاملونها مثل أختٍ صغرى لهم"، وأضفت مطمئنًا إياها:

- ثم إنها من عائلة مراد، إنها ابنة عمه، ومعظمهم يعرفون مراد ويعرفون أنها قريبته.

هنا هدأت العاصفة قليلًا..

- حقًّا.. لم تخبرني بذلك من البدايةً!

- يا حبيبتي أنتِ لا تعطي فرصة لأشرح لكِ التفاصيل.. وهل سأثق فيها بهذه السرعة؟ إنها ستتعامل مع حساباتي البنكية، وستنقد العمال أجورهم، وستستلم من العملاء مبالغ كبيرة.

أومأت علا برأسها أن لا بأس بالأمر إذن، وقالت:

- حسنًا، من الجيد أنك أوضحت الأمر، لكن أرجوك عدني بأن توظف رجلًا بديلًا عنها في أقرب وقت أو فرصة.
- أعِدكِ بذلك، لكني لن أجبرها على الرحيل بطريقة فجّة.

كانت قد هدأت بالفعل واطمأنت بعد معرفتها بتلك المعلومة المزيفة؛ لم يكن هناك سبيل من حسم الخلاف إلا بهذه الكذبة الصغيرة؛ فالطائرة التي سترحل بك عائدًا إلى العراق مرورًا بالإمارات قد بقي لها ساعات قليلة، الآن لن تضطر للسفر تاركًا شقًّا قاتمًا بينكما لم يلتحم.

يكفيك ألمًا خسارة رزان التي كانت كالقطط في كل شيء، حتى في هروبها منك بهذه السرعة وهذا التوتر، مثلما تشعر القطط بالخطر يقترب منها.. الآن تفهم لمَ لم تمانع في التمتع بدلالك لها من بعيد؛ لقد كنت تلقي لها بعض العواطف المفتقدة التي تتلهف عليها وتركض نحوها، تشُمها وتلعقها وتسعد بها قبل أن تلوكها بين جنبات قلبها لا فمها، كانت كالقطط تمامًا في كل شيء، إلا أنها لم تخدشك يومًا بأظافرها.

*****

في الثاني والعشرين من أكتوبر عام 2015 كنت مُحلقًا بالطائرة المتجهة من دبي إلى بغداد، تمسك بأنامل يمينك قلمًا تخطّ به أشكالًا وهمية، رسمًا لطرقٍ كلها متوازية لا تلتقي، وربما ليس مقدّر لها أن تلتقي أبدًا.

تُدرك أنه من بين العديد من احتمالات النهايات الأخرى، جاءت النهاية التي صاغتها رزان في المركز الأول، نهاية تستحق التكريم كونها الأصح والأصوب، كثير ما تقترن هاتان الصفتان بالندرة؛ ما الذي يجعل من كل صائب صعبًا؟ ولما يمتاز الخطأ دومًا بالسهولة رغم أنه قد يكلف كثيرًا في ما بعد؟

قلبك يتألم في أمسيات مغتربة، داخل وحدة سكنية جديدة بموقع جديد حيث المرحلة المتأخرة، وصار كل ما حولك ومن حولك يفتقر إلى الاعتياد والألفة مرة أخرى، ناهيك بذلك الإحساس المقيت؛ أن تمر الأيام والليالي بغير رسالة منها، ألا تجد السعادة

الفريدة التي عشتها معها و أنت تسرد أحداث يومك المتكررة والمملة، اختفى إعجابك بإعجابها، و انطفأ اهتمامك باهتمامها، وما عاد هنالك من أثرٍ لعذوبة حديثها معك.

ستمر الدقائق المرهقة لقلبك و أنت حبيس صفحات محادثاتك معها.. تتأمل وتسترجع كل ما داربينكما من حديث شيّق، وجدال ذو مغزى، ومزاح سخيف أيضًا..

ستكتب لها عندما تراها متصلة لتقوم بعدها بحذف ما كتبت دون إرسال، بل وستراها تكتب لك هي الأخرى، لتتجمد أصابعك كأنها صارت من حجر الجرانيت، وسيشخص بصرك كميت ينتظررسالة تحييه، رسالتها التي لن تصلك أبدًا.

هل تتخيل ذلك أم كان حقيقيًّا!

أشباح الغربة لا ترتدي سراويل اليقين.

*****

لم تمنح علا فرصة أخرى للجدال حول مدى صلاحية عمل هدير معك، جنبت سيرتها من كل أحاديثك، و اكتفيت بالتواصل اليومي المعتاد، والذي صاريدورحول كل شيء سوى هديروأعمال المكتب، كأنه لا توجد شركة صغيرة تديرها من الأصل، بينما ظلت علا تكظم داخل صدرها تغيظًا وزفيرًا جراء خرسك المبهم عن نطق اسمها؛ فلو تحدثت عنها بطبيعة الحال لما كان في الغيب أمرمريع، وما خفي كان أعظم، ظل شعارًا يحلق حول عمل الفتاة معك.

فماذا لو علمت بأن الفتاة لا تروق لك بسبب وزنها الزائد وأسلوبها الرجولي في الحديث! لكنك لن تستغني عنها بالطبع لمجرد تلك الأسباب غير الفنية؛ هي جيدة في عملها ولا ريب في ذلك، وكل ما تظنه علا مجرد ترهات لا أصل لها.

في عزلتك الأخيرة تلك، بدَر على ذهنك سؤال عابر؛ هل ينعم مراد بمعيشته وحيدًا، أم أنه يتصنع هذا ليبدو مثيرًا للشفقة ممن هم حوله؟ وحتى لو كان يتصنع لا مبالاته بتلك الأفعال، فكيف يصبرولماذا؟ أنت وحيدٌ مثله الآن، لكنَّ الشعوريختلف كثيرًا، أنت تشعر بالوحدة ليس لأنه لا أحد معك، بل لأنك أنت لست معك، أما مراد فيعيش مع نفسه حياة حقيقية، وتظنه سعيدًا بهذا النمط من الحياة.

خمسة أشهر أخرى مضت، رتيبة ومملة ولو تكررت ألف مرة لكانت مثلما كانت في أول مرة، لا شروق ذو أمل في الصباح، ولا غروب هادئ في المساء؛ العمل هو نفسه، والخطر هو نفسه، والأخطاء هي نفسها، وتصحيحها يتم بالطريقة المعتادة نفسها.

لم تعد مضطرًا للبقاء بالبصرة ولا بالعراق أطول من ذلك، لقد أوشك المشروع كله على التمام؛ ما هي إلا أيام وستصدر تقريرًا بانتهاء العمل وتسليمه على الوجه الذي يليق، سيحين قريبًا جدًّا موعد العودة إلى الوطن والاستقرار به لفترة طويلة نسبيًّا.

منذ انتقالك للمسكن الجديد في التجمع الخامس وغدت حياتك أكثر رفاهية؛ المنزل أكثر اتساعًا، يكاد يكون ضعف مساحة منزلكم السابق، وتطل شرفته على حديقة واسعة زاهية، وملامح الطبيعة تفرض أسلوبها الراقي المريح على كل شيء من حولك.

حرصت على ألا ينقص منزلك الجديد مظهرًا من مظاهر الترف الحديث بغير إسراف ولا تبذير، فتلك لعبتك الفنية، والتحكم فيها ليس عسيرًا عليك.

واختارت علا أن تبدأ صفحة جديدة بيضاء معك كحوائط حجرات الشقة الجديدة، خالية ونظيفة من الشكوك والظنون والشوائب، لكنها ومع ذلك لم تفرح كثيرًا بالبيت الجديد؛ كانت قلقة تجاه واجبها اليومي لتحافظ على نظام ونظافة هذا المكان المتّسع، فهي تعلم أن أكثر ما يثير غضبك هو التقصير في هاتين الصفتين، كما أن اتساع البيت قد سبب لها خوفًا غريبًا منه، كأنه نوع من "الفوبيا" لا تدري له سببًا، وقد أثار هذا انتقادك؛ هل نفسد فرحة الفخر ببداية جديدة مثل هذه بسبب تخوّفات ستتبدد بالتكيف على المكان، كانت كلما نظرت في مدخل الممر الطويل المؤدي للحجرات شعرت بريبة وقلق.

السادسة تمامًا من صباح كل يوم جديد تقف في غرفة الاستحمام، تتدفق قطرات المياة الدافئة فوقك، توكزك لتستفيق، وتغمر فروة رأسك وتدلكها بقليل من "الشامبو" المنعش، ثم لا تمر خمس دقائق لتكون واقفًا أمام مرآة كبيرة تعلو حوضًا عريضًا بجانب غرفة الاستحمام، فتفرِّش أسنانك بالفرشاة والمعجون.

عادة لا تجهز ملابسك في المساء؛ فحيث كل شيء منظم ورتيب فلن يستغرق هذا منك وقتًا قبل الذهاب إلى العمل، وحتى لو بقيت ساهرًا لساعات من الليل، لا بد من الاستيقاظ في تمام السادسة، لقد استسلم الكسل منذ سنين في صنع المؤامرات مع منبهك العتيق، تنظر إليه وأنت تقوم بكيّ قميصك الأبيض غير المميز بين أقرانه، فاللون الأبيض يغلب على خزانة ملابسك؛ التنوع في الألوان مشتت، وقد يهدر بعض الوقت في الاختيارات.

لا تتذكر آخر مرة قمت فيها بضبط منبهك.. ربما كان ذلك أيام العمل في العراق، لقد غدا الأمر عادة رتيبة الآن.

نظرة سريعة في المرآة الكبيرة المستندة على الجدار جوار باب الشقة، تراجع من خلالها مظهرك بالكامل من الرأس للقدم، تلتقط مفاتيحك المعلقة بجوار باب المنزل، ثم تنطلق لصنع إنجازات جديدة.

في الطابق الرابع من إحدى بنايات الشركة، يقع مكتبك العريض في آخر الرواق، لا يوجد عليه سوى حاسوبك المحمول ومزهرية صغيرة بها وردة مصطنعة حمراء تحاول في فشل إثبات احتمالية وجود حياة فوق سطح مكتبك.

كان اعتمادك على ذاكرتك في كل شيء تقوم به تقريبًا، لذلك شحّت الأوراق والأقلام من على مكتبك الخاص، السيارة فقط تمتلئ بمئات الفواتير المتعلقة بأعمال التشطيبات، أو حسابات للعمال والفنيين وما إلى ذلك من متعلقات العمل الآخر في مكتب التشطيبات خاصتك.. لعل السيارة هي المكان الوحيد الذي يتسم بالإهمال وقلة النظام في حياتك.

تقوم بالكثير من الأعمال الروتينية يوميًا، فلا تكاد تستغرق منك ثوانٍ معدودة؛ التكرار لا يجب أن يسحب من رصيد وقتك المحدود إلا القليل، عقلك هذا تعتز به كثيرًا، ولا يجب عليك إرهاقه أو أن تلقي به للتفكير في حل المشكلات الاعتيادية؛ أنت مبتكر ومبدع للحلول المثالية، تفكر سريعًا وتقرر ما هو صواب، المنطق رأيك وقولك، وقلّما شرد كلامك عن النتائج السليمة، من أجل هذا يُقدّرك الجميع، ويجلّون رأيك.

*****

موعد مع أحدهم

أحكمت علا عقد ربطة عنقك بإتقان كما تفعل قبل أي مناسبة رسمية أو اجتماع مهم ينتظرك، ثم ساعدتك في ارتداء جاكيت البدلة وهي تنظر إليك راضية عن مظهرك، وتقول مازحة:

- عريس! على النساء في الحفل أن يتجنبن النظر إليك خشية أن يُغرمن بك.

أضحكك وصفها، و اقتربت لتودعها ممسكًا كتفيها، وتركت قُبلة على جبينها.. هذه المرة لن تتأبط ذراعك لتنطلقا معًا؛ فأبوها مريض وعليها زيارته.. تعلم أنها لا ترغب في الذهاب للحفل أصلًا؛ تأخير زيارة أبيها للغد لا ضير فيه، لكن هذا المزيج العشوائي بين العشاء والعمل، على غرار ما شاهدته في الأفلام، لا يجذبها البتة، فطلبت منك اصطحابها وسارة إلى بيت والدها للاطمئنان عليه.

- لا تزال الفرصة سانحة لنذهب معًا.

ستخاطر بالتأخر عن موعد عشاء العمل مع الوفد الإيطالي المدعو لمناقشة جدول الأعمال لبعض المشاريع المشتركة بين شركتك وشركتهم، شعرت بالندم على تسرعك في عرضك لها، لكنها رفضته على كل حال، وأصرّت على ذهابها لوالدها لضرورة الأمر وقالت:

- سآتي معك في المرة القادمة.. أرجو ألا أعطّلك عن الموعد، أنا أستطيع الذهاب بسيارة أجرة.
- لا داعي لذلك؛ بيت عمي في الطريق نفسه.. وصّلي له سلامي لحين عودتي إليكم، والآن فلنذهب، فالطريق ربما يكون مزدحمًا.

قالت مترددة:

- هل من اللازم أن نعود معك في الليلة نفسها؟ أعني ربما نبيت معهم.. وسأعود وسارة في الصباح.

استدرت لتنظر إلى جانب قدمها، فلاحظت للتوّ الحقيبة الصغيرة الخاصة بحاجات سارة حال المبيت خارج منزلكم، ففهمت مقصدها.. امتقع وجهك على الفور، واحمرّ من الغضب ورفعت حاجبك وقلت باستياءٍ كان يتزايد تدريجيًّا مع كل جملة استنكارية تخرج من فمك:

- وهل كنت سأرفض طلب مبيتك هناك إذا أخبرتيني في الصباح؟ هل منعتك من ذلك قبل ذلك؟ أم أنكِ تضعيني أمام الأمر الو اقع وحسب؟!

ترد علا وقد أدركت ما وقعت فيه:

- لا يا حبيبي، لم تمنعني من ذلك قط.. كنت سأخبرك لكني لم أحسم قراري بعد، كنت سأتحدث معك خلال الطريق، صدّقني.

قلت بلهجة كلها عناد وتحدٍّ:

- أنا أرفض أن أكون آخر من يعلم.. لن تأخذي هذه الحقيبة، وسأمرّ عليكِ عندما أنتهي من العشاء لنعود معًا.

سكتت علا ولم تزِد شيئًا من الكلام؛ ليس لأنها تحسب نفسها مخطئة التفكير أو التصرف، لكنها لامت نفسها على فعل شيء أنت تكرهه، فاستجابت على الفور وتركت الحقيبة أرضًا لتلحق بك على الدرج.

*****

وقع الاختيار عليك وعلى بعض الزملاء من الأدارات المختلفة، وكان من بين المختارين ماهر الذي عرض عليك اصطحاب زوجتك لتلتقي بزوجته وتتعرف عليها أثناء العشاء، فلم يكن ما يمنع اصطحابهما، بل كان أمرًا مرحبًا به من قبل المديرين.. وكنت تود أن تفعل لكنك أخبرته في الصباح أن علا لن تأتي لظروف مرض والدها، فتكاسلت زوجة ماهر أيضًا عن المجيء؛ لو كانت علا قد غيّرت قرارها في آخر لحظة لبتّ في ورطة الآن، لكنها آثرت أن تضايقك بأسلوب آخر.

تحدق إلى وجهك من خلال مرآة السيارة الداخلية.. لماذا تُصرّ على ارتداء هذه النظارات الطبية؟ إن إجراء عملية "الليزك" البسيطة ستريحك من هذه النظارات للأبد، لم تنسَ أنهم كانوا يلقبوك بـ "عبقرينو" أيام الزمالة الدراسية بسبب تلك النظارات، مؤكدًا ستبدو مختلفًا وجميلًا بدونها، قريب الشبه من "توم كروز" مثلًا!

لوّحت سارة بيدها الصغيرة لك، بينما تجرّها أمها من يدها الأخرى وهي تخطو خطوات متقاربة تتناسب مع سرعة الطفلة. أشرت إليها بيدك مودّعًا، ورسمت ابتسامة متحفظة لعلا قبل أن تغيب في ظلام مدخل البناية العتيقة التي يسكنها والداها.

على أنغام أغنية ما لأم كلثوم يبثّها راديو سيارتك تتحرك بسلاسة ويُسر في شوارع القاهرة؛ الطرق غير مزدحمة هذه الأيام، لعلها امتحانات الطلاب، أو ربما تلك صفة

تميز يوم الأربعاء عن باقي أيام الأسبوع، أو لعله حظك الحسن.. كلها أسباب عشوائية لا نمط ثابت لها، وتلك هي القاهرة.

لم تكتمل الأغنية للنهاية.. تلك المقطوعات الموسيقية الطويلة تتطلب جولة بعد الظهيرة في الشوارع التي تسير فيها الآن حتى تتمكن من سماع الأغنية كاملة، هذا ما يلقّبونه بزمن الفن الجميل، وقتها كل جميل كان ينال فرصته كاملة حتى تتشبع منه، قِس على ذلك كل شيء، أما الآن فعليك أن تتذوق سريعًا.. استمتعت أم لم تفعل الحياة أسرع منك سيرًا، وأغنية طويلة لأم كلثوم تتطلب فضاء من الزمن لا يملكه إلا اثنان في رأيك، أولهم من بلغ من الكِبر عتيًّا، والآخر ذو بالٍ رائق خاوٍ.

وصلت إلى وجهتك، ومهما بعُدت وجهتك لن تنتهي الأغنية قبل الوصول.. هذا هو الفندق المقصود؛ صرحٌ شامخٌ مزينٌ بالأضواء المبهجة، صُفّفت أمامه سواري عدة شكلت شبه حلقة هلالية، وقد رَفع كل منها علم يرفرفه الهواء، أعلام بلدان عربية وأخرى أوروبية، يتوسطهم العلم المصري بنسره الجسور، لا ترفرف قماشته رغم أن الريح متوسطة الحركة، وجواره العلم الأمريكي بنجومه التي علمت من خالك أنها تمثل عدد الولايات الأمريكية.

حدّثت نفسك: "اختيار جيد، هذا الفندق المميز الضخم سيليق بالحضور".. لا تكاد ترى فيه جزءًا غير مُضاء، كأنه فرح شعبي في زقاق ضيق، لا غنى هنا عن الاحتفالات بالمناسبات العامة والخاصة، الشرقية والغربية، الدينية واللادينية، لا يجب أن تنقطع الضوضاء عن هنا كل ليلة، لتطبع في ذاكرة الزائرين ختم حُسن التجربة، فلا يزول حتى يعودوا إلى المكان تارة أخرى.

أمام بوابة الفندق الرئيسة، وفي ممر السيارات الذي تمتد على جانبيه أعمدة إنارة ذهبية اللون تتصل في ما بينها من أسفلها بسلاسل غُلفت بالقطيفة داكنة الحمرة كالدماء، كانت سيارتك تمر ببطء خلف طابور من السيارات المتقدمة، تسبقك سيارة سوداء عريضة وحديثة الإصدار من طراز "مرسيدس"، ترجَّل منها السائق بخفة ليفتح الباب الخلفي للسيارة، لتخرج إلى النور امرأة أطفأت بنورها أنوار المشهد، يا لها من شخصية مهمة بالتأكيد! أزاحت بحركة سينيمائية من رأسها ورقبتها خصلات شعرها المتناثرة على عينها، وبدون أن تشكر سائقها تقدمت في كبرياء بالغ، وبنظرة جادة إلى البوابة.

كنت تظن أن من بالسيارة مديرك المباشر أو مدير القطاع بأكمله.. لكن لحظة! ثبَّتَّ عويناتك جيدًا لتتحقق من النظر.. أنت تعرف هذه الفاتنة بارعة الجمال...

ما إن نزلت من السيارة حتى خطفت جميع الأبصار بإطلالتها، استحوذت وحدها على المشهد كأنها بالفعل نجمة سينمائية، وتتقدم بثبات للحصول على جائزة الأوسكار لأفضل... لأفضل كل شيء يمكن! كان كل الواقفين يلتقطون لها الصور.. ليس بكاميراتهم ولا كاميرات هواتفهم، ولكن بأعينهم المفتوحة العدسات، جميع تلك العيون لن تنسى صورتها الساحرة حتى يأتي من بعدها ما يفوقها جمالًا وفتنة..

فستانها الأسود الطويل المفتوح من فوق رُكبتها اليسرى هو الأفضل بغير حاجة لمقارنته بغيره، هذا إن وجد غيره يستحق المنافسة، ويكفي أنها تفضّلت عليه من بين فساتينها الأخرى وارتدته؛ هذا ما جعله يفوز في هذه المنافسة التخيلية التي اصطنعها عقلك، وربما أيضًا عقول الآخرين من المسحورين مثلك، كان فستانًا يتلألأ ويبرق مع الأضواء كلما تعوَّج على منحنيات جسدها الفارع، كسماء ليلية امتلأت بالنجوم في ظل حركة صاخبة من السحب المهاجرة.. ماذا لو حدثت نفسك عن وصف جسدها، لن تكفي الليلة كلها، ستحتاج إلى ليالٍ أُخر!

إنها نهال.. نعم هي نهال وهبة زميلة العمل من قسم الجودة، لكنها في هيئة لم تعهدها من قبل.. غاب عقلك برهة بينما تراها في هذه الصورة الجذابة، كأنها حدث فلكي نادر لم ترَه مسبقًا، ولن تراه مستقبلًا، وقُدر لك الليلة أن تراه.

كانت في كامل زينتها وتبرّجها، لن تبالغ إذا أقسمت أنها لم تكن بهذه الدرجة الفائقة من الحُسن ليلة عرسها، مع أنك لم تُدعَ حينذاك.

لم تكن تعرف الكثير عن نهال إلا عندما نالتها الشائعات مؤخرًا على ألسُن العاملين بالشركة، فمروّجي الشائعات من الرجال أكثر من النساء لديكم، وقد شغلهم أمر طلاقها كما يشغلهم مباراة "الكلاسيكو" الإسباني؛ نعم هذا حدث جلل، وظاهرة لا يجوز الصمت عنها؛ إن هذا المغفل الذي قرر أن يخسر فرصة الحياة مع هذه الأنثى الفاتنة لهو ملعون ومجبور بالأعمال السحرية السوداء ولا شك، من قضى ليلة واحدة بقرب امرأة مثلها لا يمكنه الاستغناء عن ثغرها الأخاذ.. يقولون إنه مريض، عاجز، أو ساديٌّ مضطرب العقل، لكن مدام ثريا ترجّح أنه ملعون بالسحر. يدّعون بأنها تزوجته عن عدم رضا، ضعفًا وخوفًا أمام سلطته، فهو كما أذعنوا أيضًا ضابط شرطة، لكن مدام ثريا تُرجّح أيضًا أنها مسحورة ومجبورة عليه كذلك.. لقد قالوا وزعموا كل الاحتمالات المنطقية وغير المنطقية عن خبر طلاقها أو زواجها من ذاك الرجل، لكنها وحدها من عاشت الأحداث ورأتها رأي العين، ولها حق الرواية والقصّ، وما فعلت ذلك حتى الآن.

تساءلت في نفسك: هل هي بهذا الحجم من الثراء فعلًا؟ أم إن هذه مجرد سيارة مؤجرة؟ وإن كانت كذلك فلماذا تريد أن تظهر بهذه الصورة؟ لا داعي لأن تشغل بالك الليلة بهذه التساؤلات التي سيجيب عنها نصف من بالشركة غدًا.

اضطر الموظف المسؤول عن استقبال وتنظيم السيارات أمام بوابة الفندق الرئيسة أن يطرق على زجاج سيارتك مرتين لتنبيهك؛ فلقد سلبتك نهال حواسك حتى غبت معها إلى القاعة الرئيسة، لكنك تُعطل الحركة الآن بينما أنت مشغول بمتابعة خطواتها الرشيقة الواثقة وهي تلتحم مع الناس في الزحام، فلتلحق بها فلديكم اجتماعًا مهمًّا على وشك البدء.

خُصصت مائدتين كبيرتين للحضور الذي زاد عن عشرين فردًا، قررت نهال سرقة الأضواء والأعين من جديد، ولكن هذه المرة عن عمد منها، فراحت تتواصل مع هذا وذاك، تتنقل بين مقعد وآخر لتلقي التحية، ترحب تارة وتبتسم تارة أخرى، وانتقلت أيضًا إلى المائدة الأخرى لتتواصل بلطف مع بعض المهندسين الإيطاليين.

كنت جالسًا وسطهم تتحدث بمقدمات وتمهيدات رسمية، بجوارك ماهر الذي يصرّ أن تشاركه في شاليه بإحدى القرى السياحية بالساحل الشمالي، ويقسم أنها فرصة إن فاتت فسيفوتك نصف عمرك.. وافقت مبدئيًّا على المبدأ وأيّدته، لكنك طلبت منه تأجيل الاتفاق الرسمي لبعد المعاينة الواقعية.

ثم أتت نهال لتذيب الثلج المتراكم بين الحضور، أنصتّ إلى إنجليزيتها الراقية؛ رئيس الشركة على حق حين دعاها إذن، لقد تحدثت أيضًا ببعض الجمل الإيطالية بين أحشاء كلامها وترحيبها بهم، وقد ابتسم الجميع وأشرقت وجوههم سرورًا بها.

تسترق النظر إلى مديرها على المائدة الأخرى فتراه كمن خدّره عقار ما؛ الرجل في حالة من العجب إذ يراها تفعل ما تفعل، ولن تلومه فالكل مصاب بما أصابه حتى أنت.. مؤكد أنها نالت رضاه في هذه الليلة؛ التواصل الجيد سيفتح أبواب التفاوض الموصدة، ويسمح بمزيدٍ من المرونة، وهذا ما اكتشفته فعلًا أثناء الحديث على العشاء.

نقاشات تقنية دارت وأخرى إدارية تمت أظهرت المسار العام الذي سيسير فيه المشروع بصورة عامة، بالطبع كانت لك بعض الملحوظات المهمة قدمتها لهم وسط الحديث، اهتم الجمع من الفريقين بها، أشاد مدير إدارتك بكلامك بإيماءة منه، فابتسمت له ودار رأسك بين الوجوه ليلتقي بوجه نهال لتبتسم لك هي الأخرى، فتوقف رأسك عن الدوران.

تُرى ما الذي يخفيه هذا الوجه ذو الملامح المصرية الخالصة من حقائق زُيفت لحكايات كحكايات ألف ليلة وليلة.. بارعة الحسن هي، لا يختلف في ذلك شخصان، شعرها الأسود القاتم متوسط الطول يحكي حزنًا عاشته، وعيونها الضيقة تجاهد ألا تفضح أسرارها الثقيلة المرهقة، فارعة الطول بغير زيادة، وقوية البنية كأنها لاعبة أوليمبية، لكنك أيضًا لا تستطيع وصفها بالعملاقة أو الضخمة، فهي أقرب للرقة المتماسكة بالثبات.

كنت ترسم لسيرتها رسمًا في عقلك بعد ما جمعت في ذاكرتك كل ما سمعته عنها من حكايات، وكنت كلما تذكرت شيئًا عنها تقاطعات نظر اتكما وتبادلتماها، كأنها تقول لك: لست كل ذلك، أو أنا بالفعل كل ذلك.

في نهاية الليلة نهض الجمع متأهبًا للانصراف بعد التمكن من عقد الصفقة بنجاح، وي كأنه أراد الاحتفال على طريقته الخاصة تجرأ أحد المهندسين الإيطاليين على دعوة نهال لاستكمال السهرة معه علنًا؛ لقد تيّمَهُ حُسنها! بينما تعجب الجميع من فعلته، بما فيهم زملاؤه الحريصون على أن تكون سلوكياتهم محسوبة وسط مجتمع شرقي يتسم بالمحافظة، لكنه دانتي كما يبدو لم يأبه لذلك، ولم ينتهج نهجهم؛ إذ مال ناحيتها قائلًا بصوت مسموع، وبإنجليزية متواضعة: "هل ترغبين في نزهة بعد العشاء لشرب البيرة؟".. لم يبدُ عليها شيء على الإطلاق، ولم تفارق وجهها الحسن الابتسامة الرقيقة المصطنعة نفسها منذ بدء الليلة؛ لعلها أرادت ألا تفسد ما حسبته عملًا مُرضيًا للشركاء الجدد.. ازدادت ابتسامتها عرضًا حتى ملأت وجهها وردت بلباقة:

- أخشى أنني على موعد بالفعل مع أحدهم.

لم يتأثر قليلًا أو كثيرًا، لكنه بالعكس ألحّ عليها بطلبه.. اللعنة على الخمر الذي شربها قبل العشاء وخلاله وبعده، لقد أفقدته شيئًا كبيرًا من مروءته، فقال بصوت مسموع أيضًا وبكل جرأة:

- لكنكِ لا تعلمين ما سيفوتك؟

كنت على مقربة منها حيث يصافحك رجل آخر، فقررت بدون زيادة تفكير أن تتدخل في المناقشة قائلًا:

- لا تقلق يا سيدي بشأن المهندسة نهال، سوف أعوّضها عما سيفوتها.

فطنت نهال لفعلك، و ابتسمت وقالت للمهندس دانتي وهي تشير إليك:

- هذا هو "أحدهم" الذي أخبرتك بأني على موعد معه!

انتقلت نظرات الاستهجان بين معظم الحاضرين، لحسن الحظ لم تكن مدام ثريا من بينهم، وإلا فنفي شائعة أنك ونهال تعيشان قصة حب في الخفاء ستكون مستحيلة، أما عن دانتي فاكتفى بابتسامة صفراء مستسلمًا وغادر كأنه وعلٌ خسر نزالًا للتوّ أمام غريمه للفوز بأروى رائعة.

اقتربت نهال منك وتأبطت ذراعك واستعدت للانطلاق بالفعل...

ما الذي يحدث؟ هل حسبت أن هذا المشهد التمثيلي سيكتمل بالفعل للنهاية؟ غادرت معها متوترًا والابتسامات الخبيثة والحاسدة لا تبرحكما وكزًا، لكن ماهر كان ينظر لكما متأسفًا لما سيثار من لغط وثرثرة على حساب هذا المشهد الحالي.

قالت وهي ما زالت متأبطة ذراعك:

- لا أدري كيف أشكرك على تدخلك في الوقت المناسب، الكلمة التي كانت ستخرج من فمي له كانت بذيئة للغاية، وما كنت لأتحمل سخافاته أكثر من ذلك.

قلت و أنت لا تدري كيف تسحب ذراعك منها بطريقة غير محرجة لها:

- لقد لاحظت أنكِ سئمتِ من تصنع المجاملات معه.. سخيف دانتي هذا..

ثم عدلت من عويناتك على وجهك وقلت:

- هل ستغادرين في السيارة الفارهة نفسها التي أتيتِ بها؟
- هل كنت تر اقبني؟ عمومًا لا.. لقد كانت رحلة ذهاب بلا عودة، ربما لو عرض عليَّ "أحدهم" أن نشرب عصير البرتقال في مكان ما، واصطحبني بسيارته للمنزل بعد ذلك لكان أفضل كي ننسى سخافات دانتي..

ابتسمت مرحِّبًا، واسترجعت ذراعك الأسيرة لديها بهدوء وحذر.

هذه المرأة جريئة أكثر منها جميلة، ورجل مثلك يميل إلى الوقار لا يمكنه مجاراتها، حاولت أن تحيد بالحديث لممرٍ آمن أقل في سرعة ضربات القلب، فقلت:

- "أحدهم" هذا يُدعى كريم شوقي، أظن أنكِ تتعمدين نسيان اسمي!
- إطلاقًا، ومن لا يعرفك يا باشمهندس كريم.

ثم أضافت وهي تخلل خصلات شعرها المتطاير بأصابعها:

- أشعر بالبرودة الآن، هذا الفستان المكشوف ليس مناسبًا أبدًا للأجواء الطلقة.
- أقل من دقيقة وسنكون بداخل السيارة.

مستحيل أن يكون طلاقها شائعة، كل أفعالها تقول إنها تحررت من قيدٍ ما، ليست سعيدة لكنها ليست حزينة أيضًا.

اختارت حانة قريبة من الفندق لتتناولا العصير فيها، فلم تضطر للقيادة كثيرًا و أنت بهذه الحالة من التوتر الشديد، أما عنها فلم تتكلم معك كلمة واحدة غير وصفها لطريق الحانة، عدا ذلك ظلت صامتة تنظر في شرود للشارع من خلال زجاج السيارة، وما انفكت تداعب خصلات شعرها الأسود القاتم بأصابعها الخالية من خاتم الزواج.

الجو يتحسن في ليالي الربيع ويميل للبرودة أحيانًا، وضوءٌ شاحبٌ في السماء لقمرٍ غير مكتمل قد زاد الجمال جمالًا، والآن تحتسي شيئًا ما لا تهتم له و أنت جالسٌ مع سيدة وجهها كالقمر، ورداؤها كالسماء، مرت دقائق قليلة على مشهد ينقذ فيه البطل بطلته التي تعرضت لموقف محرج نظير حرصها على نجاح المشروع، لكن المشهد الذي يتم تصويره – و اقعيًا - الآن لا يناسبكما البتة.

عندما حضر النادل أول مرة، غازلكم ببعض التعليقات الرومانسية المرحة فلم يعجبها ذلك، وتذمرت على الفور قائلة بتسرع: "لسنا إلا صديقين أيها الأحمق"، فاحمرّ وجه الرجل خجلًا وضيقًا من قسوة كلمتها، فطلبت أنت منه كوبين مما أرادت أن تشرب هي منه حتى ينصرف ليجفف عرق خجله بعيدًا.. إنها عنيفة شيء ما كذلك!

همست لك وهي تقترب برأسها منك:

- يبدو أننا حبيبان في هذا الزي الرسمي، أليس كذلك؟

تلعثمت الألفاظ على لسانك حين كنت تنتقي منها ما يليق للرد، تريد لفظًا مختنقًا بين الجرأة والوقاحة والمجاملة فلم تجده، فأومأت برأسك مو افقًا في خجل والضحك لا ينفك عنك.. إنّ مزيد من تلك المغريات لن تطيقها أعصابك لفترة أطول.

ذهبت إلى الحمام، ليس لتفعل ما يفعله البشر ولكن لتعتذر لعلا هاتفيًا عن التأخر بسبب الاجتماع، كنت تحدثها و أنت تنظر في مرآة الحمام العريضة التي تفضح صورة قدمك وهي تغرس في وحل الأكاذيب، والسبب في كل مرة أنثى.. أنثى تنتظر على طاولة.. يا للعجب! تلك هي المرة الثانية التي تنتظرك فيها أنثى على طاولة ما لتفعل شيئًا ما لا تعرفه ولا تعرف كيف ستتعامل معه.. في كل مرة كانت النتيجة أن تذهب ولا محالة، لكنك الآن أكثر جاهزية من ذي قبل، لقد مررت بهذا الاختبار سابقًا، ليس مثله تمامًا، ولكن مررت به.

ماذا دهاك؟ لا تريد أن تخرج من الحمام، ولا أن تغادر من أمام المرآة.. الأمر يشبه كثيرًا أن أحدًا يدفعك للصعود على مسرحٍ للغناء أمام مجموعة من الجماهير المتحمسة، بينما أنت لا تجيد الغناء..

فكرت أن تتصل بمراد سريعًا، لكن ماذا ستقول له؟ هل ستطلب منه أن يأتي لإنقاذك من خطر لا يبدو خطرًا، هل سيملي عليك ما تقول وكيف تقوله في هذه اللحظات؟ ليس مراد بالحل، وليست ثمة مشكلة أصلًا، ما لك تبدو كالمعتوه أمام رونقها وبهائها! اخرج إليها وتعامل كرجل لا ينقصه شيء.. وبين تشبث التوتر بقدمك كقط مشاغب وبين اصطناع اللامبالاة اتصل ماهر بك، فرددت سريعًا عليه: "ماهر، أنا في حضرة جمال هذه اللؤلؤة الساحرة.."، رد عليك بصوت غلّظه عن عمد:

- كريم، هل جننت؟! ماذا تفعل معها؟ ألا تعرف ما يثار حولها من شائعات و أقاويل؟
- أعلم.. أعلم ولكن لا أعرف أي سبيل لأتملص منها الآن لكني سأفعل بأي طريقة.

قال وقد عاد صوته إلى طبيعته:

- أين أنت الآن؟ أما زلت معها؟
- نعم.. سأنهي المكالمة الآن يا صديقي وسأخبرك بما تمّ غدًا.
- حسنًا، لكن احذر منها يا كريم.

عدت إليها وطاقة الاهتزاز الداخلي تملؤك...

قلت مقترحًا:

- حسنًا، ما رأيك أن نتكلم في العمل قليلًا؟
- أي عمل؟ نحن لتوّنا انتهينا من عشاء عمل!
- لم أقصد هذا، أقصد.. لقد أخبرتني السيدة ثريا بأنكِ تبغين القيام ببعض الأعمال المتعلقة بشقة ما، أو ربما تغيير بعض الديكورات.. شيء مثل هذا.
- آه.. نعم، كنت قد نسيت الأمر، أو ترددت.. لا أدري حقًّا، أردت أن أكون جاهزة قبل أن أتحدث إليك في هذا الشأن.

قلت بودٍّ:

- هل أكون متطفلًا إذا طلبت أن نفكر معًا؟ أعني أن هناك حلولًا وبدائل عديدة في هذا المجال، وربما ما أنتِ مترددة بصدده يكون أمرًا تافهًا.

بابتسامة صفراء كتلك التي نالها النادل ردت عليك:

- وما الذي يدفعك للاهتمام بأموري التافهة؟ ومن طلب منك مشاركتي التفكير فيها؟

فطنت إلى تعبيرك المجازي قد سمعته كما هو دون أن تعي معناه، فقلت مصححًا:

- لم أقصد بالطبع التقليل من شأن ما تنوين القيام به.. أقول لكِ شيئًا.. لا تلقي بالًا لما قلته، ما رأيك أن توضّحي لي أكثر؟

بدأت ابتسامتها الساخرة تتغير إلى لا ملامح وقالت:

- حسنًا.. أنا أخطط لشراء شقة ذات مساحة مناسبة، بشرط أن تكون في محيط الشركة، فأنا أقطع مسافة طويلة كل يوم من الشيخ زايد إلى مدينة نصر، لكنني أولًا أريد منك أن تقدم لي مقايسة للأعمال التي ستتم بالشقة.. من حيث التشطيبات والديكورات إلى آخره، لكن بغير تكلفة مهولة أيضًا، أريد شيئًا اقتصاديًّا، هل فهمت؟

سكتت لثانيتين ثم سألتك:

- متى تستطيع أن تقدم لي المقايسة؟

قاومت الضحك خشية عصبيتها الواضحة:

- فلنبحث عن ساحر إذن!
- ماذا؟

أشرت إليها بكفوف يديك لتنتظر ولتهدأ حتى تكمل كلامك وقلت:

- اهدئي.. ما تطلبينه يحتاج إلى وقت ليس بكبير ولكن يحتاج إلى وقت معقول، و أيضًا ترتيب وتخطيط، وكثير من البحث أيضًا.

أخفت وجهها بكفّيها وأوشكت على البكاء قائلة:

- كريم، أنا في سباق مع الزمن.. أريد شقة في أسرع وقت، أنا...

قطعت كلامها بسكتة قصيرة، ونظرت إلى السقف بغير صبر وتنهدت وعادت لتقول بلغة الأمر الإلزامي:

- احرص على أن يكون كل ما يدور بيننا سرًّا.

*****

أنت تتعامل مع سيدة جريئة، جميلة، مندفعة، سيئة الظن، متعجلة.. أما عن القوة فأنت مشتت بين إن كانت قوية فعلًا أم أنها تدعي ذلك من فرط خوفها.. ممَّ تخاف يا تُرى؟

تريد اختصار كل ما تراه فيها ويحيرك وصفها بالجنون، ولا يمنعك سوى جمالها؛ فالجمال لا يصاب بالجنون في عُرفك، هذا لا يحدث إلا في الخيال، والخيال في اعتقادك عبث يضيع الوقت.. فلتقل إنها غريبة الأطوار؛ ما أكثرهم الآن بيننا! انظر إلى مراد صديقك وستعلم أنهم كُثُر.

كانت قد كسبت قدرًا لا بأس به من اهتمامك في وقت قصير؛ إنها فرصة في كل شيء، مشروع جديد يضاف إلى قائمة الأعمال، وبحر جديد متسع لتصب فيه اهتمامك الفياض، وهي تبدو كبحر من المشكلات المتنكرة في هيئة فرص، وأحيانًا تبدو لك كساحرة شريرة ستأكل قلبك نيّئًا.

- اهدئي أرجوكِ ولا تبكي، أنا في خدمتك على كل حال، والحفاظ على أسرار العملاء أهم قيمة أقدمها، فلن يثق الناس برجل يثرثر بكل ما عرفه عن الآخرين وبيوتهم التي دخل كل ركن فيها بمقتضى العمل.
- لا تردد كلمة "اهدئي" تلك كثيرًا، أنا لست بمجنونة.

تتبدل ملامحها بين النسيم والبرق، وبين العاصفة والرعد كل كلمتين أو ثلاث. قالت وهي تبتسم وتمط شفتيها مثل الأطفال:

- أعترف يا كريم أنني قد أبدو لك مجنونة بالفعل، لكن..

تنهدت طويلًا ثم قالت:

- يا ربي.. لماذا أنت غير قادر على أن تفهمني؟
- سيادة المهندسة نهال...
- اسمي نهال فقط.
- حسنًا، نهال فقط.. أخبريني بما تريديه واعذري عثراتي.. هل هذا جيد؟

مدت يدك لتصافحك وقالت وهي تبتسم:

- جيد.

لم يكن هناك ما يقال من جانبك، كنت تحسب كلماتك وتراجعها ألف مرة بسببها فأضافت هي وقد استمرت ابتسامتها على وجهها لفترة أطول هذه المرة:

- أنا سعيدة بهذا الوقت القصير معك، ممتنة لك كذلك.. أنت شخص مريح جدًّا يا كريم.. سنكرر اللقاء مؤكدًا، ولكن بدون هذا المشروب اللاذع.

ثم وقفت لتعدل من فستانها الذي يشبه السماء ليلًا متأهبة للانصراف وقالت:

- والآن هل تسمح أن تصطحبني إلى المنزل؟

قلت وقد انتابك شعور ممتزجًا بين الفرح والحزن:

- أنا سعدت أكثر بمعرفتك..

وقمت لتعدل من هيئتك أنت أيضًا وسألتها بتوجّس:

- الشيخ زايد؟
- نعم الشيخ زايد.. لن تتركني لأرجع في هذه الساعة وحدي وبهذه الملابس!

هناك عراك ينتظرك مع علا في آخر الليلة بالتأكيد.

قلت لنهال:

- بالطبع لا.

كنت ستعرض عليها ذلك بالفعل، لكنها كانت أجرأ.

*****

- مرحبا علا، اجهزي وسارة للنزول، فقط خمس دقائق وسأكون أمام البناية.
- لماذا تأخرت كل ذلك يا كريم؟ ولماذا لا ترد على اتصالي بك منذ قليل؟
- معذرة لم أسمع الهاتف، لقد مدّوا وقت الاجتماع، هذا ما أخرني عنكما..
- إذن اصعد لتحمل عني سارة، فقد نامت.
- حسنًا.. لكن الوقت متأخر، لا أريد أن أزعج والدك المريض.. و..
- اصعد يا كريم، لقد نام الجميع إلا أنا.

*****

كنت تقود السيارة بسرعة وثقة؛ الشوارع أوسع بعد ذهاب كل ما يكدسها إلى النوم، تسترق النظر نحو علا وقد أغمضت عيناها طامعة في بعض الاسترخاء، سألتها عن حالة أبيها و أنت تنزل درجات السلم مسرعًا حاملًا سارة على كتفك وصدرك، فأخبرتك أنه ليس بخير حال، فوعدتها أن تذهبوا غدًا لزيارته، فنظرت إليك نظرة معناها "إذن كنت تركتني لأبيت معهم"، لكنها لم تقولها.. لكنك فهمتها بالتأكيد.

لقد قطعت مسافة طويلة إلى الشيخ زايد لتوصل نهال إلى مسكن والديها حيث تقيم معهما بعد الطلاق؛ لم يكن لديك خيار آخر وقد طلبت منك ذلك بنفسها.. كانت شاردة طوال الطريق تداعب خصلات شعرها كما كانت تفعل أثناء الطريق القصير من الفندق إلى الحانة، كأنها تسير في كل طريق الحياة بالشرود واللامبالاة نفسهما، قصر الطريق أم طال فهي لا تبالي به.

لم تتحدث إلا على قدر أسئلتك العابثة لتلفتها عن صمتها وحسب، كنت تنظر إليها شذرًا من حين لآخر، فترى بياض رجلها من فتحة فستانها الطويلة وهي غير منتبهة، فتعرض عن إطالة النظر خجلًا أو أدبًا، ثم تعود لتسألها سؤالًا عبثيًا آخر لا تجيبك عنه

إجابة كاملة؛ فقط تنظر وترد بنعم أو لا أو ربما ثم تعود لشرودها الغريب، وتعود أنت لتنظر إلى الطريق فائزًا بنظرة أخرى من جسدها، فتلوم نفسك على شر ما صنعت.

نهال هذه ليست هي التي رأيتها مرارًا متحفظة في التعاملات مع كل من بداخل الشركة، صحيح أن معظم النساء يمِلنَ إلى الجرأة في اختيارات ملابسهنَّ حال المناسبات أو الاحتفالات، لكنك لم تعهدها جريئة الحركة والحديث مع الغير قبل ذلك مثل اليوم، أنت أمام نسخة جديدة متطورة منها، في ظاهرها مزدهرة وفي باطنها جدباء، هذه السيدة التي بجوارك الآن عارية القدم تقريبًا هي النسخة المطلَّقة من نهال القديمة، وتعجُّلها في البحث عن مسكن جديد لهو نتيجة هذا الطلاق، يكفيك تناقض أفعالها الذي شاهدته الليلة، فما هو إلا حصاد ما مرت به لمَّا كانت زوجة.. هكذا تتضح قصتها وتتلاحم.

الزواج والحب

انتظمت العراكات الكلامية مع علا كفنجان قهوة تحتسيه بعد العودة من العمل؛ أنت لا تترك ملحوظة إلا وذكرتها لتنبهها، وهي لا تترك ردًّا مقنعًا أو على سبيل الدفاع إلا وجادلتك به، فلا يهدأ العراك إلا بواحدة من ثلاث؛ إما بالملل أو التعب أو اليأس، ولا ينتهي بفوز جانب على آخر.. منذ متى يخسر فرد مشترك في لعبة ثنائية وحده بينما يكسب شريكه، إما فريق فائز أو خاسر، وليس ثمَّ لاعبٌ وحيدٌ ينفرد بنتيجة مختلفة عن فريقه، أنت قد تموت إن قيّدت لسانك عن نقد أفعال لا تعجبك، وتصاب بارتفاع ضغط الدم إذا لم تغير وضعًا ترفضه، غلاف المقرمشات الفارغ الملقى أرضًا بجوار تلك المنضدة لا يعني سوى أن البيت كله متسخ أو غير منظم، والسبب معروف؛ ثمّة تقصير واضح في مهام المنزل اليومية، أو أن هناك من قرر أن يتصف بالإهمال المتعمد في هذا البيت.. كلها عادات لا تقبلها وتأنف منها منذ الصغر، وقد حرصت على تأكيد ذلك في العديد من المرات؛ ليس هذا ما كنت تتوقعه عند الانتقال إلى منزل جديد بالكامل، صفحة بيضاء علينا أن نُجمّلها ولا نقبحها.

المنزل كبير، أنت لا تُنكر ذلك، لكن على ربة المنزل المسؤولة أن تعتني به جيدًا، وتُقسّم الأعمال فيه بجدول زمني مناسب ومستمر، ليظل محافظًا على مظهره جميلًا ونظيفًا، كيف إذن سيحدث هذا وزوجتك تستيقظ بعد الثانية عشرة ظهرًا؟!

لا تستيقظ علا قبل سارة لأنها لا تنام إلا بعدها، فعادةً يبدأ اليوم لسارة وعلا قبل عودتك من العمل بساعتين أو ثلاث، فإن فرصة اجتماعكم على طعام الغداء تُعد نادرة، فتجد نفسك أمام خيارات كلها غير مُرضية لك، إما أن تأكل وجبة سريعة من أي مطعم، وهذا خيارٌ مقزز بالنسبة إليك، أو أنك تضطر لأن تطهو طعامك بنفسك كما كنت تفعل أحيانًا في العراق، وما فائدة البيت والزوجة والمشاركة الحياتية إذن؟ أو ربما عليك أن تنتظر.. تنتظر وقتًا أطول من اللازم حتى تعدّ علا لك شيئًا سريعًا، فها أنت أمام أطباق مختلفة كلها لا تثير شهيتك، فما العمل؟

علا ترى أن بالبيت طفلة صغيرة، بينما البيت نفسه كبير وضخم، وحتى تتعلم سارة رمي أغلفة المقرمشات أو الحلويات في صناديق القمامة التي تشغل كل أركان البيت تقريبًا، فما هذه إلا مسألة وقت واعتياد.. "وهل ستتعلم البنت ذلك من لا أحد

أم عليها أن ترى من يفعل ذلك أمامها أو يأمرها به مرة بعد مرة؟".. هذا النوع من الأسئلة تعدّه علا إهانة غير مباشرة لها، فهي أكثر إهمالًا من سارة إن أردنا الحق، لكنها لن تعترف بذلك؛ تظل المرأة مستكينة هادئة حتى تنتقد أفعالًا تخصّها، عندها لا تلوم إلا نفسك، ستدافع بردّ الهجوم بهجوم مثله وربما أشرس، وستلومك على الانتقال إلى منزل بهذا الاتساع المرهق.. "أنا لم أطلب منك منزلًا أكبر ولا أوسع مما كنّا فيه، ومن تلك التي ستحافظ على النظافة المثالية يوميًّا لبيت بهذا الحجم؟"، ولا تكتفي، بل عليها الرد قولًا باللسان؛ تذهب على الفور لتشتري كل ما يساعد ويسهّل عملية التنظيف مهما كلفك، وتضع كل الأدوات والأجهزة أمامها وتقول: "هذا كل ما تحتاجينه ليسهّل عليكِ الأمر، وهذا أيضًا مُنبه صاخب النغمة ليوقظك في الصباح وليس بعد الظهيرة"، تشعر علا بالغيظ والإهانات تنالها نيلًا من تصرفاتك وكلامك اللاذع.. لا بد لها من ذلك على كل حال، لكنها لا تيأس وتبحث عن ردود باردة لتجدها سريعًا جاهزة على لسانها، فتقول: "وهل ثبت في علم الهندسة الذي درسته أن هذه الأدوات تقلص من حجم المنزل؟ يا باشمهندس، هذه ليست وسائل مساعدة و إنما قاذفات أعباء".. يحترق صدرك كغابات أستراليا، وينفجر الدم في رأسك كبركان فيزوف، وتترك أرض المعركة بغير إعلان هدنة، وغلاف الحلويات الملقى أرضًا يعلن خسارة الفريق.

*****

تلقيت اتصالًا من هدير تشتكي لك من المهندس ياسر وتتهمه بتعقيد الأمور.. استرسلت الفتاة في الحديث معك عن التفاصيل الدقيقة التي يلاحظها هذا الرجل، مما يعطّل سير العمل ويؤخر مواعيد الانتهاء المحددة مسبقًا لكل مرحلة، تنصحها بالصبر معه؛ إذ إنه عميل مهم يملك أكثر من وحدة سكنية في أكثر من حي مميز، وبذلك فإن العمل معه يعدّ مكسبًا عظيمًا.. وتعود هدير لتروي لك مشكلة تغيير ألوان الدهانات بعد تنفيذها، فلماذا لم يخبرها بذلك أثناء زيارته لمتابعة العمل؟ تكاد الفتاة تحترق انفعالًا، بينما أنت تستمع، وتندهش، وتضحك، وتمزح، وتهوّن عليها الأمر.. كل هذا على مرأى ومسمع من علا.

دارت الرياح بطريقة حلزونية عكس عقارب الساعة في رأسها لتعلن منذرة عن قدوم إعصار ساحق لكل من سيحاول تهدأتها، وقد أدركت ذلك ولاحظته أثناء المكالمة، لكن شعور التشفّي قد طغى عليك، فتماديت وتصنَّعت مع هدير أكثر فأكثر..

سأترك الخيال ينسج مشهدًا مكتملًا لإعصارٍ ساحقٍ يغوص في أعماق جبل فيزوف، وهذا ما حدث وقتئذ بين علا كريم.

على إحدى المقاهي القريبة من منزل مراد، جلستما باسترخاء تحتسيان القهوة كعادتكما مؤخرًا.. بدأت الحديث بسؤاله:

- أما آن لك أن تتزوج أيها الراهب؟

انتظر حتى فرغ "القهوجي" من صبّ السائل السحري في فنجان كل منكما، فتناولتما الفناجين تتذوقا القهوة، وظهرت علامات التقزز على وجهيكما معًا، ناولته فنجانه قائلًا: "هذا لك".. ابتسم وثرثر عن خطورة السكر واصفًا إياه بالسمّ الأبيض، وكيف أن الحياة حلوة فعلًا بدونه، و أنت تثبتّ نظرك عليه كي لا تفقد سؤالك له، فتعود وتكرر عليه:

- لم تجبني بعد!

فيرد على سؤالك مرتديًا تاج الحكمة المزيف بعد ما ضيّقت عليه فرصة الهرب:

- الزواج يا صديقي هو ذاك الصياد الماهر يمشي متبخترًا بين عوالم الرجال حاملًا بندقيته على كتفه متلذذًا بالنظر تجاه فرائسه المعلقة في شباكٍ محكمةٍ من الحبال الغليظة والتي يليق بها اسم الحب.. توشك الفرائس أن تكفّ عن محاولات الفرار وتيأس فتستسلم.. وحالما استسلموا يأخذهم الصياد داخل غابة المتاهة العظمى، حيث لا يعودون منها غالبًا، وإن عادوا فلا يعودون كما كانوا قبل ذلك أبدًا.

يرشف رشفة من السائل الذي يظن أنه يجعله مُلهمًا ويكمل طرح فلسفته:

- أتدري ما الفخ الذي نُصِب لهؤلاء الفرائس؟ إنه الحب يا صديقي، أو قل عنه سُنّة الحياة، أو سمّهِ العادات أو إرادة العفّة.. سمِّهِ أي شيء شئت، لكني لن أقع فيه مثلكم؛ لأنه سيظل فخًّا مهما تغيّر مسماه.

- أنت متخلف يا صديقي.

يعتدل سريعًا في جلسته، ويضع فنجانه على الطاولة:

- ماذا قلت؟

- أقول أنت مختلف يا صديقي.. مختلف!

تضحكان معًا لكنك سرعان ما توجه له كلامًا جادًّا في محاولة منك لتغيير فكرته:

- مراد أنا أتفهم آثار ما مررت به من مآسي ومصائب، لكن دعني أصارحك أن فلسفتك هذه ليس لها قيمة مجتمعية.. الزواج أمرٌ محمودٌ في جميع الشرائع، إنه على الأقل يحميك من الوحدة.. هل من سبب منطقي يجعلك تظل عازبًا حتى الآن؟ لا أعتقد أن لديك تجارب سيئة سابقة في الأمر، وإن حدثت فلا بد أنك الطرف الأقوى والأقل خسارة، أنا أعرفك جيدًا.. ثم إنك لديك بالفعل علاقات مع الجنس الآخر، كيف لم تؤثر فيك فتاة من بينهنّ؟ هل تعاني من مرضٍ جنسيٍ مثلًا؟ فأنت كمن يريد الأمر وخائف منه! أو ربما تفتقد الثقة بنفسك.

سرح مراد قليلًا قبل أن يردّ:

- ولماذا لا تقول إنني لم أجد المعايير المناسبة لفتاة أحلامي حتى الآن؟ ولماذا أصلًا نصِفّ الحرية بالوحدة؟ ماذا لو فشلت تجربة الزواج وصارت الحياة تعيسة ومعقدة؟ وكيف أثق في اختياري لفتاةٍ أقصى ما سأطلع عليه من طبائعها لن يرقى لأن يكون دافعًا قويًا لتشاركني أعوامًا قادمة لا يعلم عددها إلا الله؟ واطمئن.. لست أعاني من أي اضطرابات عاطفية أو أمراضٍ جنسية، كل ما في الأمر أنني أنعم بحرية أرفض خدشها لأغراض مثل كسر الملل أو الأنس بشخصٍ ما أو حتى برغبة الإنجاب أو الإعجاب.
- أنت مخطئ في تفكيرك هذا يا صديقي، وكل ما تريد أن تُعقِّد به الأمر عندي له أكثر من ردٍّ مقنع، إن أردت أسمِّعك إياهم.

اعتدل وقال:

- إن تفكيري المخطئ وفلسفتي غير القيّمة في نظرك يدفعاني لسؤالك سؤالًا في المقابل.. لكني أخشى أن أتجاوز به وأحرجك!
- سَل ما شئت.
- هل أنت راضٍ عن زواجك من علا؟ المهندس كريم شوقي، الشاب الأسبق والأفضل في كل مضمار ولج فيه من مضامير هذه الحياة.. ما مركزه يا تُرى في مضمار الحب والزواج؟ هل سبقت كما اعتدت؟

سحابة من التوتر قد حلّقت فوق رأسك، ويبدو أنه قد رآها فقرر أن يضيف على سؤاله المحرج سؤالًا آخر لا يقل صعوبة وإحراجًا، فقال:

- وبالمناسبة.. فلسفتي تتضمن مفهوميّ الحب والزواج اللذان من شأنهما أن يحيطا المرء بأسوار الاكتفاء، فلا تخبرني أن الزواج قد يخلو من الحب أو أن الحب ليس سبيلًا إلى الاكتفاء، فإن كان الحب يقود إلى الاكتفاء، فأنا أحب حبًّا غير مشروط يمنحني ذلك الاكتفاء، فما أنا بكارهٍ أو كافر بالحب يا صديقي، ولا أشعر أيضًا بالنقص الذي تظنه أو يظنه الآخرون بي ممن يفكرون بالطريقة نفسها التي تفكر بها، على الرغم من أنني لا أرى أن الزواج أو الحب في حالتك نتج عنه هذا المعنى السامي..

عندما يتناقش مراد مدافعًا عن فكرة يعتنقها يبدو قبيحًا قاسيًا، تكاد تكرهه.. يشفع له أن له رصيد لا ينقص من الود والمعزة بينكما.. استسلمت لحصاره الشرس بإيماءات مؤيدة لكلامه، فقط لتنهي الحوار.

فليتزوج أو ليحترق احتراقًا؛ لقد أصابك بسهم فولاذي مغموس في عمق سُم الندم، وكأن سربًا من النحل يطنّ في رأسك جرَّاء أسئلته الشيطانية وقناعاته الخاصة، لا سيما استنكاره الأخير، ولا سبيل من مراوغته أو الرد لمجرد الرد بادعاءات أنت تعلم يقينًا أنها محض جدال، فمراد يعلم عنك ما تعلمه عن نفسك، بل ربما يجرؤ على كشفك أمام نفسك بشكوك وريبات لم تجرب قط تمحيصها أو الاعتراف بها.. لقد وضع قدمك على لغم طالما حرصت ألا تطأه.

*****

ربما هو على حق يتناسب مع معيشته، فالحق قد يكون نسبي وخاص، ربما هو كذلك يشبه خالك مجدي أيضًا في حب ذلك النوع من الحرية ومتعة اللامسؤولية، لكن هذا لن يكون عوضًا عمَّا يجنيه المرء من فوائد اجتماعية ونفسية إذا تزوج و اتسم زواجه بالنجاح والاستقرار؛ كيف للرجل أن يعيش بدون امرأة يحبها وتحبه؟! لم يفعلها أبو البشر ليفعلها أبناؤه وأحفاده.

مراد يتفق معك أن المرء لا يستطيع العيش بدون حب، مع ذلك لا يربط الحب بالزواج.. غريب أمره ومحير، لكن شعور الاكتفاء الذي أشار إليه أصابك ببعض الخيبة، فالبحث عن شيء أو معنى ما ناقص لديك يلازمك من أمدٍ بعيد.

تهدأ لتريح قلبك باعتقاد أن حياتك ليست كحياته التي لا تخلو من قصص غرامية متكررة كأنها نمط حياة، في رأيك هذا فشل ومضيعة للوقت، كل مغامرة قد خاضها

قد تركت له ذكرى ودرسًا لن ينساه، ولهذا هو معقد وغير طبيعي، إنما أنت لم تحذُ حذوه في الماضي، فلم تَسِر في الدروب التي سار هو بها لتعلم إن كان على حقٍ فيما يتفلسف به أم لا، والسبيل الوحيد لمعرفة ذلك هو التجربة، وقد مرّ العمر يا ولدي بينما في قلبك شيطان لا يوسوس إلا بحرفين اثنين.. "لم لا؟".

ذات مرة أسرّلك مراد أنه قد أحب فتاة، ودنا معها من السقوط في بئر الزواج كما سمّاه.. قال إنه حينها قد واجه حبه السرمدي بدرع عقيدته الواقي، لكنها كانت غريبة التفكير مثله، ولعل السبب أنهما اشتركا في تعرضهما للألم من قبل، ولم يستطيعا تجاوزه أبدًا، فكانت النهاية أنها قبلت منه الحب الأبدي، ورحلت بعيدًا عنه وهو متقبل لرحيلها، لتظل حبه الأبدي الذي لن تشوبه صراعات التقليديين.

- "لقد كنا يا صديقي كخطّين متوازيين لم يُكتب لنا أن نلتقي، لكننا ومع سطوة هذا القانون الأزلي جازفنا بالحب فتقاربنا إلى حد زلزل هذا القانون ذاته، تلامسنا فانفجرنا مبتعدين بعنف، وحمل كل منا ذكرى صاحبه معه إلى الأبد".

أغاظتك قصته تلك بشدة؛ أنت تبوح له بكل شيء، فلماذا لا يبادلك التميز نفسه ويسمح لك بالغوص في تفاصيل قصته التي لم تنتهِ كيفما تمنيت له، كنت تودّ لو أنك قد أثّرت عليه بالبقاء معها بدلًا من أن يمزق شباك فخها على حد قوله ويأمرها بالهروب.. من هرب فيهما من حبيبه أولًا؟ ومن هذا الذي يهرب من حبٍ سمّاه حقيقيًّا أو سرمديًّا؟! هذا هو الغباء بعينه الذي يجعله يفعل ذلك خشية أن يلتصق به حبه لبقية العمر.

هو حر ليختار، وحر ليترك، وحر ليحيى كما أراد، لكنك لن تكفّ عن محاولات إقناعه باتخاذ هذا القرار خوفًا عليه من وحدته التي يهيم بها يومًا بعد آخر.

لكنّ مراد استطاع بالفعل أن يجعل من وحدته متعة مألوفة، لتصير أسهل و أبسط ما يكون، ولا أحد يعلم حقيقة إن كان سعيدًا أم يتظاهر بذلك!

ينام ليستيقظ فيذهب إلى العمل الذي لا يمكث فيه أكثر من ثلاثة أشهر، فيقرر أن يُغيّره بسبب أو بلا سبب، ولا يندم ولا يحمل همّ أفواهٍ خلفه ليطعمها، ولا زوجة تلومه إن نسي أن يُقبّلها أو يعانقها قبل خروجه إلى العمل، ولمّا يختلف مع مديره ويوبّخه فيتبجح عليه ويتبادلا الإهانات، لن يحكي لأحد فيلومه..

سيتناول إفطاره في أي مطعم صغير، أو على عربة فول تزينها زجاجات زيت يعلم الله صلاحيته للطعام، تتدلى من بينها ورقات ومن أسفل منها أعواد الجرجير المختلف ألوانها ما بين الأصفر والأخضر..

سيحتسي قهوته في أي مقهى ذو عبق شعبي، ويذهب للبحث عن عمل آخر غير الذي تركه منذ ساعات قليلة، ويعود راغبًا أو غير راغبٍ في طعام الغداء، لن يطلب منه أحد مشاركته في اختيار أصناف الطعام كل يوم، ولن يلجأ إلى الكذب أو المجاملات على المائدة، لو تاقت معدته لأكلة ما سيعترف بذلك بالتأكيد، لكنه لن يأكلها في بيته على الأرجح.

الكثير من طقوس الحياة المقدسة لديك لا يدين بها مراد، بل هو كافر بها ويراها تدنس محراب وحدته الطاهر.. كيف له بعد كل ذلك أن يرى حُجة للزواج.

سيلتحم بغرفته الصغيرة المتواضعة غير مبالٍ بمغامرات تدعوه إليها أو أعمال ترغّبه فيها، في كل مرة يرفض بطرق شتى.. "... لنسافر يا مراد نؤدي بعض الأعمال ونتمتع قليلًا.." فيرفض، وتعلم منه بعد ذلك أنه قد سافر وحده.. "...لنعمل معًا يا مراد.." فيتحمس، ثم لا تمر أسابيع قليلة ويتركك في منتصف الطريق بدون سبب وجيه لك، كأنه يقف على قمة ما يرغب فيه ليرنو إلى قمة ما ترغب أنت فيه، والو اقع أن كلًّا منكما على جبل مستقل وحده، فلا يشعر بحقيقة ما يشعر به الآخر.

*****

نهال وهبة

ثرثرة داخل أروقة الشركة المحترمة...

- **انظروا إلى هذه الساحرة فريدة الحسن، تريد أن تنتقم من صنف الرجال أجمع، لقد اختارت أولى ضحاياها لتخرب عليه حياته وبيته.**
- **كلامك عنها يذكرني بفيلم شاهدته من قبل، يحكي عن ساحرة طيبة تم خداعها من جنس البشر باسم الحب، فانقلبت طيبتها شرًّا مستطيرًا، وقررت الانتقام من الجميع.**
- **هل لاحظتم التغيير الكامل في ملابسها وزينتها وطريقتها في الكلام؟ حتى مشيتها لم تكن بمثل هذه الميوعة قبل ذلك.**
- **كلامك صحيح مئة بالمئة، لم تكن من قبل لتظهر هذا القدر من الجمال والثقة.**
- **حقًّا لقد تغيرت كثيرًا هذه الأيام.**
- **من كان يصدق أن المهندس كريم الحاذق المحترم سيقع فريسة لثورتها المندلعة قبالة طلاقها من زوجها السابق ضابط الشرطة ذو النسب العريق.**
- **مؤكد كان زواج مصلحة؛ هذه نتيجة أن الإنسان يتمنى الحصول على كل شيء، تلك عاقبة الطمع.**
- **وأي طمع.. إنها لم تقنع بعد كل ما حدث لها، وتطمع أيضًا في إغراء هذا الشاب الناجح.**
- **لكن كريم زوج مخلص، وكلامكم هذا كله افتراءات عليها..**
- **وهل كون الرجل مخلصًا يحميه من الإغراء أيها الأبله؟!**
- **افتراءات! إنها تتردد على مكتبه في اليوم عشرات المرات، وليس ثمة مشروع واحد من كل مشاريع الشركة يجمعهما.. أقطع ذراعي أنهما سيتزوجان سرًّا عن قريب، ولماذا أقطع ذراعي، فلنتراهن على ذلك.**
- **لا.. لننتظر ولنرى إن كنت ستقطع ذراعك أم لا.**
- **وكيف ستعرفان أنهما تزوجا إن تم هذا سرًّا أيها الملاعين؟**
- **وهل يخفى شيءٌ علينا؟!**

ضحكات مليئة بالشر داخل أروقة الشركة المحترمة...

عادت لتسأل وهي تعبث بالشوكة في بقايا الطعام المتناثرة على طبقها كأنها لم تسمع أو تفهم حرفًا مما قلت:

- كم ستتكلف تلك الأعمال؟

قلت بصبر متنهدًا:

- هذا السؤال لا أستطيع إجابته الآن، علينا القيام أولًا بمعاينة المسكن، ثم رفع القياسات اللازمة، وحيث إنه ليس ثمَّة مسكن بعد فلا يمكن وضع تقديرات لأي تكاليف مالية، شراء المنزل خطوة أولى ثم اختيارك للديكورات والأثاث أيضًا سيحدد بقية التكاليف، وهكذا تتم المقايسة.
- لكن هناك مكاتب تشطيبات عقارية تقدم موازنات مبدئية بتكلفة مقدرة.
- سيدتي، لا أحب أن أبدو مجادلًا، لكنني ببساطة أتخذ خطوات عملية على أرض الو اقع، وفي حالتك الآن لا يوجد و اقع من الأساس، فلا أملك وضع أي تقديرات فضلًا أن يضعها غيري من مكاتب العديد منها متهمًا بالنصب على العملاء.

وأضفت:

- في ظني أنكِ تملكين مبلغًا من المال، وبالطبع المال يفقد قيمته أو ربما يضيع في شؤون أخرى أقل أهمية، و أنا في هذه الحالة أؤيد تفكيرك بجدارة، فالمسكن أهم من كل شيء، وعلينا الإسراع بالحصول عليه أولًا، هل تخميني صحيح؟

سددت نظرة ثابتة في عينيك أربكتك، ثم قالت بإعجاب وهدوء:

- كل تخميناتك صحيحة.. التي قلتها والتي ما زلت مترددًا في قولها.

الابتسامة على وجهك كانت تمثل الثقة والارتباك معًا، وقلت و أنت تلملم ما تبقى في طبقك من قطع اللحم:

- هل أعجبكِ الطعام؟ هذا المطعم يروق لي كثيرًا..

ابتسمت في مكر وقالت بدلال:

- أعجبني بالفعل.. وأشكرك على الغداء.

نظرت كالمسحور في عينيها العسليتين وقلت:

- لا عليكِ.

أكثر ما كان يميز العمل مع نهال في البداية هو أنك قد أتقنت فنون الصبر من خلالها؛ السيدة نهال مترددة في كل قرار توشك أن تتخذه، كأنها ستتزوج مرة أخرى بعد

طلاقها.. كثيرما تخلف كلمتها معك بصورة مخجلة لك، لكنك تتجاوزكل ذلك بصبرمن أجل وضعها المحرج وبكائها الذي لا يتوقف، و أيضًا من أجل رغبتها في القرب منك المتزايدة لقاءً بعد لقاء، لقد اطمأنت لك لأنك متزوج ولديك طفلة، وهذا أفقدها الخوف منك لسبب لا تعرفه، أو عرفته وغضضت الطرف عنه، فأنت ترى أنك زميلها في الشركة وكفى، لكنك لست كغيرهم من الزملاء الانتهازيين، اللذين رأت في أعينهم جميعًا رغبة سال لها لعابهم في الظفر بها بوصفها مطلقة.

لقد فهمت اليوم كيف يتعامل مجتمع جاهل مع امرأة مطلقة؛ في البداية تحيط بها الظنون السيئة وحسب، وينسج أقبح الناسجون عيوبًا لها على منوال الإثم، ليجعلوا من صنيعهم علة لفشلها في الزواج، وهي بينهم تشعر بعارٍ لم تقترف حياله كبيرة ولا صغيرة من الذنوب.. لقد تزوجت، ثم أنجبت، ثم طُلقت، لتجد نفسها محاطة بقطيع من الذئاب المرتدية ربطات عنق زاهية الألوان، من بينهم زملائها في الشركة، لكن أزياءهم الأنيقة لا تتناسب مع البريق المخيف المنبعث من بروز أنيابهم، ما أحمقهم إذا أخفقوا في إخفائها! وما أفضحهم إذا سال منها اللُّعاب النجس كلما رأوها تروح وتجيء أمامهم!

انبعثت في صدرها نشوة متكبرة.. هؤلاء ينتمون لرتبة الكائن الذي ادعى حبها نفسه، و أنه مولعٌ بها، نعم هو نوع الحيوان الماكر نفسه الذي أرادها لفراشه دون بقية الأماكن في حياته.. ستنال منهم، ستكوي قلوبهم بنيران شهوتهم وتحرق كرامتهم بسياط الصد، ستجعلهم يتمنون لو أن تلقي عليهم السلام وحسب، ثم تتعالى عليهم فلا تلقيه ولا ترده، لكن لا بد لهم أولًا من أن يذوقوا شيئًا من هذا الجمال لتزداد حسرتهم فيما بعد عما سيكتب عليهم الحرمان منه، فالذي لم يرَ الجنة ولو من بعيد لن يتقطع قلبه على منعه من دخلوها.

كثيرٌ مما سمّوا رجالًا ظهروا فقط في التوّ ليعرضوا عليها أي شيء وكل شيء دون مقابل حالي، كلهم لطفاء يرتدون أفضل الثياب ليواروا سوآتهم الذئبية، وكان الصدّ نصيبهم جميعًا إلا ذئبًا وحيدًا بدا أنه مستأنس ويمكن أن تربت على مؤخرة رأسه وتلاطفه.

ما جدوى الثياب حين تشعر بالعري أمام مجتمع أعور! فلتنزع الكثير من ثيابها ولتبقي القليل لتستبيح كشف حقائقهم المريضة، ولتتحرر من قيود وهمية كبّلها بها زوج ذو ترفٍ منحه حق الطغيان عليها وعلى ولدها الوحيد.

تعبت، وبكت، وضربت رأسها بالحائط الأسمنتي، ولولا خشيتها الموت لأقبلت عليه، حتى ظهر رجل بجوارها يريد لها شيئًا يسيرًا من الأمان.. وفي المو اقف تنكشف بعض الأخلاق، وقد يمر موقفك معها كاللاشيء على سواها، لكنه مر على قلبها واجتذبه وضمه إليك.

حدث كل ذلك عندما وجهت كلماتك للمهندس الأجنبي دانتي قائلًا: "لا تقلق يا سيدي بشأن السيدة نهال، فسوف أعوّضها عما سيفوتها".. كم كنت جميلًا! كم كنت رجلًا لطالما تمنته! رأتك حينها وسيمًا، ذو عقل لامع، جادًّا.. رأتك شهمًا غنيًّا بالمسؤولية والمبادرة، شخصًا ذكيًّا يغضب أو غاضبًا يتذاكى، حتى وإن كنت ذئبًا مثل الجميع، فأنت الذئب الوحيد الذي يمكنها استئناسه.

نهال في عمرك نفسه تقريبًا، لكنها لم تحظَ بحياة اجتماعية ناجحة، وتعقبتها بلا رحمة لعنة هذا الفشل غير المقصود، وعن غير ترتيب أيضًا نتج عن الزواج "آدم".. هذا الطفل داعب أعتاب الثالثة من عمره ليجده بين أحضان جده وجدته بدلًا من أمه و أبيه.

زوجها السابق ضابط شرطة في أمن المقر الجامعي، حيث كانت حينها ما زالت تدرس الهندسة.. الزوج ذو النسب العريق لم يُبطِن أي نية في طلبه الزواج من الطالبة المتألقة والمتأنقة نهال وهبه غير أنها نالت إعجابه بشدة؛ هذا الجسد المتناسق اللافت للنظر يمر أمام ناظريه كل يوم ليوقد في صدره نيران الشوق والرغبة.

نهال تلعب التنس منذ طفولتها وحتى التحقت بالدراسة الجامعية، شاركت في الدورات الرياضية للجامعات كلاعبة تنس، وفازت بسهولة في كل البطولات التي اشتركت بها، وعلى الرغم من تميزها الرياضي فإنها كانت وحيدة إلى حد أن يظن من يراها عن بعد أنها منطوية أو منعزلة.

تلعب التنس بداخل ملعب كبير بلا رفيق، وحيدة تواجه الحياة بدون مساعد أو مدرب أو مشجعين، تضرب بقوة حتى تضمن ألا تأتيها ضربة قاتلة تتسبب في خسارتها.. الهواة في كل مجال يختلفوا عن المحترفين، وهي لم تحصل على قدرٍ مشجع من الشهرة أو الأصدقاء الحقيقيين، حتى في لحظات احتفالها بالفوز ما كانت لتجد الكثير، لكن عيناها دومًا كانت تصطدم به قريبًا منها، يُصفّق لها في حرارة حال فوزها أو خسارتها للنقاط.. أدركت أنه لا يفهم شيئًا عن اللعبة ولا يتابعها لإعجابه بمهارتها، هو يراها فتاته وفاتنته، المرتدية تنورة قصيرة تكشف كثيرًا من أسباب سعادته كلما تحركت برشاقة يُمنة ويُسرة لتضرب الكرة، هذا الرجل لا يدرك أنها تطيح بهموم عزلتها وهي

تتحرك بعنف وتضرب الكرة، وأنها لا تريد غير ذلك من هذه اللعبة، لكنه أصرّ أن يستحوذ على تلك اللعبة.

لم ولن يستمر زواج بغير نية سليمة في بدايته، وإن حدث فلا يحدث إلا بكثير من التضحيات المرهقة، على الأقل من أحدهما في أسوأ الظروف، أو كلاهما في أفضلها.

لقد ظننت أن الإعجاب وحده حب، ثم اعتقدت أن الإعجاب مع الجنس الشره حب أكبر، لكن هذا الحب - إن كان حبًّا - افتقد معاني الحب الأسمى؛ أين الأمان، الاهتمام، الإحساس، التضحي،. الحضور، الاحترام والتقدير؟ أين الراحة، التفاهم، العطاء والإخلاص؟ هذا هو الحب.. فأين الحب؟

في صباح يوم عادي كانت زوجة تطالب بحقوقها من العناية والاهتمام ومشاركة الحياة والمسؤوليات، وقد طالبت بهذا الحق بعد أن جاوز ابنهما آدم عامه الأول.

في المساء من اليوم نفسه وجدت نفسها - باتفاقٍ بين طرف يتمثل في زوجها، ولا شيء يتمثل فيها هي - امرأة مطلقة.

تنازلت عن كل شيء بهدوء عدا صغيرها الذي لم يهتم له الزوج كثيرًا ولا قليلًا، فصار مطلِقًا لزوجته وولده غير مكترثٍ لأي شيء سوى لشقته الفاخرة، وتجنبًا للدعاوى القضائية وجلسات محكمة الأسرة التي لا طائل منها، أبرم معها اتفاقًا مكتوبًا أمام والدها ومحاميها؛ سيدفع مبلغًا كبيرًا يُمكّنها من شراء شقة أخرى، بالإضافة إلى مبلغ مرسل شهريًّا للطفل بائس الحظ.

سريعًا كالزمن عادت لجذور بيتها الأصلي تجُر بيدٍ حسرات جمعتها بداخل حقيبة عملاقة، وباليد الأخرى تقبض على يد مستقبلها المبهم في صورة طفل صغير، ودموعها تتساقط على يديهما معًا، ثم تركته في حضن أمها لتلتحم هي بغرفتها القديمة، حيث عزلتها التي اعتقدت أنها اختفت للأبد.

*****

معظم لقاءاتك معها كانت تتم في مقهى صغير راقٍ ليس بعيدًا عن مقر الشركة، فلما ازداد ترددكما عليها فضّلت نهال أن تبتعدا عن هذا النطاق.. استمعت لقصتها بالكامل خلال هذه المقابلات الحية، وقد سرّك أنها صارت تعدّك صديقها الوحيد والمقرب.

- هل ستصدقيني إذا أخبرتك أني كنت على يقين من كل ما ذكرتِ؟

نظرت لك بتعجب قائلة:

- على يقينٍ من ماذا تحديدًا؟؟! كنت تعتقد أني امرأة مطلقة ولديَّ طفل له مسؤوليات دراسية مقبلة، وأريد توفير حياة أفضل لكلانا؟!
- ليس بكل هذه التفاصيل، لكن سمات المشكلات الأسرية كانت واضحة في أفعالك، وإلا لماذا تبحث امرأة في مثل سنّك عن شقة بمواصفات معينة وتتعجل في ذلك؟

قالت بملل من ملاحظاتك التي لا تنتهي سواء أكانت صائبة أم لا:

- حسنًا حسنًا.. فلنعد إلى موضوعنا الأصلي.. أنا لم يعجبني أي شقة مما عرضتهم عليّ.

أحيانًا ينفد صبرك على تلك المرأة المثيرة للإعجاب والشفقة معًا، لكن شيئًا ما يحثك على أن ترفق بها أكثر، و أنت تأمل أن ترفق هي بك وسط بحورها المتقلبة الهائجة تلك.

مرت ثلاثة أسابيع من البحث المضني في أماكن مختلفة، كل يوم تقريبًا فور انتهاء العمل تصحبها بسيارتك لتبدءا رحلة البحث والمعاينة لأكثر من شقة في أكثر من حي أو مكان.. لم تكن تتذمر من كل هذا، ما كان يجعل رأسك يغلي هو أنها تفوضك للاتفاق مع الآخرين، ثم تغير رأيها لأي سبب لا تراه أنت مقنعًا أو منطقيًّا.

ثلاثة أسابيع كانت معك في كل الأوقات منذ الصباح وحتى المساء.. ناقشتها وجادلتك، و افترقت وجهات نظريكما حول مو اقع البنايات، أو مدى اتساع شقة عن أخرى، وكيف أن هذه المنطقة خدماتها أكثر و أفضل لكن مالك الشقة يشعرها بالريب والقشعريرة.. كنت تقول في نفسك: "سبحان الله! وهل الرجل طلب يدكِ للزواج؟".

شاهدت معها كل أنواع الشقق الممكنة تقريبًا، حتى لم يعد شيء آخر يختلف عما مضى، وترجو ألا يضيع كل هذا الجهد سُدى.. ثم خطرت لك فكرة سديدة بالنسبة إلى سيدة مترددة، مزاجية، صعبة الإقناع مثلها...

مررت بالسيارة في الشارع الذي تسكن فيه، أشرت إلى بناية هناك وقلت لها:

- بالمناسبة هذه الشرفة البنية ذات النباتات المزهرة هي شرفة بيتي.

نظرت إليها قائلة:

- جميلة حقًّا.. البناية والشرفة والنباتات.. صدقني يا كريم هذا ما أحلم بامتلاكه.. لكن أسرع قليلًا كي لا تلمحنا زوجتك.
- ليست بالبيت، إنها تزور والدها المريض.

قالت كأنها تقتنص فرصة لن تتراءى لها ثانية:

- فلتستضفني إذن.. أريد رؤية شقتك من الداخل وما فيها من ديكورات..

نظرت إليها ولم تُجب.. قالت مصرّة:

- أنا جادة.. أريد أن أشرب القهوة من يدك وأطالع شيئًا و اقعيًّا من أعمالك.. ألست المنفذ لديكور شقتك؟
- بالطبع، لكن.. أعدك أن نفعل مرةً أخرى.. لدي موعد بالفعل بعد قليل مع مراد صديقي، أعتقد أن الوقت لن يسمح..
- حسنًا حسنًا.. أريد أن أذهب إلى البيت، كفانا بحثًا اليوم لقد تعبت.

ماذا كانت تتوقع؟ إن استضافتها في بيتك وحدكما لهي مخاطرة من العيار الثقيل، كما أنك لا تحب أن تكون معها في مكان مغلق أبدًا، هي فاتنة و أنت معجب بها ولا شك؛ لن تضع وقودك بجانب نيران جمالها، ستحترق ولا بد.

قلت وقد أدركت أنها تضايقت من تصرفك:

- ما رأيك أن تقومين بتحويل المال للدولار؟

نظرت إليك نظرة استهجان يغلفها الغيظ وسألت:

- ولماذا؟
- أعتقد أن مسألة شراؤكِ لشقة ستستغرق وقتًا أكبر من اللازم، والأوضاع الاقتصادية الحالية لا تُبشّر بخير.. لو تعلمين فإن خبراء الاقتصاد تنبؤوا بتعويم العملة المحلية، وإذا حدث ذلك ستقل قيمة المبلغ الذي خصصتيه للسكن كثيرًا، بينما من الممكن أن تحتفظي بقيمته إذا حولتيه إلى الدولار.

تحولت من مغتاظة إلى يائسة في لحظة وقالت:

- لكن أنا في حاجة للشقة بأسرع ما يمكن يا كريم.. يحزنني أنك لا تفهمني بعد كل ما أخبرتك به.. المسألة لا تحتمل تأجيلات أو تحويلات، الوضع يزداد صعوبة يومًا بعد يوم، أنا أعيش تحت رحمة أبي وأمي، أريد أن أستقل بنفسي وآدم، والطريق طويل جدًّا من بيتهما للعمل، المفروض أنك على علم بكل ذلك!

قلت و أنت تحرص على أن يخرج كلامك صادقًا وواضحًا لا يحتمل معنيان اثنان:

- صدقيني هذا من أجل مصلحتك؛ أنتِ بطريقتك هذه ستشترين الشقة بعد عام، أنتِ مترددة ولا تثبتين على قرار، ولا يثير إعجابك شيء يا نهال.

احمرّ وجهها غضبًا وقالت بحنق:

- أنت تتهمني بكل هذا يا كريم! لم يجبرك أحد على مساعدتي لتقوم بإذلالي الآن والمنّ عليّ!

صحت وقد اتسعت حدقة عينك من الدهشة:

- أنا أمِنُّ عليكِ! أنا أتكلم بو اقعية...
- اصمت بو اقعيتك تلك وتحليلاتك، لا أريد منك شيئًا، أنزلني حالًا..

- اهدئي..

صرخت كالمجانين:

- قلت توقف هنا حالًا.

فتوقفت بالسيارة جانبًا و أنت غاضب من طريقتها، فانصرفت سريعًا وهي تهم بالبكاء، و أنت متسع حدقة العين، لا تدري أتسرع خلفها أم تتركها وشأنها في لحظات غضبها التي لا ترى لها أي دافع.. هي غبية على الأرجح، ما الذي قلته لها يستحق ما فعلته الآن؟! لعلها ظنت أنك تريد أن تتملص من مساعدتها أو أنك تتهكم عليها، وربما رفضك لصعودها لشقتك وحدكما قد أثار حنقها.. لا تدري.

*****

- أقول إنها جذابة وجميلة للغاية، وطليقها هذا شديد الغباء.. وربما هي صعبة المراس، أعترف أنني كدت مرارًا أن أفقد صبري تجاه أسلوبها المستفز وتصرفاتها الحمقاء.

أضفت لمراد مستكملًا له الحديث عن نهال:

- لك أن تتخيل أنها جعلتني أبرم اتفاقًا مع صاحب العقار، وبالفعل دفعنا "عربونًا"، و أنا من قمت بالدفع من مالي الخاص، وحين أتى وقت توقيع العقد أطاحت بكل ما رتبناه، ورفضت الشقة بعد ما كانت ستطير من الفرح بها.. هكذا بدون أسباب.. سوّأت صورتي أمام الرجل والسمسار.

قال مراد محاولًا فهم تصرفاتها:

- إنها مترددة على ما يبدو، وغير واثقة في قراراتها.. اسمع، عليك إقناعها بتحويل كل ما تملك من مال لعملة أكثر ثباتًا.. لقد سمعت من أحد الخبراء توقعات اقتصادية مضرة للجميع على وشك الحدوث، إنهم يدرسون قرار تعويم الجنيه، وهذا ينذر بمصيبة.

قلت في مرح:

- والله يا صديقي أنت فكرت مثلما فكرت فيه تمامًا.. ما رأيك أن أدعوك لتتعرف عليها، ونتحدث حول ذلك الأمر لتقنعها به؟
- لا بأس.

*****

في البيت شبَّ خلاف جديد بسبب هدير...

اتصلت الفتاة بك في وقتٍ متأخر من الليل، كان ذلك الاتصال لضرورة الموقف، إلا أن هذا لم يشفع لها عند علا، فهاجت وماجت في حدة واعتراض، وفشلت كل

محاولاتك في تهدأتها.. هذه المرة لم تبرر كثيرًا؛ ما كان ينبغي لك أن ترد على هدير في هذه الساعة المتأخرة.. أخذت تلوم نفسها بشدة على تنازلاتها التي أودت بها إلى هذا الوضع، فلما طفح بك الكيل ويئست أن تجعلها تصغى أو تغفر لك قررت تركها قليلًا وخرجت من البيت، وركبت سيارتك بلا نية حقيقية في التحرك، لكنك ستبقى بها حتى تهدأ هي أو تنام بجوار سارة كما تفعل كلما انتهت زوبعة غضبها.

بينما تعالج مقبض الباب رن جرس الهاتف الأرضي.. عادة لا يتصل أحد على هذا الهاتف سوى أمك أو أمها.. فتباطأت قليلًا متعمدًا لتسمع؛ عساها تنشغل عنك بخبر ما.. رفعت علا سماعة الهاتف إلى أذنها وهي ترجع بأصابع يدها الأخرى خصلات شعرها التي تشعثت من الانفعال.. تحولت ملامح وجهها في أقل من ثانية إلى الهلع، وصرخت: "أمي.. ماذا تقولين؟ لاااااااا"!

أدركت أن الأمر جلل، لقد حدث مكروه ما لأبيها، الرجل مريض بعدة أمراض مزمنة، وقد تدهورت أحواله في الأيام الأخيرة.

سقطت علا أرضًا منهارة.. جريت نحوها مرعوبًا عليها، وحمدت الله على عدم استيقاظ سارة على صوت صرختها قبل أن تتهاوى.. لقد تأكد لك قبل التقاط سماعة الهاتف خبر موت أبيها من وجهها الأصفر.

*****

موت مفاجئ

تمكنت بصعوبة من مؤازرة محمود أخو علا، فلحقت به قبل دفن أبيه بلحظات و أنت تلهث وصدرك يكاد ينخلع، لا تدري أعلم بما حدث لعلا أم لا وليس الوقت ولا المكان مناسبين لأي كلام سوى ما يتردد على ألسنة المشيعين من "لا إله إلا الله، و إنّا لله و إنّا إليه راجعون"، و أنت تردد معهم وسط غيمة من التراب الثائر تغمر المقابر من أثر خطوات الناس، وتغمر أنفك ورئتيك.

زاحمت الملتفين حول الصندوق الخشبي لتضع يدك برفق على كتف محمود الذي همّ بالبكاء فوررؤيتك، لكن منعه أنّ أقسى لحظات الحياة ونهايتها قد حانت، وتم رفع الغطاء عن الجثمان الممدد في كفنه الأبيض بداخله.. تماسك محمود أكثروأشار إليك لتساعد في حمل أبيه، وتعاون بعض الأقارب معكما.

كيف سيكون حالك يا علا عندما تفيقين من غيبوبتك وتدركين أنكِ ما ودعتِ أباك بقبلة على الجبين؟ لعله انتظر منها قبلة وداع أو عناق صامت يليه بكاء صارخ، لعله انتظرها لتشيّعه إلى قبره المظلم... كيف حاله وحالها بعد ما حال بينهما الموت بلا وداع أو نظرة أخيرة؟ ومن سيتولى إخبارها غيرك عندما تفيق؟ لن تدع تلك المهمة لغيرك مهما كان، إنّ في الحياة للحظات تقسم القلب وليس الظهر.

كنت قد تركت جيهان مع علا مصاحبة إياها في المستشفى بعد أن باءت كل محاولاتك لإفاقتها بالفشل.. وهذا غير طبيعي في حالة إغماءة عادية حدثت إثر صدمة الخبر الصاعق هذا.. كما تركت سارة مع أمك لتعتني بها.. بات الوضع طارئًا في كل البيوت الآن.

بعد غلق المدفن ارتفع بكاء أم علا بشدة ونادت باسمها وباسم أبيها، حاولت ضمّها وتهدأتها لكنها ما استكانت لمحاولاتك وفقدت سيطرتها على نفسها، وظلت تصرخ كأن علا ماتت هي الأخرى: "علا.. ابنتي تعالي لأبيكِ يا ضي عين أبيكِ".. أدخلها محمود السيارة بعد جهد، وتفرق الجمع بعد الدعاء وقراءة القرآن، واصطحبت أباك في سيارتك بعد أن صادفته في قلب الحدث، وأخبرك بأنه بلغ محمود بحالة علا حتى لا يستغربون عدم مجيئها في مصيبة مثل هذه، مؤكد أن محمود سيجد طريقة يخبر بها أمه بحالة علا.

سألك والدك عنها وهو بداخل السيارة ليطمئن على حالها:

- وحتى الآن يا كريم لم تتحسن؟

- بل لم تفق أصلًا يا أبي.. ربما لن أستطيع حضور العزاء ليلًا، أرجوك كن بدلًا مني هناك.
- لا تفارقها حتى تطمئن عليها يا بني وسأقوم بفعل ما يلزم.

أوصلته إلى البيت وسألته قبل أن يترجل من السيارة عن خالك مجدي، إن كان علم بأمر وفاة حماك أم لم يعلمه أحد، فهو يغضب إذا لم يخبره أحد عن هذه الأحداث الصعبة.. فقال لك:

- لقد بلغت أمك وستخبره ولعله على علم الآن.. ألن تأتي لتطمئن على سارة؟
- أهي بخير مع جدتها؟
- نعم يا بني هي بخير.
- جيد.. سأسرع أنا إلى أمها.. لقد اتصلت جيهان أكثر من مرة ولم أتمكن من الرد عليها.

*****

وقفت مع جيهان والطبيب المكلف بمتابعة حالة علا على مقربة من غرفتها التي التي استفاقت فيها منذ قليل، وكنت قد علمت ذلك من اتصالك بجيهان أثناء الطريق إليهما.

حثثت الطبيب على أن يبسّط ما شرحه لجيهان حتى تعرف أبعاد ما حدث لعلا، فقلت:

- دكتور أرجوك أنا لا أفهم كلمة مما أخبرتني به أختي.. لماذا يجب حجز زوجتي لأيام أخرى تحت المر اقبة؟

قال الطبيب وهو يشير إلى بعض التقارير الطبية في يده:

- أعتقد أن زوجتك بحاجة لأن تُعرض على طبيب نفسي، لكن هذا ليس بالأهمية القصوى الآن.. الأهم هو ما سأقوم به من خلال تخصصي، وقد أمرتهم بإجراء أشعة رنين مغناطيسي، و أيضًا إجراء بزل قَطني لسحب عينة من السائل الشوكي الذي يحيط بالدماغ لفحصها، ثم بعد ذلك سأصارحك بما استنتجته.

كان حاسمًا ويتكلم بثقة وسرعة، لقد شاب شعره كله في هذه المهنة لكنه لم يفقده لحسن حظه، ثبت بإصبعه عويناته التي تجاهد السقوط من على حافة أنفه واستطرد:

- لقد أصيبت بإغماءة طويلة كما أخبرتهم أنت هنا أمس، ولما استفاقت منذ ساعة تقريبًا كانت تعاني من ضبابية في الرؤية وتنميل في الجبهة على حد وصفها، بالإضافة إلى أنها كانت شبه عاجزة عن تحريك يدها اليمنى.. وكل هذه الأعراض تدفعني للشك في تشخيصٍ ما، لكن لا بد من التثبت أولًا، وسيتم هذا من خلال إجراء تلك الفحوصات التي أشرت إليها سابقًا.

سكت كأنه انتهى من الشرح ثم أضاف سريعًا:

- لكن أنت أكدت لي أنه لم يسبق أن حدث لها مثل هذه الأعراض من قبل.. صحيح؟

تنفست بعمق، ماذا لو حدث ذلك من قبل أن تتزوجها، لن تعرف ذلك إلا من أمها.. أخبرته أنك ستعيد التأكد من ذلك بسؤال والدتها، فهي لم تُخلق بجوارك.

تلقيت مئات المكالمات الهاتفية دون رد، وأوشك هاتفك أن يتوقف لحاجة بطاريته للشحن.. ظهر مراد بالمستشفى بعد انتهاء الطبيب من كلامه، عزّاك في حماك، فسلمته هاتفك ليجيب عن ما يأتي من اتصالات، أخذه عنك وبدأ بالفعل في الرد على المكالمات التي لا تنتهي، وحين انتهائه من مكالمة أحد زملائك في العمل دَوت نغمة الهاتف من جديد..

كانت مكالمة من والدك هذه المرة.. اقترب مراد في اتجاهك حيث تقف مع جيهان تتحدثا، فتلقى مراد المكالمة وشحب وجهه رغم سمرته اللامعة قبل أن يقول مرحبًا، نظر إليك والذعر والتردد يملآن عيونه، وقال برعشة تقود نبرة صوته:

- إنه.. إنه عمي شوقي.

أخذت الهاتف ووضعته على أذنك بسرعة وباهتمام لتسمع منه الآتي: "يا كريم، أقول لك إن خالك مجدي تعرض لحادث، وأمك ترتدي ثيابها وسوف نسافر له الآن، سنكون في مستشفى المركز، يقولون إن حالته خطيرة وطارئة يا بني.. لقد اصطدمت سيارته بشاحنة نقل عملاقة...".

صوت أبيك المستسلم، صراخ أمك من خلف سماعة الهاتف وهي تردد: "لا تخبره الآن، لا تخبره الآن".. هذا التحذير لا يخص الحادث بالتأكيد مهما كان خطيرًا، الخبر ناقص، وما ينقصه مفزع لك، مفزع لأمك كذلك لكنها لا تريد أن تتلقى الصدمات فوق رأسك تِباعًا، وهذا ما قصدته بقولها "لا تخبره".

*****

لأول مرة لا تكون حذرًا حال قيادتك، كنت كالمجنون الغاضب، تجاوزت جميع السيارات على الطريق البطيء والسريع أيضًا، تلقيت السباب واللعنات ولم تلقِ لذلك بالًا.. ملأت عويناتك دمعات الهلع؛ لن تسامح نفسك على إخباره بوفاة حماك أبدًا، هذا هو سبب مجيئه سريعًا لك، وهذا هو سبب الحادث الخطير الذي حدث له، وهذا هو سبب... لا لن تتفوه بها! خالك بخير وسيخرج سالمًا من المستشفى.. كنت تردد طول الطريق: "يا إلهي، أرجوك لا تمتحني في خالي الحبيب".

*****

اختلط ماء الغُسل، بماء العين، بالعرق المتساقط، بالدماء التي لطخت معظم أجزاء جسده..

أصررت على إخراجه من المستشفى بعد ما أكد الأطباء فراقه للحياة إثر الحادث الشنيع.. تظل الكلمة العليا لأهل الميت على الأطباء في القرية هي أن اتركوا لنا ميتنا نكرمه بتغسيله وتكفينه في بيته تهيئة لجنازته ودفنه.

المشاهد تمر سريعة و أنت داخلها وخارجها في آن، كأنك تشاهد فيلمًا تسجيليًّا عنك، وهذه هي أقسى لحظات الفيلم.

الظلام يهيمن على كل شيء.. سطوته شنيعة على كل مصادر الضوء في تلك الليلة.. أشاروا عليك بتعجيل دفنه في مقابر القرية الليلة إكرامًا له، كِدت تعارضهم؛ فأنت تعلم خوف خالك من الظلام.

تجادلهم: "أليس الصبح بقريب؟"، الجميع متحدون على كلمة إكرام الميت بتسريع دفنه.. حتى في رهبة الليل.

يغادر العقل الدماغ طائرًا مهاجرًا، يترك الفراغ المشتت حاكمًا لما خلفه.. تبدو ثابتًا كوتد غُرس لنصفه أرضًا بينما يتحكم فيك الصدع الذي تركه لك خالك بفراقه للدنيا، الحزن والصمت يطبقان على صدرك مثل جاثومان.. حثوت التراب على الرجل الذي تدين له بكثير من العطف، والحنان، والتربية.. بقلب لم يجزع بقضاء ربه تضع مثلك الأعلى بيديك في باطن الأرض القاسية الخشنة، وتغلق عليه بابًا حديديًّا أخضر اللون نهارًا، أسود مخيف في الليل، يعبر من خلاله بروحه إلى حياة أخرى أفضل.

كسر بفاجعة رحيله قلبك المهترئ لتوّه، وأشعل بلوعة الفراق الشيب في رأسك و أيامك القادمة.

ببساطة تدعو للسخرية انتهت حياته.. يا لسخافة الحياة وبؤسها! تكاد لا تصدق ما حدث.. تكلم نفسك أثناء قيادتك عائدًا من قريتك، تدعو له وتتساقط الدموع من عينيك بغير ما يحبسها، وتقل قدرتك على الرؤية أكثر فأكثر حتى تصير معدومة.

الطريق، والأشجار على جانبيه، والأضواء الليلية، والسماء الحالكة السواد.. كلهم امتزجوا معًا كلوحة باهتة رسمت بفرشاة سريعة الحركة.. لا يتضح فيها معلم.

اضطررت إلى التوقف يمينًا على جانب الطريق خشية التعرض لحادث.. و انتظرت قليلاً حتى هدأت روحك واستطعت التنفس بعمق مريح.

*****

الجميع بحاجة إليك الآن..

علا تحت المر اقبة في المستشفى و أنت ما زلت لا تفهم سبب ما أصابها بوضوح، سارة مع جيهان بالمستشفى بعد أن تركتها جدتها لها هناك، ولم يلحقا بك مع ذلك؛ إذ غادرت بسرعة وبلا تفكير في أحد.. كان الخبر كالمسخ الذي يلاحقك وتريد الفرار منه إلى التثبت من أنه ليس بمسخ حقيقي، وما هو سوى أمر عارض، لكنك واجهته عندما تثبت من الحقيقة المفزعة.

الآن جيهان في المستشفى تر افق علا ومعهما مراد، لن يتركهما مراد إلا عندما تصل إليهم؛ هو يعرف ما ينبغي فعله في تلك المو اقف.

تركت بالبلدة أمك ثكلى و أباك معها يستقبلون الأهل والأقارب للتعزية في داركم بالقرية، لقد كان خالك على صلة دائمة بهم جميعًا، والجميع أيضًا حزنوا على فقده.

وصلت بعد ساعة ودقائق معدودة أمام بو ابة المستشفى، فاستقبلك مراد بعينين منتفختين.. احتضنك وقال بهدوء:

- إنها ليلة قاسية وحزينة يا صديقي.. تحلَّ بالصبر.

وعانقك مربتًا على كتفك وظهرك الذي حمل ما لا يطيق حمله، يريد أن ينقل إلى دمائك غذاءً من الدعم والمساندة.

يظل الرجل قويًا جلدًا حتى يقترب منه من يشعره بأنه تحمل فوق ما يستطيع، فيبكي حينها بكاءً مريرًا طويلًا.. لولا عناق صديقك ما كانت انهمرت دموعك كالشلال، وما ارتفع نحيبك، وما بدا ضعفك المكتوم بغير انتباه منك، تلك اللحظات التي تشفق فيها على حالك فلا تملك سوى البكاء بين ذراعي أحدهم.

كنت منهكًا إلى الحد الذي لن تقاوم السقوط فيه لوقت أطول من ذلك، كنت بحاجة إلى النوم ولو قليل، تستعيد قواك وتهدأ من اضطرابات الحزن والصدمات والقيادة الموترة، ولتفكر أيضًا فيما ستفعله غدًا.

أصرّ مراد عليك بالرحيل إلى بيت والدك حيث جيهان وسارة هناك الآن، ينالان قسطًا من الراحة أيضًا.

- اذهب ونم ساعتان وتعالى.. محمود معها الآن وهي نائمة لا تقلق.. لقد اتصلت به جيهان ولم تتركها إلا عندما أتى.. و أنا ها هنا لن أرحل حتى أراك في الصباح.

لم يتبقَّ لك أي جهد لتجادله فيما يفعله من أجلكم، أومأت برأسك باستسلام واستدرت لتذهب، ثم توجهت إليه مرة أخرى وقلت:

- أعذرني يا مراد.. هل توصلني إلى البيت بسيارتك، فأنا لا أرى أمامي.
- طبعًا.. آسف يا صديقي أنني لم أعرض عليك ذلك فأنا فاقد للتركيز قليلًا بسبب قلقي عليكم.

أخرج مفاتيح سيارته من جيبه وقال:

- هيا بنا.

ما إن وصلت إلى بيتك وصعد بك مراد إلى شقتك حتى ارتميت على السرير بوجهك.. خلع عنك حذاؤك ونظاراتك، وقام بتشغيل مكيف الهواء على درجة متوسطة، وقبل أن يغلق باب الغرفة بهدوء خارجًا منها، كنت تقول بصوت خفيض: "لن أنسى لك هذه الليلة أبدًا يا مراد".

استلقى مراد لدقائق على كرسي بالصالة ممددًا رجليه ليرتاح، يودّ لو أكمل الليلة على هذه الحال، لكن محمود وحده الآن مع علا ولربما تحتاج إلى أدوية أو مستلزمات طبية، فعليه أن يتحرك لهما سريعًا.. همّ بالوقوف فدق جرس الباب، تعجب في البداية وتسمّر للحظات، من سيأتي الآن يا ترى؟ عليه أن يفتح سريعًا قبل أن يتسبب هذا الحاضر الغريب في إيقاظك.. هرعَ إلى الباب، ونظر من عينه السحرية ليرى فتاة ذات شعر شديد السواد، أسود من ملابسها السوداء التي ترتديها، لعلها إحدى قريباتك جاءت لتأدية واجب العزاء!

فتح الباب برفق وحِرص، ووقف صامدًا أمامها وقال بتردد:

- أهلًا بكِ..

ثم سكت ولم يدرِ ماذا يقول؟ ينتظر أن تفسر هي قدومها إلى بيت صديقه في هذه الساعة، أو تعرّف بنفسها على الأقل.. فقالت:

- أعتذر عن قدومي بغير موعد وفي هذه الساعة المتأخرة، لقد علمت بوفاة خال كريم وحماه أيضًا.. صدمتان في بيت واحد وفي يوم واحد، هذا كثير، أليس كذلك؟
- نعم بالتأكيد.
- أيضًا حالة زوجته الطارئة بالمستشفى.. لقد كنت هناك منذ قليل وأخبرني أخوها أنه رآك من النافذة تصطحب كريم بسيارتك ويبدو عليه الإعياء الشديد.. لقد حاولت الاتصال به كثيرًا حتى نفدت بطارية هاتفه على ما أظن.. أنت إذن مراد.

أدرك مراد أنها نهال، وصفها كان كما أخبرته، كما أنها لا تبدو إحدى قريباتك من خلال حديثها عنكم، إذن هي صديقة تعرف عنك أكثر من اللازم.. حدسه يقسم له أنها هي نهال.

أجابها وهو يقاوم رغبة ملحّة في طرح السؤال نفسه عليها:

- نعم أنا مراد صديقه.. أتعبتِ نفسك بالقدوم في الليل هكذا.
- أنت لا تفهم مدى أهمية كريم عندي.
- بالطبع أتفهم ذلك، لقد ذكركِ كريم في أحاديثنا أكثر من مرة.

قالت بابتسامة ودهشة مصطنعتين:

- حقًّا.. أخبرني ماذا قال أرجوك؟

قال مراد وهو يفسح لها طريقًا للداخل:

- ليس هكذا على الباب، تفضلي بالدخول لتستريحي.

لم تتردد نهال، وكأن الفرصة قد حانت لتفعل ما لا تتمكن من فعله من قبل.. ابتسمت وتقدمت بثقة حتى تخطت مراد الذي ما زال و اقفًا ممسكًا بمقبض الباب، فقال لها من خلفها:

- لكم كنت متشوقًا إلى رؤيتكِ يا آنسة هدير من كثرة ما حكى لي كريم عنكِ.

تجمدت نهال لمّا سمعت مراد يناديها "آنسة هدير"، كانت نظرتها المستقيمة الحادة مرعبة، تعتصر كل محتويات ذاكرتها باحثة عن صاحبة اسم كهذا فلم تجده، هذه بطلة لم تُروَ قصتها بعد من جانبك.. نظرت إليه بجانب عينها اليسرى كأنها تستنكر فعلته، ونظر لها مراد وهو يلوي عنقه كأنه يتحداها؛ لم يعجبه قدومها بالتأكيد، وما

نقلته أنت له من كلام موظفي الشركة عن علاقتكما فيه شيء من الصحة في ظنه، فكأنهما الآن يتصارعان على جذبك، يعرفان ما الرهان الذي يتوجب على كلٍ منهما كسبه، هو يعرفها وهي تعرفه و أنت الرهان، رهان ممزق القوى يرقد في غرفته، ويغط في نوم عميق.

*****

استيقظت على رنين الهاتف بجوارك على الكومود موصولًا بشاحنه الكهربائي.. نور الصباح قد غمر الحجرة، إنها المرة الأولى في حياتك التي يسبقك فيها هذا الشعاع الشمسي ويصل إلى الأرض قبلك.

اتصلت نهال، ومراد، وجيهان، ومحمود، وأمه، ووالداك، وهديروكل من هو قريب أو بعيد منك.. لم يتصل خالك ولن يفعل مرة أخرى، ولم تتصل علا لتسأل عن سبب تأخرك عليها كل هذا.

ستستمر الحياة ولن تمنح نفسها ولا إياك هدنة، ستستمر مع بعض التغيرات التي ستستمر في الحدوث أيضًا، لن تيأس الحياة من قرعك على رأسك بالمصائب وعليك ألا تنزع دروع المقاومة وخوذة الحرب، فلتهب و اقفًا إذن لتستعد إلى معركة أخرى.

أوقفتَ سيارة أجرة، و أثناء الطريق اتصلت بحماتك أولًا.. بعد سؤالك عليها وتطييب خاطرها بكلمات المواساة والدعوات لزوجها الصالح سألتها: "الطبيب يريد معرفة معلومة عن علا حيث سيساعده ذلك في علاجها من أثر الصدمة"، فأخذت في البكاء على حال ابنتها التي لا تستطيع متابعة حالتها بنفسها، واشتكت قلة الحيلة وشدة التعب التي تعانيهما.. اضطررت إلى إعادة ما قلته في بداية المكالمة، وسألتها مرة أخرى:

- هل تعرّضت علا إلى إغماءة طويلة من قبل؟ الطبيب يريد إجابة دقيقة عن هذا السؤال.

عاودت البكاء من جديد فأطلقت زفيرًا مسموعًا من خلال الهاتف، لو استمرت على هذا الفعل دون إجابة عن السؤال المهم هذا فلربما تفقد ابنتها هي الأخرى؛ فلينفعها البكاء وقتها.

انتبهت وتنحنحت ثم قالت متذكرة:

- لقد حدث ذلك من سنوات بالفعل.. كانت صغيرة لم تتجاوز الثامنة عشر.
- هل حدث ذلك إثر صدمة ما أم بسبب آخر؟

- دعني أتذكر.. لا يا بني لم يكن ثمة سبب على ما أذكر، لقد ظننا وقتها أنا والمرحوم بإذن الله أنه التوتر الطبيعي المصاحب للامتحانات الدراسية.
- حسنًا.. أنا في طريقي لها الآن، سوف أتصل بك لأطمئنكِ وأسمعكِ صوتها.

استقبلكم الطبيب في غرفته الخاصة بالمستشفى.. كانت الأوراق الخاصة بالتقارير وصور الأشعة كلها منثورة أمامه بطريقة منظمة، كنت جالسًا في مقابلة محمود أخوها وقد بدا التعب على كل ملامحه.. بدأ الطبيب في الحديث قائلًا:

- سيد كريم، كل ما أجريناه من فحوصات طبية تؤكد لي بنسبة كبيرة أن زوجتك مصابة بمرض مناعي وعصبي ربما لم تسمع عنه من قبل..

واستكمل حديثه ليوفر عليك الاندهاش والأسئلة:

- زوجتك مصابة بمرض التصلب اللويحي أو التصلب المتعدد (Multiple-Sclerosis).. لا أحب أن أطلق عليه صفة الندرة، لكنه ليس منتشرًا بصورة كبيرة، وأعتقد أن السبب وراء ذلك هو صعوبة تشخيصه، بينما تكمن خطورته في ذلك أيضًا.. لا أحب خداعك بتزيين المعلومات، لكن فرصة العلاج من هذا المرض في الوقت الحالي ضئيلة، هو مرض مزمن ويهدد حياة من يصاب به كأي مرض مزمن؛ عليكم التعامل معه بحذر.

قاطعته بشبه حدة قائلًا:

- أنت قلت إنه من الصعب تشخيص المرض، فلماذا أنت على يقين من نتائج فحوصاتك؟ سأعيد تلك الفحوصات مرة أخرى.

قال ببرود:

- على العموم زوجتك تحسنت الآن وتستطيع مغادرة المستشفى بلا أدنى خطر على صحتها، وسأقرّ لك بذلك في تقرير رسمي، لكن أنصحك ألا تهمل تشخيصي لها.

قال محمود:

- ما نسبة شكك يا دكتور في إصابتها بهذا المرض الـ...
- MS أو التصلب المتعدد.. أعتقد أن النسبة قد تتجاوز التسعين بالمئة.
- ما الذي يشعر به من يعاني بهذا المرض أو ما مدى خطورته عليه؟
- الأعراض تختلف باختلاف درجة الإصابة بالمرض لكن الخلل الذي يسببه للجهاز المناعي يجعل حياة المصاب به في خطر لدى تعرضه لأي مرض آخر.. حتى لو كانت عدوى بكتيرية ربما تتحول لأزمة بالنسبة إليه.

حملت كافة الأوراق التي تخص تشخيصه لمرض علا، وغادرت مكتبه ومحمود خلفك يطمئنك ويؤيد رأيك في إعادة الفحوص في مستشفى آخر.. توجهتما إلى غرفتها، حيث كانت مستيقظة وجالسة على سريرها تشرب من عبوة عصير.

احتضنتها فبكت، وقالت: "أريد رؤية أمي.. و أين سارة؟"، هدأتها وأخبرتها أن سارة بخير وهي مع جيهان، وبشّرتها بإمكانية الخروج من المستشفى الآن، قلت لها إنها قد تعرضت إلى صدمة عصبية بسبب الخبر الصادم! كانت بحالة أفضل بالفعل رغم شحوب وجهها الذي ما زال يلازمها.. لم تتوقف عن البكاء حتى ركبت سيارة محمود و أنت معها.

- البقاء لله في خالك يا كريم.

قال محمود وهو يتوجه بكم إلى بيت والدته، وأضاف:

- أرجو التماس العذر في غيابي عنك أثناء دفنه.. رحمه الله.

لم تتمنَّ أنه عزّاك الآن لكنك قلت له:

- كيف حالك يا محمود؟
- بخير.. كيف حالك أنت؟
- ونعم بالله.. رحمهم الله جميعًا، لا عليك يا محمود، وماذا كنت ستفعل أكثر مما فعلت.. هذا قضاء الله وقدره.

هنا تنبهت علا فقالت: "هل مات الخال مجدي؟".. ثم وضعت رأسها على كتفك وبكت طويلًا، و أنت تربت عليها وتحتضنها برفق وتقبّل رأسها.

- أحداث جسام توالت علينا جميعًا.. موت أبي وموت خالك.. ثم مرضي هذا.

قلت متعجبًا:

- عن أي شيء تتكلمين؟
- لا تتعجب! فقد أخبرتني الممرضة بما أخبرك به الطبيب.

فقال محمود:

- حبيبتي الطبيب قال لي بنفسه إنه غير متأكد من التشخيص وسوف نذهب بكِ إلى مستشفى غيره لإعادة الفحوصات.. لا تقلقي.

قلت مؤكدًا كلام محمود:

- بالفعل يا حبيبتي، كل ما أخبرنا به الطبيب مجرد شكوك ولن نتهاون في الأمر رغم ذلك للاطمئنان على صحتك

مرض مُزمن

لو تقاس الخبرة الطبية بكثافة شعر الوجه لكان هذا الطبيب هو الأكثر خبرة على الإطلاق؛ رجل تهابه من الوهلة الأولى، وتقدر علمه أيًّا كان ما يعلمه، اللحية البيضاء الطويلة والكثّة يخالطها سوادًا طفيفًا ضعيف المقاومة أمام طوفان من الشيب، ويعلو عيناه حاجبان مشعثان، لولا بياضهما الناصع لصار الرجل مرعبًا، بل هو مرعب بهما أيضًا، بينما مقدمة رأسه إلى ما يقارب وسطه فارغة من الشعر.. سيلتبس عليك الأمر لو كنت رأيت صورة من قبل لعملاق الأدب الروسي المشهور "تولستوي".

نظر الرجل إليك ثم نظر تجاه علا وقال بنبرة هادئة:

- ربما هذا المرض ليس معروفًا جماهيريًّا، لكن بيننا كأطباء نعلمه بالطبع ونعلم ما يؤدي إليه.
- وما يؤدي إليه يا دكتور؟ كن صريحًا لو تفضّلت.

هكذا قاطعت علا الطبيب بإصرار مفتعل لتقتنص منه الحقيقة دون تزيين؛ لقد ملَّت زيارات الأطباء ما بين مستهتر بأمر مرضها أو جاهل به، بقَّع اللون الأزرق الداكن ذراعها في مواطن أخذ عينات الدم منها في كل تحليل أو فحص مختبري، وهذا هو الطبيب الر ابع الذي قررتما زيارته واستشارته.

تريد تهدأتها لكنها بدت هادئة بالفعل، كل ما تبغيه الآن أن تعلم ما حلّ بها وكيف تتعامل معه.

نظر إليها الطبيب وضيّق عينيه وقال:

- إذا أردتِ ذلك فلن أخفي عنكِ شيئًا.. ستتعرضين لهجمات عدة من المرض تزداد كلما مر بكِ العمر، ربما بعد أيام أو أسابيع أو شهور، وليس ثمة علاج ثابت لكل ما سيحدث لكِ سوى استمرارية الفحص الدوري واجتناب أسباب أي عدوى محتملة.. سنحتاج إلى إعادة الفحوصات وعمل بعض الاختبارت كل ثلاثة أو ستة أشهر لإعادة النظر في جدوى الطرق العلاجية المتخذة والتي سوف تنتظمين عليها كأي مريض مصاب بمرض مزمن يحترم خطورة مرضه.. ربما ستكون الهجمات شرسة في أوقات ما بحيث لا يتحملها الجهاز العصبي فتصابين بإغماءات طويلة أو عجز في الحركة أو ضعف في

النظر أبسطه ضبابية الرؤية؛ لذلك يجب الحذر ويُفضّل أن يوجد بجانبك من يهتم لأمرك بصورة مستمرة.. والأسوأ أن الحياة ستصير أصعب كلما تكررت النوبات.. أيضًا سيدتي ستقل الرغبة الجنسية لديكِ وهذا ما يجب أن أوضّحه أمامكما على سبيل الأمانة المهنية.

تتدخل في الكلام قبل أن يسترسل الطبيب إلى ما هو أشد بأسًا من ذلك كله:

- أشكرك دكتور على توضيح الأمر، سنتبع بدقة كل توصياتك و...

قاطعتك علا سائلة الطبيب:

- أليس لهذا المرض علاجًا حاسمًا؟

أجابها الطبيب:

- ليس حتى الآن.

قالت:

- أي أنني على مشارف الموت في أي لحظة؟

سكت الطبيب لحظة نظر فيها إليك وقال:

- كلنا على مشارف الموت في أي لحظة سيدتي.

لحقت بيدها دمعة سقطت منها وقالت:

- لكني الآن أشعر أنني مهددة وعليّ أن أعيش مهددة ما تبقى لي من عمر.

*****

مات القريب، ومات الحبيب، ومرضت الزوجة الصاحبة، أم سارة.. تريد أن تتعلم كيف لا تنجرف وراء قلبك بكل ما ملكت من عاطفة ولو كانت ضئيلة، فالوجع مقرون بالعاطفة، والعاطفة يُدميها الفراق، والفراق حقيقة سوداء لا مفرّ منها.

عدتم جميعًا لممارسة الحياة كأن لم يحدث خطب.. لن تتوقف الشمس عن الإشراق لتمهلكم فرصة التعافي أو الثبات، ولن يحيطكم الليل بذراعيه كغطاء يهبكم بعض الدفء أو السكون.. كيف تسمى حياة ولا حياة فيها؟!

ذهبت لزيارة قبر خالك في مقابر القرية، وقفت أمام قبره واجمًا حزينًا، تريد أن تتحدث معه حديثًا أخيرًا وتعلم أن هذا لن يحدث أبدًا، تريد أن تخبره بما حدث لعلا ولأبيها، تريد لومه عن زياراته القليلة التي منعتك متعة الشبع من صحبته.. لم تعرف عما إذا كان يسعد بعزلته كصديقك، أم كان يهرب طوال هذا الوقت من ذكرى مؤلمة

لم يصارحك بها؟ هل كان ينقصه تحقيق شيء في هذه الدنيا أم أنه قد أتمّ اللعبة إلى نهايتها ومن ثَمّ رحل؟

ولماذا كنا نغوص في حب من أحببناهم إلى هذه الدرجة من العمق، ثم فجأة وبدون سابق تمهيد أو إنذار لا نراهم مرة أخرى؟ نجزع حينها ونبكي، وتتقطع نياط قلوبنا حزنًا على فراقهم المؤبد، ويصير عالمنا تراكمات من ظلمات بعضها فوق بعض.. ما كان علينا أن نحب بقوة ما دام الفراق محتّم؛ كان علينا الاقتصاد في مشاعرنا حتى يسهل على جراحنا الالتئام سريعًا، وحتى لا تبكي القلوب دمًا، وتحبس العين دمعها فتنفجر في مقام مقاله الثبات وليس الشجن.

سافر مراد هو الآخر في سفر من أسفاره التي لا ترى فائدة منها، رحل بحجة أنه يبحث عن لقمة العيش، تلك اللقمة التي يتخذها حجة لأن يظل رحالة أو عابر سبيل، لا يقطع البلاد ولكن يقطع من الزمن شهورًا كي يمر والسلام.. تعلم أنه سيعود قريبًا جدًّا ولن يرضيه شيئًا، كنت بحاجة إليه في هذا الوقت؛ دومًا كنت بحاجة إليه، فهو الصديق الوحيد الذي أهداه لك القدر، لكنك لا تستطيع إرغامه على البقاء جوارك لوقت طويل، وهذه مشكلتك معه.. في الواقع أيضًا لا تستطيع أن ترغم أحدًا على فعل أي شيء لا يريده.

مضى ما يزيد قليلًا عن العام على لقاء رزان الأخير، فراقها كان حاسمًا كالموت ذاته؛ لم تعد منه إلى عالمك سوى في حلم لم تتبين ما رأيت فيه ولم تذكره، حتى المتجر الذي كانت تعمل به تركته، فلقد قادتك الحاجة إلى هناك مرتين فلم تلمح طيفها المميز، لعلها تزوجت واستقرت أمورها، ولعلها رأتك قبل أن تراها فتوارت بعيدًا عنك، لكن هذا احتمال ضعيف، المهم أن الجميع يرحلون بعيدًا.

"لقد أصيبت علا يا خالي بمرض غريب، لم أسمع عنه من قبل، ولقد أخبرنا الدكتور كلامًا أعجب، وأعدك وأعد نفسي ألا أسبب لها ضيقًا، أو أن أضغط عليها لتفعل أو لا تفعل أي شيء، وكل شجاراتي معها لن تتكرر خشية عليها، بل سأحضر لها أمها التي لا أطيقها حتى تعيش معها وترعاها، لو أردنا الحق فوجودهما معًا ثنتيهما أمر مفيد لهما الآن، لتهتم كل واحدة منهما بالأخرى.. لا أدري يا خالي إن كنت مصيبًا في ما سأفعله أم لا، لكني مضطر إلى فعله؛ لا أريد الندم على شيء كان في وسعي فعله ولم أفعله..".

قطع حديثك الروحي اتصالًا من نهال:

- كريم، هل لي أن أراك اليوم؟

- لا بأس، لو يناسبك بعد ساعتين من الآن؟
- جيد، سأنتظرك لتمرّ عليّ.
- أين؟
- أين؟! في الشيخ زايد بالطبع.
- لكن أنا لست في القاهرة الآن، أنا في القليوبية.
- سأنتظرك على كل حال.

تتأكد من غلق الخط لتتأفف؛ حين تريدك لا بد وأن تحصل عليك مهما كلف الأمر، أما لو كنت من تريدها فمن الصعب الحصول عليها دومًا!

*****

- ستتأقلم يا كريم، كل شعور منغص وبغيض في الحياة وكل ألم ناغز يوقظك من نومك ليلًا ستعتاده وتتكيف عليه، لقد عانيت ما عانيت وها أنا أحيا ولم أمت.

قالت نهال ذلك وهي ترتشف رشفة من كوب الشاي أمامها غير مكترثة كثيرًا لما تظهره ملامحك من معاناة، ووجع، وحزن جلي.. قاسية هي كلماتها كالحياة تمامًا، أم أن الحياة هي من شوّهت رقتها وبدلتها!

تعلم أن حظها في الأصدقاء الحقيقيين ضئيل أو معدوم على الأرجح، تتشدق عن الكثير الذين يتمرغون أمام أبواب الدخول إليها في علاقة من أي نوع وتحت أي تسمية وهي لا تكاد تلاحظهم، هذه هي الطريقة التي تتزن بها حياتها، هل ظننت أنها بمجرد خلودها للنوم ليلًا تغرق في خيباتها بسلاسة أو بغير مقاومة؟ أبدًا.

وأما عن حظها في الزواج فهو الأسوأ بالتأكيد؛ نعم ليست فريدة الحال بذلك، لكن يكفي أنها عاشته كما تقول.. انظر حولك إن شئت، لا تخلو بناية في بلدنا إلا وفيها امرأة أو فتاة تعاني مشكلة اجتماعية ما، إما متزوجة وتعيش في جحيم لا ينقطع على حد وصفها، وتراها تزور بيت والداها في الشهر مرتين تمكث في كل مرة منهما أسبوعًا على الأقل، أو تجدها مطلقة أو أرملة ليس لها أبناء؛ وهذه الأخيرة يحكم عليها المجتمع ذو العقل الفاسد بأحكام عدة طاغية، ويُصفّ المرشحون للزواج منها لآخر قطرة بحكم أنها لا بد وأن ترضى بمن هم أقل وأدنى.. ضاعِف هذا الكم من الضباب الأسود إن كانت أم لطفل أو أكثر.

وربما هي لم تخض مشروع الزواج بعد، وقد تقدم بها قطار العمر ذو المحطات والفرص القليلة، وهي في هذا الوضع تزفها النظرات، والغمزات، واللمزات، والقيل،

والقال، وكثرة السؤال الفضولي لمجرد حب الاستطلاع لا أكثر؛ فلا الناس تبغي العون بصدق إنما هم مجرد فضوليين بتبجّح.. فيا ويلها حينما تمر عليها دقائق من الغمّ إذا التقت عجوزًا من جيرانها فآست لحالها بغير داعٍ، كأنها تراها تحتضر على غير ملَّتها!

ابتلعت ما قالته نهال بغير ماء راوٍ، على الأقل في صحبتها تهوينًا على نفسك وتسلية.. سألتها لتخلق موضوعًا آخر مشترك:

- هل اتخذتِ قرارًا في مسألة تحويل الأموال لعملة أكثر استقرارًا هذه الفترة؟

كنت تسألها بهدوء وعلامات الأسى تنسحب من أراضي وجهك تدريجيًّا لتتخذ من الحديث طريقًا آخر ذات طابع عملي أكثر؛ لطالما كان الجانب العملي من حياتك أكثر راحة.. مالت نحوك كمن يُسِرّ بالقول:

- وهل أنت واثق من توقعات صديقك هذا؟ وكيف تثق به أصلًا بعد كل ما فعله معي؟ ماذا لو كان لا يفقه شيئًا، وأن كل ما أخبرك به من تنبوءات اقتصادية مجرد وهم؟

عجبًا لهذه المرأة! كيف تحشد كل هذه الشكوك الواهية في سؤالين؟!

- أولًا مراد لم يفعل معكِ أي شيء غير لائق.. لقد استضافكِ بالفعل لكنه أراد أن يرجع إلى بيته ليرتاح من التعب والإجهاد اللذان عانهما معنا.. ماذا كنتِ تتوقعين منه أن يفعل؟

قالت والثقة تعمها:

- على الأقل يحاول إيقاظك..

- صحيح.. كيف فاته هذا! ولذلك هو حيوان في نظرك.

زفرت طويلًا لتخرج ما وجهته إليك من كلام مستفز وقلت:

- لنعد إلى موضوعنا الأصلي، ولننس ما قاله وما فعله مراد الذي لم يوقظني بعد دقائق من نومي وهو يعلم تمام العلم أنني على مداريومين أبتليت فيهم بموت حمايا وموت خالي، وزوجتي ملقاة بالمستشفى لا أدري ما بها...

قاطعتك قائلة:

- كفى يا كريم كفى.. الغلطة غلطتي من البداية، ما كان يجب عليّ أن أظهر قلقي عليك، ما كان عليّ أن آتي إليك لأقدم يد العون أو أواسيك.. لماذا لم تفكر أني ما جئت إليك إلا لأني أعدّ نفسي مثل مراد؟ لماذا لم تفهم أني أحبك مثله وربما أكثر، و أنني لم أستطع أن أنتظر الصباح حتى أراك وأطمئن عليك؟

سكت وسكتت، كل يلتقط أنفاسه بعد ما تبعثرت عواطفكما على الطاولة.. قانون أن تفهمها وتفهم ما خلف الستار قبل أن يُرفع أو بعد ما أُنزل لا تجيده، بكل صدق لا تجيده.. وكيف تفهم كل هذه الخطوط الملتفة المتشابكة من المشاعر المختلطة وقد فقدت حدة نظرك للقلوب بين الخطوط المستقيمة والمتوازية وما تعامد عليهما؟

هدأت نسمات الغضب، وسكنت الريح التي كشفت ستر الاهتمام البالغ بينكما.. ملت نحوها لتُسر لها بالقول مقلدًا إياها:

- وهل أرغمكِ على مغادرة المنزل؟
- نعم، قال إنه لا يملك حق استضافتي في بيتك أكثر من ذلك، ودعاني للمغادرة.. أيضًا أصرّ على أن يصطحبني بسيارته لولا أني رفضت ذلك.

توقفت عن الحكي ونظرت في عينيك بدهشة قائلة:

- لحظة من فضلك، هل أفهم من سؤالك أنه لم يكن ثمة مانع إذا استيقظت في الصباح لتجدني في شقتك، أو في غرفة نومك مثلًا؟!

اقتربت أكثر منها وقلت:

- ماذا لو عدنا مرة أخرى لموضوعنا الأصلي؟

ضحكت فأسمعت كل من في الكافيه حتى نظروا نحوكم، فثبتَّ نظرك عليها كمن لا يعبأ بالموجودات حوله وقلت:

- لقد تأكدت بنفسي ومن مصادر أخرى قوية من صحة ما قلته لك.. لن نخسر شيئًا، ما سنفعله أننا سنقوم بتحويل الأمول من الجنيه إلى الدولار، و أنا أعرف أشخاصًا ستسهل علينا هذه المهمة، ولن تضطري للاحتفاظ بالأموال في أي بنك، وإذا حدث ما أخبرني به مراد وغيره - وسيحدث بالتأكيد - سنكون في مأمن من أي خسائر، و أنا أول من سيفعل ذلك، ومن الغد.. فما رأيك؟

كانت تنظر إليك مستمتعة بتخطيطك وتفكيرك، لا تفارق ثغرها ابتسامة الإعجاب وقالت:

- لماذا معظم حديثك يدور معي بصيغة الجمع.. "لن نخسر"، "سنكون في مأمن".. ماذا تقصد بهذه الطريقة؟

تشعر أن بئر معاني الكلام لدى نهال على عظيم عمقه إلا أنه مخيف، لا تأمن أنه يحوي قطرة مياه واحدة، لا في قعره ولا حتى تنساب على جدرانه.. هل تستدرجك لجلب

ما في جُعبتك من لطيف قول أو صنيع؟ ما الذي تستطيع أن تساعدها به ولم تفعله حتى الآن؟ هل تتأكد من أنك ستبذل مزيدًا من الدعم في إتمام شؤون شقتها التي لم تخترها بعد؟ أو لعلها تنصب لك فخًّا ما على أسوأ الظنون كما يتحاكى الجميع.

في الحالتين لن تتغير معاملتك، لقد صارت أقرب لك مما كنت تأمل، وتجمع علاقتكما الآن الزمالة المهنية والمصالح أيضًا، فأنت لا تبحث لها عن شقة بدون فائدة ستعود عليك، بل وستقوم لها بتنفيذ الأعمال المطلوبة بشقتها، وهذا عمل يستحق؛ هناك إيجار للمكتب، ومرتب يدفع لهدير، وفنيين وعمال لا يكفّون عن طلب المال إن استحقوا وإن لم يستحقوا.. كلها مصاريف عليك الوفاء بها دوريًّا أول كل شهر، أو أول كل أسبوع.

عليك الاعتراف أيضًا أنها أصبحت صديقة في وقت قصير، صديقة حرة ودومًا في حاجة إليك، وهذا ما تبحث عنه باستمرار؛ أن تستمد قوة روحية نقية من اتكاء الغير على ساعدك، أو من ضوء فرحتهم في أعينهم بعد إنقاذهم من ورطة ما، تبحث عن كل ضعيف لتقويه بوجودك جواره، فتثبت لنفسك أنك تستحق الحب، وتستحق الأفضل.. نهال فخّ قد أغراك للوقوع فيه لتحصل على لقب الفارس الأبيض، و أنت تغرم بهذا اللقب، حسبك أنها ترى فيك الشخص الوحيد الأنفع لها، والأطول بالًا أيضًا.

- أقصد كما ختمت كلامي ولم تنتبهِ لذلك.. لقد قلت أنني سأقوم بتنفيذ الفكرة التي أدعوكِ لها نفسها.

فلنفعلها إذن.

أنت لا تعلم شيئًا عن النساء

ديسمبر 2016

هل كل ما هو جميل ورائع يحدث في الشتاء، أم إننا من نقرر فعله في هذا الوقت من العام لأنه طقس مُلهم؟

*****

منذ أيام قليلة تم إعلامها عن طريق مُحضر محكمة بالقضية المرفوعة عليها من جانب زوجها السابق، أو طليقها الحالي؛ فالرجل يريد رؤية ابنه الوحيد.. هي لم تمانع أو ترفض طلبه بالتأكيد، لكنه لم يرد أن يتم ذلك بصورة لائقة أو ودية، بل حرص على استفزازها و إثارة غيظها، وأن ينسق رؤية الطفل عبر القانون والمحاكم ليضغط عليها؛ يريد معاقبتها على رفضها لأسلوب معيشته كما تقول.

بكت أمامك بحرقة بكاءً حقيقيًّا لا ادعاء فيه، كانت قلة حيلتها نقية من التمثيل وهي تطلب مساعدتك.. في العادة صارت تأمر ولا تطلب، كنوع من زحزحة الحواجز بينها وبينك، كنت تتذمر من تبجّحها حتى وإن زينته بالدلال، لكن اليوم تبعثر كبرياؤها، و انخلع عنها تقمصها للشخصية الجسورة التي لا تليق بها.

منذ متى و أنت تقف مشاهدًا ويداك في جيوبك أمام امرأة تبكي؟

لا شك أن لغريزة الذكورة دورًا بالغًا في دعم كل ذوات الأجنحة المكسورة لكسب نيات قد تكون خبيثة في الغالب، لكن غريزة الرجولة كانت أقوى؛ لن يرى أي رجل امرأة مثلها تبكي طالبة العون دون عرض المساعدات وإظهار الدعم بكل ألوانه، و أنت لن تنتظر أن يقوم غيرك بهذا، لقد كنت المختار لسكب العبرات، ولذلك يدك هي المنوطة بمسك يدها وإخراجها من الوحل حال السقوط.

عاطفيًّا هي تحتاج إلى ذلك، عاطفيًّا أنت أيضًا في حاجة إلى ذلك الدور، لا تكف عن القيام به مع من يخصك ومن لا يخصك.. هذه الصفة التي تبدو لك حميدة تتوغل جذورها بصبر وتؤدة في أعماق قلبك دون أن تدري أو تفطن لها، وفي كل مرة تعود لتشكو همًّا أنت صانعه من العدم، وكان يغنيك ألا تكترث كغيرك من البداية.

شهِدَت الحانات على أن علاقتكما تتجه كقطار مسرع نحو نفق مظلم.. في البداية كنتما تقعدان بصورة عادية؛ كلٌّ على كرسيه الخاص مواجهًا للآخر، تحيل بينكما طاولة من طاولات المقهى، الآن تغيرت شكل الجلسة ومواعيدها أيضًا، لتصبح أكثر حميمية، وتتحول الطاولة إلى أمامكما بعد أن كانت بينكما، فالتصقت الأجساد بنشوة وشهوة غير معلَنة، وتلامست الأيادي ولامست غير موضع من الأجساد، فتعطلت أمخاخًا كانت تتحكم جيدًا في أعصاب الجسد، وتقابلت الأعين من كثب، فضاقت التورية ذرعًا بهذا القرب، وما عاد ينطق اللسان سوى بالمشاعر والهيام.

صرتما أقرب مما ينبغي، لعل جاذبيتها كانت أشد من رجاحتك، والأدهى أنها منجذبة أيضًا إليك بكل جرأة؛ فأنت بطلها الأول في هذا الفصل البارد من فصول حياتها المتقلبة.

ذات مرة من لقاءاتكم سألتك مباشرة:

- لِمَ تفعل كل هذا من أجلي؟
- ماذا تعني بـ "كل هذا"؟

أجبت عن سؤالها بسؤال آخر على سبيل المراوغة الكلاسيكية، فقالت متخذة السبيل نفسه لكن بطريقتها الخاصة:

- منذ أول مرة التقينا وأنت تحاول أن تقترب بطريقة ما.. كل هذا كان مُلاحظ.. بالطبع أنا أشكرك على هذا الاهتمام والدعم.

أكملت ثناءً عليك قائلة:

- أما عن الفكرة العبقرية لتحويل الأموال إلى الدولار فهذا معروف لن أنكره ما حييت.. كان المبلغ لتقل قيمته كثيرًا بعد قرار تعويم الجنيه، لا بد من شكر صديقك هذا أيضًا ومقابلته، لكن ليس في بيتك بالتأكيد.

وضحكتما على اقتراحها وقلت:

- فعلًا.. مراد يعرف نصف من على الكوكب تقريبًا، هذه فائدة العلاقات.. ربما يعود من سفره قريبًا، حينها نرتب للقاء يجمع ثلاثتنا.

قاطعتك بنظرة هائمة ساحرة، جمدت حواسك وسحبتها إليها، ثم قبضت على يدك بقوة وهي تقول:

- تلك الليلة عندما اجتمعنا في الفندق مع الوفد الإيطالي، وعرض دانتي عليَّ مصاحبته بعد انتهاء العشاء، فكان عليك التدخل سريعًا كأنك تنقذني من براثنه.. اقتربت ليلتها مني حتى تلامست ملابسنا، وأظن أن قلوبنا قد

تلامست أيضًا.. كنت تقول: "إنك ستعوضني عما سيفوتني معه".. هل كان ذلك عن قصد؟

كان في صوتها رقة لم تعهدها فيه قبل.. ابتسمت، ولم يتطرق الخجل ليحمرّ وجهك هذه المرة؛ ليس على الغريق في بحر الشوق من حرج إذا ضرب المياه بكل أعضائه لينجو.. في كل معارك نظراتها تُخلفك راكعًا ترفع درعًا بيد قوية لتتحاشى سهام رموشها الفتاكة، وتكور قبضة اليد الأخرى لتستند على الأرض.. لا تريد الاستسلام حتى لا تأسر قلبك في شباكها. هل هذا هو الحب المنشود؟ هل هذه هي المرأة التي غيّرت فيك ومنك ما لم يُغيّره الزمن، والسفر، والزواج، والأصدقاء؟

نظرت أرضًا في غير خجل وقلت:

- أنتِ صاحبة ذاكرة قوية.
- لا أنسى أفعال الودّ، كما لا أنسى القسوة.

ثم أرخت قبضتها الممسكة بيدك، و اتجه نظرها إلى زاوية أخرى من المكان الهادئ المطل على النيل.. كانت تراجع بذاكرتها أحداثًا مرت في حياتها داخل إطار تسجيلي وهي عرضته المياه المنسابة بسلاسة وبطء، لاحظت ذلك، فوضعت يدك على يدها، لم تكن تلك هذه المرة الأولى التي تفعل فيها ذلك؛ لكنها المرة ذات الإحساس، ذات العاطفة الساخنة، وكأنك تطمئنها وتقول صامتًا إن كل شيء سيكون على ما يرام.

- كنت أتوق لمعرفتك أكثر بعد هذا الليلة بالتحديد، شعرت بكِ وبما تمرين به من صعوبات، تبين لي الفرق بين نهال قبل الطلاق وبعده.. وها نحن صرنا أصدقاء على الأقل.
- هل أنت متأكد من دقة وصفك للعلاقة بيننا؟

كل إجاباتها جريئة، تصيب أهدافها في مقتل، تتخطى بها المقدمات المملة والمماطلات الكسولة.. نهال تختلف عن كل من سبق، نهال هي من سبقت إلى لا وعيك لتنبئه وتبشره بأنها من بلاد الحب الغريبة عنه، هي كل ما لا تريده أنت من امرأة، فقاوم إن استطعت سحر الاختلاف.

قلت، ورماح سطوة غزلها فيك لا تفتر:

- على الأقل حتى الآن، لكن من يعرف ماذا سيحدث غدًا؟!

قالت وهي ترجع برأسها للخلف:

- أنت مراوغ، أتعبتني معك.

- ربما.. لكني حقًّا أدين بالشكر لكِ.. لولاكِ ما مرت هذه الفترة العصيبة عليّ بسلام.
- لقد أخبرتك أنها مسألة وقت وحسب.. الزمن يجيد مداواة أي جرح مهما كان غائرًا.. ثم علام تشكرني؟ لقد وضعت على همك همومًا، قضايا ومحاكم وشقة ما زلنا نبحث عنها، أنت تسلمت كل مفاتيح حياتي يا كريم، هذا ليس عدلًا، أعد لي حياتي أرجوك.

كانت تضحك بمكر، وكنت تضحك بصدق..

علام تشكرها؟ هل اهتمت بك مثلك معها؟ لم تشاركك عاطفة الحزن أو تهونه عليك مثلما فعلت معها، لم تسألك مرة عن حال زوجتك منذ علمها بالتغيرات والاضطرابات الصحية التي صاحبتها منذ ما يقارب من شهرين؛ وزوجتك من أهم شخصيات حياتك، لكنها تتعمد تجاهلها لعلة وغرض.. نعم اهتمت بشخصك جزئيًّا على قدر مصاحبتك إياها في حوائجها الشخصية، كأن تتصل بك لتتأكد من قدومك في الموعد، أو ترسل رسالة تطمئن فيها على رجوعك بعد يوم مرهق راح بلا رجعة فداءها، حتى عاطفتها نحوك التي تظهر في أوقات متفرقة وبصورة مباغتة مؤكد أن منبعها الحرمان وليس الحب الصادق على الأرجح، لكنك لن تخسرها، ستتجنب جاهدًا السقوط في أفخاخها المنتشرة حولك كذرات الهواء وحسب.

ولذلك شكرتها؛ لتحيد بها عن المسار العاطفي، ليس لأنك لا تريد و إنما تخشى أن يجمح جوادك نحو سفحٍ زلق، حينها لن تتوقف إلا بخسائر جمّة.

*****

البيت على ما يرام.. كل شيء منظم ونظيف وهادئ، ومع ذلك لا يرضيك ذلك القدح المتروك على منضدة الطعام، وما الحاجة لكثرة الإضاءة تلك ونور السماء يغمر البيت؟! إزعاجًا بصريًّا ونفسيًّا فقط لأن حماتك تريد ذلك.. عدا تلك الأشياء المثيرة للغيظ فلا جديد في البيت.

تراها جالسة على مقعد ضخم مريح، تمسك بمسبحة بنية اللون طويلة تكاد تلامس الأرض، لتذكر على أعداد حبيباتها الخشبية خالقها مرات، وتستغفره مرات أخرى.

تلقي عليها عند دخولك البيت سلامًا خاليًا من الودّ، فترد مرة وتتجاهل مرات، فتتجاهل تجاهلها وتمضي.

لقد فضّلت أم علا أن تعيش ببيت زوج ابنتها لبقية عمرها على أن تمكث أطول الأوقات وحيدة بين جدرانٍ تُذكّرها بفقيدها الغالي.. الوحدة قاتلة لكل شيء إلا الوقت، كأنك تعيش على كوكب بعيد في مدار أكبر.

كان عليها المقارنة بين زوج ابنتها أوزوجة ابنها، بوصفهما اختيارات متاحة لأن تحل ضيفة دائمة مع إحداهما، فاختارتك أنت.

قدرتها على أن تكون "حماة" أقوى، بينما تتضاءل أمام أنثى مثلها خطفت ابنها منها - كما يوسوس الشيطان لجميع الحموات - عنوة، كما أنها تعلم أنك كثير الأسفار، ولا تمكث في البيت إلا لساعات قليلة باليوم، يوم الجمعة مثلًا لا يختلف كثيرًا عن الثلاثاء في سجل حضورك وغيابك للمنزل.. هكذا حدثت نفسها وقالت: "ابنتي المريضة أولى بي من أنثى نافستني في ولدي وفازت به".

أما بداخل غرفة نومك فقد اختلفت مواضيع النقاش، لتظهر على السطح مستجدات تستحق المتابعة اليومية.. منذ التسليم لحقيقة مرض علا و أنت تفرض على نفسك طقوسًا تمارسها معها؛ أسئلة متكررة ذات إجابات ثابتة في الغالب.. "هل تناولتِ أقراص الدواء في مواعيدها بانتظام يا علا؟"، "هل عرضتِ نفسك لأشعة الشمس في الصباح أم تكاسلت وغَطّتِ في النوم بعد ذهابي للعمل؟".. بالطبع كنت تتابعها عبر مكالمات الهاتف أيضًا أو الرسائل السريعة، آثرت أن تهتم بصحتها بكل الطرق، وتجنبت محاولات البحث عن المتاعب، وتغاضيت على مضض عن تدخل أمها في بعض شؤون المنزل أو في نهج تربية سارة، لكنك على الأرجح لن تصمد كثيرًا، فمن العسير عليك أن تخرس أمام ما لا تقتنع به، ستتخذ فيما بعد أساليبًا مختلفة ومتعددة للحد من احتلالها الطاغي غير المستحق، سواء عن طريق علا أم بالمواجهة المباشرة معها.

بداخل غرفة نومك أيضًا اختلف مزاج علا كثيرًا؛ لم تعد تقوى على السهر رغم أنها لا تستيقظ مبكرًا إلا نادرًا.. قلت لها ذات مرة أن الشطائر التي تعدينها لي قبل الذهاب لعملي لها مذاق مختلف ورائع، لا تحرميني منها أرجوكِ.. لم تتشجع كثيرًا بإطرائك هذا ولا بمدحك لجمالها وفتونها؛ غاضًّا الطرف عن وزنها الذي بدأ في الازدياد بصورة ملحوظة.

تبدو وأنها صارت باردة المشاعر نوعًا ما، تغيير ما طرأ عليها سلبها الكثير من الأحاسيس العاطفية والجنسية بالأخص.. لقد كان ذلك الطبيب المُسنّ صادقًا بدقة فيما أخبركما به.

*****

بدأ عام جديد في حياتك.. يبدو أنه سيكون خالي الوفاض من الأهداف؛ فكل ما تطمح إليه الآن أن تستقيم الأمور فقط.. تستعيد بعضًا من النزوات التي لم تتلوث بها قبل مع نهال التي تتأرجح علاقتها بين الصداقة والحب، والتي اتضح لك أيضًا أنها انتهازية للغاية، لا تريد إلا مصالحها فقط، تراك كآلة صنعت لتحقيق رغباتها التي تتجدد ولا تنقطع، و أنت معها تبدو كمريض نفسي يبحث عن قيمتة في ما يعين عليه الآخرين.

تخدع نفسك بمبدأ أن كل هذا من قبيل أفعال الخير التي لا ترجو من ورائها جزاءً، وفي لحظات مزاجها السيء تقذف بكل معتقداتك للجحيم، تلعنها في سرك وجهرك و أثناء حديثك الهاتفي مع مراد.. تفعل ما تفعل لها وهي كالصنم الذي ينتعش لرؤيتك راكعًا له تقدم القر ابين بانتظام، وهي في هذه الحالة لا نفع منها ولا ضرر، بل ربما يوجد ضرر.

ربما ألقت لك ببعض فتات الأماني لنيلها لتهفو نفسك وتلهث خلف كل أمنية منها ملقاة على أرض صلدة لا تجني خلف ريّها حصادًا.

إلى أين يمكنك الفرار من الملل؟ البيت يسكنه البرود العاطفي، وتناطحك في فراغاته عجوز ملولة تحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة تخصها أو لا تخصها، وتكاد في ظنك أن تفسد ابنتك عليك.

في العمل تزورك بانتظام ساحرة ليست بطيبة الأفعال، كلما دنوت من فك طلاسم شرودها المستمر بطاعتك المستدامة استعصت عليك، بل وتعيدك إلى نقطة البدء.

تقرر أنك ستتوغل أكثر وأكثر في قوقعة العمل الدؤوب بلا راحة، وبلا توقف.. وأحيانًا بلا اكتراث، ازدادت ساعات عملك الأساسي ثلاث ساعات إضافية بمحض رغبتك، لم يرغمك رئيس ولا مدير على أن تعمل فوق طاقتك، لكنك تشعر أن هذا أفضل من اصطحاب هذه المرأة الحائرة خمس مرات في الأسبوع بعد مواعيد العمل وفي الليل، وأحيانًا كنتما تغادران العمل في منتصفه بأي عذر لتبدأ معها البحث عن شقة و أنت تعلم أن كل هذا الجهد ستزروه الرياح في نهاية اليوم.

أثناء مطالعتك لبعض التقارير الهندسية لمشروع ما، تذكرت أن ماهر قد عرض عليك مشاركته في شاليه بقرية من قرى الساحل، لكنكما لم تتما الصفقة إلى اليوم،

تظن أن وقتها قد آن.. تذهب في خفة إلى مكتبه فتجده مغلقًا، لقد رحل بالتأكيد.. عليك أن تحدثه هاتفيًّا إذن.

- ماهر كيف الحال؟ مررت على مكتبك فوجدتك قد غادرت ولم ألحق بك، كنت أود التحدث معك بخصوص شاليه الساحل، هل تتذكر عندما عرضته عليّ؟
- كيف حالك يا كريم؟ ما سبب تأخرك لهذا الوقت؟ أخشى أن تكون الشيطانة نفسها!
- لا لا.. لقد رحلت في ميعادها، أنا وحدي في الدور بأكمله، أخبرني عن صفقة الشاليه؟ هل ما زالت متاحة؟
- متاحة يا صديقي.
- مالك تقولها بنبرة أسف؟
- لأن السعر قد ارتفع الآن بعد زيادة الأسعار.
- على العموم أنا أريد التنفيذ هذه الأيام، وسأتحمل فرق السعر.

*****

عرضت فكرة شراء الشاليه بغرض الاستثمار على والدك فرحب بها، لكنه أعرض عن مشاركتك بما يملكه من مال قد خصصه لتكاليف زواج جيهان، فوعدته أنك ستتحمل هذه التكاليف لمّا يأتي وقتها، فرفض رفضًا قاطعًا، وقال:

- أنا لو عشت اليوم يا ولدي لا أضمن أن أعيش للغد، لن أفرّط في حق أختك من أجل هذا الشاليه.

ترد عليه مناقشًا إياه:

- لن أرغمك على شيء يا والدي.. كنت أود أن تستثمر هذه الأموال و أنا أضمن لك أن أصل المبلغ سيعود إليك وزيادة في غضون خمس سنوات على الأكثر، هذا بخلاف أنه يمكننا الذهاب لتغيير الجو والاسترخاء في العطلات أو في أي وقت شئنا.. لكن لا عليك، سأتصرف في باقي المبلغ.

تدخلت أمك في المناقشة قائلة وهي تضع صينية الشاي على المنضدة، وقد أثقلت الدموع جفنيها:

- لا تتصرف في المال، ولا تستلف من أحد، لقد ترك لك خالك رحمه الله مبلغًا كبيرًا منه إليك، أوصاني أن أخبرك بذلك إذا ما حدث له مكروهًا.
- حقًّا.

استأذنتهم وخرجت متوجهًا إلى مقابر القرية، وهناك وقفت وتوقف الزمن عند قبره، ومشاعر مختلطة تملؤك وتهيج في صدرك.. "خالي الحبيب، أسأل الله لك الرحمات، لا ينقطع ودّك لي حتى بعد ما فارقتنا، ألوم نفسي كل دقيقة لأني فزعت إليك عندما علمت بوفاة حمايا، سامحني يا خالي، كانت تنقصني حكمتك في الأزمات، وأي أزمة أكبر مما كنت فيها، لقد ظننت أن علا قد لحقت بأبيها من هول الصدمة، كنت أودّ لو قضينا وقتًا أطول معًا، تسقيني من عطفك كما كنت تفعل، وترشدني بما ينفعني.. كنت تعرفني جيدًا يا خالي وتعرف ما أريد، كنت أفهم الناس لي رغم أن قربك لم أنله إلا قليلًا، لو علمت أن هذا ما كان ينقصني يا خالي ما كررت بعدك، وما زادت أسفارك".

*****

اتفقت مع ماهر على أن تكون شراكتك في الشاليه بنسبة 65%، بذلك ستغطي بنفسك فرق الزيادة التي حدثت في سعره، ورضي بالاتفاق بكل سرور.

أسبوع واحد وأصبحتما مالكين لشاليه مكون من طابقين علويين وآخر أرضي، يطل أمامه على حديقة مزهرة تتسع للعب والحفلات المحدودة، والقرية نفسها في موقع جيد وشاطئها جميل، وجميع الخدمات الأساسية متوفرة فيها.

لا ينقصك الآن سوى تجهيزه ببعض قطع الأثاث والأجهزة الكهربائية ليستشرف المقبلين بغرض المصيف أو قضاء العطلات، وأول من سيفعل وسيجرب هو أنت؛ أكثر إنسان الآن على الأرض يشعر بالملل والألم والرغبة في الاسترخاء والبعد عن كل شيء، وها هي حجة مقبولة لعلا، التي فرحت أكثر منك لما علمت بالأمر.

وعاد مراد حاملًا خيبته على ظهره، كحقيبة قُدر له ارتداؤها أبدًا.. جمع في تلك الحقيبة مغامرات جديدة، وحكاوى شيقة وأخرى سوداء، عاد ليخبرك أنه لن يعيش وحيدًا بعد اليوم، أسعدك الخبر لدقيقتين، ثم أصابك الإحباط واليأس من تصرفاته العجيبة؛ لقد تبنى كلبًا من نوع "روتفايلر"، وأسماه "زغلول"!

- اللعنة عليك وعلى زغلول.

ضحك بصوت صاخب ليزيد من حدة غيظك وقال:

- لو كان معي الآن ما تجرأت على قول هذا.

واستمر في الضحك والسعال، ثم قال:

- اسمع.. ما رأيك في رحلة ليومين أو ثلاث.. أنا و أنت فقط؟
- مو افق.. لكن إلى أين ومتى؟

- أين؟ إلى الساحل الشمالي.. متى؟ في الموعد الذي تحدده.. هاه ماذا قلت؟
- مو افق أيضًا لكن بشرط...

قلت بنفاد صبرو أنت تعلم ما شرطه:

- مو افق.. أحضر الكلب معنا.

أغمض عينيه و ابتسم.

*****

ما أروع الشرفات حينما تكون مأدبتها القهوة! تحتشد السعادة من كل مصادرها الكونية لتحضر جلسة القهوة مع الصديق المحبب، ندى الشتاء المنعش المحفز على النشاط وجلب الذكريات يحيط بكما ويلدغكما ببرودته، فتهيم العقول وتتنهد بما تحويه من أمنيات مستحيلة، وتتبادل الألسنة كلمة "لو" نطقًا وأملًا أو ندمًا.

تنظر للأفق بعد زمن قد مضى، فترى الألوان تناسقت بإبداع، السماوات التي تفجرت في نواحيها السحب البيضاء العشو ائية، وهي تتحرك على مهلٍ وثقة من الوصول يغمر ثُلث الصورة، ترخي عنقك قليلًا فيتحرك بؤبؤ العينين على موجات البحر الأزرق، وتتدرج ألو انه كلما سحبت نظرك عائدًا به نحو الشاطئ، فما بين النيلي، والفيروزي الغامق، والفاتح، والتركوازي، حتى يشف ما يحتضنه من رمال سكرية اللون، فيتناغم الموج مع الرمال في رقصة هادئة، يضمه ويفلته ليضمه مرة أخرى.

ترتعش جراء نباح زغلول المفاجئ، فيبادر مراد بتهدئته قائلًا:

- إنه فرح بالرحلة.. لا تقلق.

تعود للحظات السعادة المؤقتة وتقول في حالة من الاسترخاء:

- أنا أعتقد أن الحب كالموت لا بد من أن يتذوقه الإنسان مرة واحدة خلال رحلة الحياة.. مصير محتوم يلقاه ويشقى من بعده أو ينعم.. ومن لم يستعد للحب قبل أن يجده بغتة لن تتزن حياته.

قال مراد ليجاري بدء حوار ما:

- وكيف نستعد لملاقاته؟
- لا أدري.. ولا أدري أيضًا كيف نتعامل معه عند ملاقاته.
- الحب عندك يا صديقي أصعب من الموت إذن؟
- كلاهما صعب؛ فالحب لا يشبه الموت في كونه نهاية الحياة، ولكن في كونه مصيرًا محتومًا.. تعاملنا معه سيخلق حياة داخل الحياة، وتلك الحياة ستقود إلى السعادة أو الكآبة.

- أشعر أنك إنسان غير الذي عرفته.. هل تقصد أن الحب لا يأتي مرتين؟
- بالطبع فتلك الأحاسيس المتوهجة، والمشاعر الملتهبة، والتخوّف المستمر من الفراق، والنشوة التي تعتري القلب، والغصة التي تصيبه بعد خذلان الأحباء إثر خيانة أو فراق.. كلها أشياء ذات بصمة فريدة يستحيل أن تتكرر مرتين، كالأحماض الوراثية مثلًا.

تبادلتم الأدوار وصار الأستاذ تلميذًا، فسأل مراد باهتمام:

- وهل يعني هذا أن الحب الأول هو الحب الحقيقي ولا غيره من بعده؟ أنت بفلسفتك تلك تهدم نظريتي!

ارتسمت ابتسامة سريعة على شفتيك وقلت:

- ليس شرطًا أن يكون الأول أو الثاني أو العاشر حتى، بل ليس شرطًا أيضًا أن يكمل الحبيبان الحقيقيان مسيرة الحب الحقيقي المقدر لهما.. الحب لا يعيش بحياة المحبين أو تواعدهما الدائم، الحب يوجد عندما تتقاطع دوائر الإعجاب والارتياح والتفاهم.. هنا يظهر الحب الحقيقي الذي يدفع المرء لخوض الحروب ومكابدة العناء، وتحمل المخاطر للفوز بحياة جديدة مع رفقة من أحب، وهذا ما قصدت بأنه لا يحدث سوى مرة واحدة فريدة في العمر.

قام مراد واقفًا في الشرفة وقال:

- أقطع ذراعي أنك تحب، وحبك هذا هو الذي أجرى على لسانك هذا الكلام الغريب عليك.. أنت لست أنت كما قلت، وهل غبت عنك أعوامًا لأعود فأجدك بهذه الرومانسية؟!
- سأصارحك بشيء.. أنا لا أحب مثل هذا النوع من الحب، أنا أتمنى حدوثه، وكل هذا مؤسف لأنني متزوج بالفعل ولدي زوجة وحياة، والأقسى من ذلك أنني ساقط في بالوعة من الانجذاب العاطفي لا تليق بي، أنا أعلم هذا ولا أستطيع فعل شيء لأنجو من هذه المصيدة.. بداخل صدري قلب أعمى، أنا من أضعف بصره بأفعالي، هذا القلب يتشبث بالجمال الخارجي الذي يفتنه فتونا، أما عقلي فيحاول صده بيأس وضعف.

سكت مراد قليلًا وقال:

- هل عادت رزان في حياتك؟

تبتسم كمن تذكر ماضيًا جميلًا وتقول:

- ليتها تعد!
- مَن إذن؟ لا تقل إنها نهال.. هذه الماكرة الجريئة.

وأضاف مراد:

- بالطبع هي لا تليق بك.

ترد بلهفة دون تفكير:

- لكني أحبها بشدة، وسأتفق معها على كل شيء، سأشترط عليها أن تتغير أولًا ليكون كل شيء على نور.
- أنت جننت.. نعم تغيرت لكن للجنون وليس للرومانسية، وماذا بعد أن تغير من شخصيتها أيها الحكيم؟ هل ستعدها بالزواج؟

قالها مراد متهكمًا وساخرًا، فقلت:

- وماذا في ذلك؟ زواج على سنة الله ورسوله.

بدأ مراد يفقد أعصابه وقال:

- على جثتي أن يتم هذا يا كريم، أتريد أن تخرب بيتك بيدك! هذا قرار غبي خصوصًا مع امرأة مثلها.. أبدًا لن يكون.
- بل سأفعل، وستكون أنت الشاهد على عقد الزواج، أنا أقضي كل يوم معها على مدار ثلاثة أشهر، نخرج ونجيء ونمزح ونتكلم.. عرفت عنها كل شيء، ما المانع أن أتزوج امرأة مطلقة أرادت أن تنتقي رجلًا لها بعد فشل زواجها الأول؟ هل المانع أنها اصطادتني بشباكها؟
- بل المانع أن في شباكها غيرك من الصيد يا ساذج.
- مستحيل.. أقول لك إنني اصطحبها منذ الصباح وحتى الليل كل يوم.
- ماذا جرى لك؟ أتريد أن تهدم بيتك أيها الغبي؟! اذهب وعالج مشكلاتك مع علا.. اصطحب سارة واخرج معها بدلًا من هذه الجريئة التي جاءت لبيتك لما علمت أنك وحدك بالمنزل.. هل أخبرتك بأنها ظلت معي لمدة ساعتين كاملتين في منزلك و أنت نائم؟
- لو كانت عند سوء ظنك لما رفضت أن توصلها بنفسك في هذا الوقت المتأخر.
- ماذا تقول؟ أنا لم أعرض عليها أصلًا أن أوصّلها، بل رفضت مكوثها ببيتك أكثر من اللازم احترامًا لعلا، لكنها أبت أن ترحل.

سكتّ لتفكر في كلامه؛ فهو أصدق منها ولا شك، لكنك استكملت الدفاع عنها:

- اسمع.. من قال بأنني سأهدم بيتي؟ مشاكلي مع علا لن تكون سببًا أبدًا في تفكيري في الزواج من نهال.. نهال نفسها ليست سيئة كما يظن الجميع، إنها

امرأة محطمة ومتضررة نفسيًّا بسبب معاناتها في تجربة زواجها الأولى، و أنا أعتقد أنها تستحق الأفضل وحسب.

قاطعك ساخرًا:

- و أنت هذا الأفضل! أنت الفارس الذي يمتطي جوادًا أبيض وسيسرع إليها ليختطفها إلى المدينة الفاضلة!
- ولمَ لا؟ أخبرتك أنني أقضي معها معظم الوقت.. مررنا بكل شيء تقريبًا، وأشعر أن اختلافنا هو سر انجذابنا.. هل أنتظر حتى نقوم بأفعال محرمة والحلال أمامنا أبو ابه مفتوحة.

استكملت مجادلته قائلًا:

- سيكون لدي شروطي لإتمام الأمر.. الكثير من الشروط المتعلقة بآدم ابنها وبها هي أيضًا، وسيكون الزواج سرًّا بحيث لا تعلم علا أو أي أحد له صلة بها.

قال في تحدٍّ:

- أنت لا تعلم شيئًا عن النساء، المرأة تشعر بكل شيء، وخصوصًا إذا تعلق الأمر بامرأة أخرى مع زوجها.. هناك دومًا شعرة صغيرة ليست من شعر رأسها تفضح الأمر، أو هذه الرائحة النسوية النفاذة على رقبتك، أو طريقتك نفسها التي ستختلف في التعامل معها.. ستعلم على أي حال بزواجك.
- حسنًا.. عندما تعلم سأنفذ لها ما تريده.

زفر مراد في حنق وقال بيأس:

- على الأقل عندما تتزوج للمرة الثانية تزوج بمن هي أفضل أو لتكن على القدر نفسه من الخلق.
- متفقين.. ومن أجل هذه النقطة بالتحديد وضعت شروطي، لكن أنت تو افقني في المبدأ، ولعلمك الجميع ممن يعملون بالشركة كانوا يقسمون بانضباطها يومًا ما، وسوف أساعدها لتعود إلى ما كانت عليه.

تنهد مراد وقال:

- لا أعلم.

فنبح الكلب مرتين ارتعدت فيهما، وقلت:

- هذا الكلب لا يبشر بخير.

شهوة منطفئة

"نادرون هم من يتغيرون لغيرهم، إذا أردت أحدًا ما بصفة ما فلتبحث عنه حتى تجده، فإن إرادة التغيير النابعة من الشخص نفسه لنفسه أقوى و أثبت من إرادته التغير لغيره".

لقائله

*****

- أردت أن أمضي بعضًا من الوقت بمفردنا، بعيدًا عن أعين الناس، أنت و أنا فقط على حريتنا، لذلك عرضت عليك الفكرة و أنت هربت من تنفيذها، ثم أتيت حتى باب بيتك تحرقني اللهفة والشوق إليك، ويقودني جنوني من الخوف عليك.. لم أبالِ بمن سيقول وماذا سيقول؟ جئتك لأجد صديقك الضخم هذا كالغوريلا كأنه الحارس الخاص بك، هو يشبههم صدقني، جميعهم يعانون هذا الجمود العاطفي ويفتقرون إلى اللباقة مع المعجبين، لكن كيف يمنعني عنك؟ كان يجب عليك أن توبخه على منعي من رؤيتك، كان عليّ أن أحتضنك بين ذراعيّ لأخفف عنك وأهون عليك، لطالما احتضنتني بعينيك، أنت من تفهمني وتفهم كيف تتعامل مع حالاتي المختلفة، تحبها جميعها وتقبلها بلا تذمر.. قبول العاشق للقمر في كل ليلة مهما بدا له رفيعًا أو ممتلئًا، صغيرًا أو كبيرًا، ناقصًا أو مكتملًا، ظاهرًا أو مختفيًا خلف السحب.. نعم أنت كنت تأتي لي من خلف السحب تسحبني إليك لأظهر غير خائفة من هذا المجتمع المتخلف.. كيف لا أحبك؟ كيف لا تأسرني معاملتك التي تلبي لي بها جميع احتياجاتي وتحققها؟

ورفعت رأسها الر اقد حالمًا بين كتفك ورقبتك، ونظرت مباشرة إلى عينيك بأعين تائهة وقالت:

- كيف لا أحبك و أنت من احتويتني عندما رفضتني الحياة؟!

كان صوتك مفعمًا بالعاطفة والاستكانة في قولك:

- وكيف لا أحبك بكل هذه الصعوبات والتعقيدات؟ أنا أعشق التحديات و أنتِ المستحيل الذي سأصل إليه.

اعتدلت وقالت بجد:

- أرجوك كريم لو كنت تحبني حقًّا رتّب لنا يومًا نقضيه أنا و أنت وحدنا في هذا الشاليه الجديد، أريد أن أتحدث معك في بعض الأمور المهمة أيضًا وليس مكانها المناسب هذه الكافيهات والمطاعم التي نختارها كل يوم.
- أنا أيضًا أريد ذلك وعندي لكِ خبر سيسعدك كثيرًا، لكني سأفاجئك به لمّا نلتقي وحدنا، لكن في مكان أجمل من هذا الشاليه البعيد.

صرخت في فرح:

- يعني أنت و افقت على الفكرة.. أنت مجنون مثلي.. أنا أحبك.

و انقضّت على رأسك تمسكه وتقبل خدك وسط المكان.

*****

اجتمعت معها، وحرص الشيطان على أن يكمل ثلاثيتكم، أغلقت باب شركتك الصغيرة للتشطيبات العقارية، هذا هو المكتب الذي لا تزوره إلا مرة في الشهر تقريبًا، تركت أعماله لتديرها العبقرية هدير، وتباشر أنت العمل عبر الهاتف والزيارات الفعلية لموقع العمل، ثم تكلفها بإعداد التقارير المالية، والمخالصات، والأعمال المكتبية؛ هذا أنسب لأنوثتها.

اليوم إجازة هدير، والفرصة سانحة لأن تتكلم مع نهال على انفراد تام بالمكتب، قلت لها: "سنمكث في فندق ليوم كامل، من الصباح وحتى المساء، وستدخلين معي الفندق بصفتك زوجتي".. وهنا هجركما الشيطان مطمئنًا لما وقر في خاطرك من خطة أقبح مما كان يدبر لكما.. لم تحرك ساكنًا، صمتها وحده كان استفسارًا لشرح ما عنونته، كأنك صحفي ماهر أجاد وصف فيتشر في أول صفحات الجريدة، إلا أنه لا يحمل قصة إنسانية، شيطانية وصف أقرب إلى الدقة.

أكملت متهللًا و أنت تعرض عليها بطاقة صغيرة:

- انظري إلى صورة علا في بطاقتها الشخصية، عليكِ فقط أن ترتدي حجابًا صغيرًا كالذي ترتديه بالنمط نفسه واللون الداكن نفسه.. الصور في كل البطاقات الشخصية ضعيفة الجودة وقد تتشابه بقليل من التغيير.. هذه الحيلة ستنطلي على موظف الاستقبال، ستقفين خلفي وسأكون المتحدث بالطبع، ليس عليكِ إلا أن تحفظين اسمها كاملًا وعنوان البيت وتاريخ الميلاد.

ابتسمت في دهاء وقالت:

- أنت ماكر جدًّا حينما يتطلب الأمر، ألهذا الحد تحبني وتريد أن...

قاطعتها بلطف:

- لا تسبقين الأحداث، اتركِ الأفعال تحدث إذا دفعها الإحساس.

كانت ابتسامتها ترتسم تدريجيًّا وهي تتخيل هذا المغفل وهو يناولك مفاتيح الغرفة كاشفًا عن أسنانه ليرحب بكما وهو يقول "مرحبًا بكما يا فندم، تشرفنا خدمتكما".. قالت بفخر:

- يا لك من شيطان بارع!

فقلت ضاحكًا:

- الشيطان يجلس على طاولة أخرى يصفق بحرارة يا سيدتي.

*****

لم يكن المثول أمام موظف الاستقبال سلسًا كما تخيلت نهال؛ لقد أطال النظر فيها وحدجها من رأسها لقدمها، لكنها سليطة اللسان على كل حال، فتجاوزت ما أمرتها به من السكوت التام، وقالت له بحدة: "هل أبدو لك في البطاقة بكامل جسدي أيها المغفل؟!"، انتبه الشاب لتجاوزه المدفوع بالشك، تردد قبل أن يرد إليك البطاقات، لكنه تنفس بعمق ليكتم غيظه وحيرته ثم اعتذر بأدب هزلي قائلًا: "وددت لو كانت صورتك كاملة في بطاقتك سيدتي لتكون مميزة عن بطاقات الجميع"، فضحكت رغمًا عنها، و ابتسمت لتجامله و أنت تشعر أنكما انتصرتما عليه.

في منتصف الغرفة وقفت نهال بعد ما قامت بتشغيل أغنية لفيروز على هاتفها، ثبتت عيناها في عينيك، و أقبلت ببطء وتودد متناغمان مع الموسيقى، صاحبت كل خطوة صغيرة منها علوًّا في ضوضاء نبضك، حتى صارت أطراف أصابع أقدامها تلامس مقدمة حذائك الذي لم تخلعه كما فعلت هي.. أزاحت عن رأسها وشاحها المصطنع، لتتركه يسقط بانسيابية على شعرها الناعم الأسود الفحمي، رحلة سقوطه تؤكد أنه قد انتحر من رهبة السعادة، حتى الوشاح قد أصيب بـ"شيروفوبيا" حادة، فرمى نفسه ليحتضن بأرض الغرفة متخلصًا من اللوعة.. أدخلت أصابع يديها بين خصلات شعرها لتخلخله فيتنفس الهواء، ثم وضعت كفها الأيمن على مكان قلبك تحديدًا، واليد الأخرى تنتزع عويناتك في تحدٍّ.

لقد نزلت الدركات عالمًا أنها لن تؤدي بك إلى مكان ذو اختيارات راجحة، لقد قمت بتحضير عفريتًا ولا تريد صرفه ولا تعرف ماذا تفعل به؟! الخطة الماكرة الشيطانية يتم تنفيذها الآن، وعليك القيام بدورك فيها..

نبضات سريعة جدًّا تحذرك بأنك تدنو من الهاوية، بالكاد تلتقط أنفاسك المتعثرة بين الضلوع، وهي ترى كل ما تخشاه في عينيك، تعلم أنك تشتهيها كالليث الجائع، وقد أتت إليه فريسته طوعًا.

تستطيع شم رائحتها الزكية بقوة من هذا القرب، وتود لو توغلت حتى التيه بين أشجار غابتها المهجورة.. لم تكن نهال بهذا القرب أمامك من قبل، كانت تلامسك جنبًا إلى جنب لا وجهًا إلى وجه.

جذابة هي كجبل مغناطيسي يعلو وسط بحيرة كبيرة، لن تقوى على تحريك دفة سفينتك في اتجاه معاكس بعدما صرت بهذا القرب، المقاومة تلفظ آخر أنفاسها المتقطعة، بينما تعطلت الإشارات الإيمانية بقلبك، وتحكمت الشهوة القبيحة به لتمهد وقوع إثم ما.

"ستتوج بالخيانة يا كريم".. قلتها في باطن صدرك لعلك تزدجر أو تنتبه، وعدت لتكرر على مسامع قلبك: "لن ينفعك عذر ولن يريحك ضميرك النائم الآن.. أين حبك لزوجتك؟".. لكنك لا تجد قوة للحب تعارض ما أنت مقبل على السقوط فيه.. "ستتوج بالخيانة يا كريم، وستظل ترى التاج وحدك كل يوم، لن يراه على رأسك سواك".

مرت لحظات قصيرة من البلاهة و أنت تدقق النظر في مفاتنها التي كشفت عن معظمها لك؛ هذا بدون أدنى شك أجمل جسد رأيته في حياتك، جسد استسلم لك بإرادة ورغبة، أرهقه وأذبله غياب المشاعر المحسوسة والنظرات الملموسة، والآن حانت الفرصة ليرتوي قليلًا باسم الحب، أو تحت شعار "ولم لا؟".

هي لا ترى نفسها سوى خاسرة في لعبة الفرص التي تمنحها هذه الحياة الجائرة، ولعل ما يحدث لها الآن مخاضًا لفرصة أخرى تحمل في طياتها مستقبلًا أكثر إشر اقًا.

تعطل العقل، وتمكنت الشهوة من الجلوس على عرش حكم الجسد، فتحكمت لدقائق معدودات، لمعت عيناك وفغرت كما فغر فاك، وهمت على وجهك في عالمها، لكن ثمة من استيقظ من الغفوة مترنحًا ليرى هذا المشهد المفزع، يحاول مستميتًا أن يفتح جفنيه ببطء ليرى الحدث، وليستفيق، وليتحدث.. إنه ضميرك الحي الذي لم يمت بعد، استدرك سريعًا خطورة الوضع، فأعاد لك تذكر خوفك من العو اقب.

انتبهت متوترًا في لحظة حرجة من لحظات العشق، كمن يكبح نفسه عن الانحدار من على سفح جبل بركاني تنحدر حوله الحمم من كل جانب.. تتألم، تهيج، وتكاد تصرخ مانعًا نفسك من الانزلاق أكثر.

قمت منها معلنًا أنك في حاجة إلى هدنة.

- و أنا في حاجة إلى المزيد..

قالتها و أنفاسها تتلاحق وتجذبك نحوها بعنف.

أخبرتها بالأنفاس المتلاحقة ذاتها بلزوم التوقف حالًا.. وإلا... لكنها لا تبالي وتصر على استكمال التجربة للنهاية حتى التشبع؛ إذ المتعة الكاملة التي أدمنتها قسرًا، ثم حرمت منها ظلمًا.

انتفضت إلى الوراء في عنف غير متعمد، مبعثرًا كل شيء حولك بما فيه قطع كبيرة من كرامتها.. قلت بحسم وبأنفاس متسارعة:

- لاااا.. لن نفعل ذلك، ليس الآن، ليس الآن على الأقل.

احمرّ وجهها خجلًا وغضبًا، واعتدلت وهي تأخذ ببعض ملابسها المشتتة هنا وهناك، ثم التقطت الهاتف لتضرب بإصبعها على شاشته بكل عنف، فتوقف السيل الناعم من أغاني فيروز، ثم رمت به على السرير وتجاوزتك لتدخل حمام الغرفة.

نفخت بكل ما أوتيت من قوة، وجلست على حافة السرير واضعًا رأسك بين كلتا يديك، تذكرت ذعرك أثناء النوم في ليالي العراق، مستيقظًا فزعًا على صوت الأسلحة النارية.

"لا بأس.. لقد قمت بالفعل السليم".. قلتها لتهدئ من روعك.

خرجت بعد قليل مرتدية ملابس السباحة والمنشفة تتدلى من فوق كتفيها على ذراعيها، قالت كأن لم يحدث شيئًا:

- هل سنقضي كل الوقت داخل الغرفة؟ هيا لنسبح قليلًا.

بالفعل بدت كأنها لم تتأثر بشيء مما حدث منذ دقائق، أما أنت فاحتشدت الكلمات بداخل فمك بين التأثر، والاعتذار، والشرح الطويل الممل.

كانت في ذروة فتنتها بما يفوق قدرتك على الصبر.. قلت لها:

- هل تقصدين أننا سنسبح أمام الناس و أنتِ بهذ العُري؟

- وما يمنعني؟ هل لك سلطان تفرضه عليّ؟ ثم إن جميع من بحمام السباحة على درجة من التحضر والرقي، لا يهتمون بهذه الممارسات الشهوانية الحقيرة، فقط المجتمعات الغارقة في الجهل والتخلف هم من يضيعون الوقت في هذه الحسابات المعقدة، لقد خلقنا الله أحرارًا يا باشمهندس.. أتعجب أحيانًا عندما أحاول أن أربط بين طريقة تفكيرك هذه ومكانتك العلمية والعملية.

- لو كنت زوجك لمنعتك، أما و أنا صديقك فلن أقبل على الأقل أن أصطحبك و أنتِ بهذه الصورة.

استنكرت قائلة:

- زوجي!

ثم تصدّعت حوائط الغرفة بضحكة صارخة مستفزة منها قبل أن تضيف:

- لقد وافقت أن آتي معك إلى هنا لأتبين مدى صلاحية ذلك، لكن للأسف فشلت التجربة من قبل أن تبدأ، دع الأمور تسير كيفما تسير.. أنت قلت هذا من قبل.
- لا أذكر أني قلت شيئًا كهذا.
- بلى قلت.. دعِ الأفعال تحدث إذا سبقها الإحساس، أليس كذلك؟
- بلى، قلت ذلك.
- وها هي الحقيقة وضحت.. لا دافع ولا إحساس داخلك نحوي.

غادرت الغرفة وهي تجر أذناب الغضب والغيظ، وقد تأجج بداخلها نيران شهوة قد شوّهت للتوّ بانطفائها المفاجئ.

ألقيت بنظرك على حوض السباحة من نافذة الغرفة، وجدته خاليًا إلا منها ورجلان قررا أن يسبحا مثلها في هذا الطقس البارد.. احتقن وجهك من نظرات أحدهما لجسدها العاري، وهي أيضًا تبادله نظرات جريئة! زاد من حدة غيرتك أنه شاب وسيم جدًّا مثلها، كأنهما متلائمان.. حتى مع ارتدائه تلك النظارات الشمسية السوداء كان في غاية الوسامة، أما الرجل الآخر فهو على الأرجح قد شارف على الخمسين من العمر، فلم تلتفت إليه حتى لو بدأ معها حديثًا.. ما العمل مع هذه الثائرة؟!

ابتعدت عن النافذة لما رفعت رأسها لتتأكد إن كنت تتابعها أم لا، وجلست لتقلل من سرعة دورة الدماء التي تغلي في عروق جسدك بأكمله.

استغللت غيابها لتتحدث إلى علا التي تعلم أنك في مهمة عمل بالإسكندرية لمدة يومين، ثم أجريت مكالمة أخرى مع هدير فأخبرتك أنها كانت على وشك التحدث إليك بشأن عامل يدعى إبراهيم، يقول إن لديك حقيبة تخصه كان قد أودعها في شقة بالرحاب منذ شهور.. عصرت ذاكرتك بكثير من حك جبهتك وسألتها:

- ما اسمه بالكامل؟ وما الذي حدث حينها ليترك لي حقيبته؟

كانت تسأله وتجيبك في الحال:

- يقول إن اسمه إبراهيم خلف.،وكان يعمل معك في شقة الرحاب، حيث اختلفتم في شيء و أنك اتهمته بإفساد أعمال الطلاء في هذه الشقة.. في النهاية رفضت أن ترجع له حقيبة أدو اته، وهو يأمل أنك قد تجاوزت عنه الآن بعد هذه الشهور المنقضية.
- إبراهيييييم.. نعم لقد تذكرته، هذه الدنيا صغيرة حقًّا، اعطِ الهاتف له بعد إذنك يا هدير.

جاء صوته الأجش من خلف السماعة قائلًا:

- كيف حالك يا باشمهندس كريم؟ آمُل أنك قد سامحتني على ما كان، والله لقد خسرت كثيرًا منذ ذلك الحين واستحييت أن أطلب منك الحقيبة بعد هذا الخطأ غير المقصود.

قاطعت حديثه قائلًا بغلظة:

- لا يا إبراهيم لم يكن خطأً غير مقصود، لقد كان إهمالًا وسوء تصرف منك.. عمومًا لقد تحملت أنا هذا الخطأ وقتها و انتظرتك كي تتواصل معي لتعتذر أو تطلب حاجياتك ولكنك لم تفعل.
- كنت محرجًا منك يا باشمهندس، وعلمت أنك قد كلفت عاملًا غيري بالمهمة، لكن والله العظيم...
- لا داعٍ للقسم.. حقيبتك محفوظة تستطيع أن تمر علي بالبيت بعد يومين وسأسلمها لك، لقد كانت طوال هذا الوقت في سيارتي لكني أفرغت محتويات السيارة في المرأب.

قال الرجل بحرج شديد:

- عدم المؤآخذة يا بشمهندس، لقد كنت في أشد الحاجة للحقيبة اليوم، فقد حصلت على مهمة عمل تبدأ من صباح الغد وأخشى إذا تأخرت أو اعتذرت عن تنفيذها أن تضيع الفرصة.
- ستتعب قلبي معك يا إبراهيم.. على كل حال خذ عنوان البيت من الآنسة هديروإذهب حيث هناك، وسأبلغهم أن يجهزوا الحقيبة لك.

قال بصوت تغشاه السعادة:

- ليت كل الناس مثلك يا بشمهندس! أنا عاجزعن الشكروالله.

أنهيت مكالمة عم إبراهيم وكتبت رسالة نصية إلى علا تستعطفها كي تحضر حقيبة الرجل من مرأب السيارات أسفل البناية، كلفتها هي بذلك لأن الحقيبة قد تحوي ما يخصك أيضًا؛ لذا عليها إلقاء نظرة سريعة بداخلها قبل تسليمها.

رفعت رأسك فالتقت عيناك عيناها، كانت تجفف شعرها بالمنشفة بعشوائية فاتنة.. سألتك بغيظ:

- من تكون الآنسة هدير هذه؟

لقد سمعت هذا الاسم من قبل يناديها به صديقك مراد، فها هي الفرصة قد سنحت لتكتشف من هي صاحبة هذا الاسم.

ما زالت متجمدة أمامك بجمالها الذي لا تعتاده العين فتسأمه، إنها كالتحف الأثرية النادرة، لا تنسحب من عليها الأعين إلا على شوق النظر مرة أخرى.. مع ذلك قد اتفقت مع نفسك على أن الجمال يتناسب طرديًّا مع سلاسة التعامل، فهذه الملكة المتوّجة على عرش الجمال تعتقد أن لها الحق في التكشير عن غضبها لأتفه الأسباب وأهونها، جميع الرعية يمنحونها هذا الشرف ويتمنون أن تطأ أعناقهم أكثر بحذاء عجرفتها، وهي لا تقصر في ذلك أبدًا.. لا سبيل إذن سوى التمرد والثورة لنيل ما تريد منها، فقط حدد بداية ما تريده منها.

- هدير هي مساعدتي ومديرة مكتبي للتشطيبات والديكورات.

كنت تكلمها بوجه جاد ولم تظهر اهتمامًا بالغًا لعودتها أو لسؤالها، فقالت بهمس لين:

- وهل جئنا هنا من أجل العمل؟ أرح نفسك وعقلك قليلًا واسترخ.. ارمِ الحقائب وعم إبراهيم وهدير خلفك و انتظرني هنا على هذا السرير.

نظرت حيث تشير فهممت بقول شيء فسبقتك وأردفت:

- لا تستبق الأحداث، ولا تخشى مني أي فعل ربما تندم عليه بعد ذلك، أنا أريد أن أتحدث معك في أمور مهمة تخصني، لكن و أنت بجواري وقربي، أريد أن أشعر بجسدك يلاصقني ويسندني كما أفعالك كلها معي، لا أريد زيادة عن ذلك.

كنت غائصًا في بحور عينيها محاولًا تصديقها، أومأت برأسك مو افقًا إياها، فذهبت إلى الحمام وتعلو وجهها ابتسامة ماكرة.

لقد كانت هنا منذ عدة دقائق سمحت لها أن تستمع لمكالمتك مع هدير على الأقل، لماذا حرصت على إخفاء سيرتها أمامها؟ حتى مكالماتك لها كنت تجريها بعيدًا عن

مسامعها، مثلها مثل علا.. هل تحترم وجودها أم تخشى غيرتها؟ هي تغار إذن هي تحبك، هذه نظرية مؤكدة تم اختبار صحتها منذ آلاف السنين.. أنت أيضًا تحرقك الغيرة عليها، ما معنى هذا إذن؟

"هدير إذن مجرد موظفة.. مراد هذا ليس سهلًا أو ساذجًا أو غبيًّا ليخطئها، فهو صندوق أسرار كريم.. لماذا فعل ذلك يا ترى؟ كان واضحًا من تصرفاته أنه يرفض علاقتي بصاحبه!".. كانت هذه الأفكار تتقلب في رأسها قبل أن تخرج إليك في ملابس رقيقة كاشفة.

مرة أخرى تريد أن تنتزع الرغبة منك انتزاعًا، تريد رد الصفعة السابقة.. ماذا لو علمت أن امتناعك عنها كان خوفًا من العاقبة، خوفًا من نفسك أن تتدنس باسم الحب أو الشهوة، لم يكن امتناعك عن ندرة رغبة أو عن جفاف منبع الشوق نحوها.

هذا هو الوقت المناسب لتعترف لها.. استند وجهك على راحة يدك، وتمدد جسدك أمام جسدها على سرير واحد.. هذا القرب المغري قد يفسد الحديث مرة أخرى، لكنك ستقاوم. بدأت معها الحديث قائلًا:

- لقد وجدت شقة مناسبة لكِ من حيث كل شيء، على مسافة خمس دقائق من شقتي بالتجمع، وهي لا تحتاج تجهيزات معقدة، سأشرف على كل شيء بنفسي وبدون أجر.

قالت بفرح هادئ كي لا تفسد الاجتماع الحميم:

- أنت أجمل وأروع إنسان على وجه الأرض.

وطبعت قبلة طويلة على خدك.. هذه لحظات من الجنة أو الجحيم، الاحتمالان قريبان جدًّا، الأول أوحاه قلبك والثاني اعتقده عقلك.

- هل بينك وبين هدير علاقة؟
- هدير مديرة مكتبي، لماذا لا تصدقين؟
- أصدقك حبيبي.. لماذا لا تسألني عن دورة اللغة الألمانية التي اشتركت فيها منذ شهور؟
- صدقيني نسيت.. انشغلت أكثر بالبحث عن الشقة المناسبة لكِ ولآدم.
- لقد أتممت الدورة بنجاح وسوف أتقدم بطلب منحة من السفارة الألمانية لعمل الماجستير.

اعتدلت و اكتست ملامحك بالدهشة والتعجب وقلت:

- كيف تفكرين يا نهال؟ لمن ستتركين آدم؟ وهل كل هذا البحث المضني عن شقة لكِ وله بلا غاية؟

اعتدلت هي الأخرى وقالت موضحة:

- من قال إنه بلا غاية؟ سنذهب لنرى شقة التجمع هذه وأنا واثقة من أنها ستروق لي لأنها راقت لك، أما عن آدم سيكون بمأمن مع والديّ.

قلت معترضًا:

- وماذا عني أنا؟
- أنت.. ماذا عنك أنت يا كريم؟

كنت تصارع الغضب حتى لا يطيح بك وبها.

- لا شيء.. ظننت أني ذو قيمة أكبر عندك.

أحاطت ذراعيك بيدها وقالت ممسكة بك بقوة:

- كريم افهمني، أريد أن أغير حياتي كلها، أريد أن أنجح وأذوق طعم النجاح، أريد أن أفخر بنفسي ولن يحدث ذلك إلا إذا هربت بها أولًا، أريد أن أهرب بنفسي من كل شيء ومن كل أحد.

تنهدتما في الوقت ذاته فأكملت:

- أنت إنسان عظيم يا كريم، لا أنكر أنه لولا وجودك في حياتي لكنت انتهيت، تدمرت كليًّا.. لقد منحتني اتزانًا يا حبيبي، لقد أعطيتني الكثير وما زلت تتحمل نزواتي وزلاتي وغضبي وتقلباتي المزاجية والنفسية كل دقيقة.

خفضت رأسها ثم رفعتها مرة أخرى لتقول بحزن:

- لكن بكل أسف.. لست لي.
- كيف.. أنا أحبك!

لقد قلتها أخيرًا لها، لقد انتظرت أن تطرق باب قلبها بهذه الكلمة دهرًا وأنت لوّعتها ولوعت قلبها، قلبها الذي لم يعرف معنىً صادقًا مخلصًا للحب، لكنها الآن جديرة بوضع اختبار يفنّد ما تدعي.

- وما الذي يُثبت حبك لي؟ لقد قدمت إليك نفسي بين أحضانك وأنت أعرضت عني.
- أوليس ثمة طريقة لإثبات الحب غير هذه الطريقة؟
- تزوجني إذن!

انزلق لسانك دون وعي فقلت:

وما يمنع؟!

"أيها المهندس كريم، يا من يجيد الرسم الهندسي والتخطيط الدقيق، يؤسفني أن أصارحك بأن المشاعر لا يمكن رسمها بالأدوات نفسها التي ترسم بها إسقاط ثنائي الأبعاد لإحدى الشقق، الأمر أعقد من ذلك لأنه يتركب من مليارات المنحنيات العشوائية، لن تجد النمط الذي تألفه ليفسر لك القاعدة التي ينبغي أن تتبعها.

ثمة ثغرة في عالمك حادة الجوانب يسقط قلبك منها كلما اقتربت منها لتسترق النظر، تارة يسقط في جميل سلوك إحداهنّ، وتارة يهوي في بحار نقية من الحُسن.. الغريب في الأمر أن الثغرة لا تتسع لتقودك إلى عالم آخر من الرومانسيات والعشق.

عليك حل المشكلة وإيجاد الشفرة اللازمة للمرور.. احفر أكثر تحت طبقات العمل والجد لتجدها مدفونة على عمق بعيد، كن صادقًا في حبك حتى تتسع لك فتمر.. مرحبًا بك في كهف الحب سيدي المهندس، عليك الخروج بالشفرة الوحيدة الصحيحة".

*****

ذهب إبراهيم إلى منزلك كما وصفت له هدير، ونزلت علا بنفسها إلى مرأب السيارات لتجد الحقيبة الرمادية اللون في المكان الذي وصفته لها بدقة، كانت متهالكة والأتربة تعلوها، فأمرت أم محمد زوجة حارس البناية أن تنظفها، ففعلت المرأة سريعًا.. قربت علا الحقيبة من عم إبراهيم ليفتحها، فتقدم وهو يُظهر الخجل.

قالت علا:

- راجع أدواتك يا عم إبراهيم.

تحرك الرجل على الفورولم يكف عن ترديد عبارات الاعتذار تزامنًا مع حركة يده التي تقلب وتراجع كل شيء بداخل الحقيبة، يزيح أداة ليعثر على الأخرى تحتها فيطمئن قلبه، حتى إذا فرغ وانتهى أقام ظهره ممسكًا بكيس بلاستيكي أسود كبير ملفوف بعناية على شيء صغير مقارنة بحجمه، وقال:

- هذا الكيس يا ست هانم ليس لي ولا يخصني من قبل أن أفتحه أو أرى ما فيه، أنا أحفظ كل فرشاة وسكين أو حتى ولا مؤاخذة خرقة في حقيبتي.

ناولها الكيس مفتخرًا بأمانته بطريقة التواضع المصطنع.. أخذته علا لتفتحه على الفور لتجد علبة هدايا صغيرة زرقاء فزِعت لرؤيتها وقُبض قلبها.

كل شكوكها التي دفنتها حية تنبثق من قبورها أمام هذه العلبة الصغيرة، كالموتى الأحياء في أفلام الرعب ترفع الغطاء بوهن الواثقين من حصارك وقتلك في النهاية.

ساعة يد أنيقة مثل التي ترتديها في معصم يدها الأيسر، لا تختلف عنها إلا في اللون، لونها فضي كالذي تفضله صديقة عمرها، والعلبة الزرقاء تتلاءم مع لون الساعة.

*****

بحرقة قلب وانهيار أعصاب اتصلت بجيهان:

- أرجوكِ يا جيهان، لو كنت عزيزة عليكِ وبحق العيش والملح وسنوات العشرة بيننا أصدقيني القول..

ردت جيهان بصوت يملؤه الخوف والقلق:

- ما بكِ يا علا، هل الجميع بخير؟

قالت والبكاء يعكر صوتها:

- ما قصة الساعة الفضية ذات العلبة الزرقاء؟

*****

مراد منفعلًا على الهاتف:

- وعندما أفعل ذلك أنا ولا أرد على اتصالاتك تقيم الدنيا ولا تقعدها، أين كنت كل هذا؟

صوت رقيق يجيبه:

- اهدأ يا مراد واستعد لأننا في الطريق إليك، هل تعلم من يحدثك أم ستصطنع جهلك بي مرة أخرى؟!
- أها، لعلكِ رزان.. أرجوكِ اعطِ المحمول لهذا الرجل لأوبخه.

كانت نهال ترد من خلال السماعة الخارجية للهاتف، تعجبت عيناها من رده فخطفت الهاتف من يدها وحولت المكالمة لوضع السماعة الداخلية وصرخت في مراد:

- هل تريد إصابتي بالشلل أيها الأحمق؟ ارتدي شيئًا سريعًا و انزل لملاقتنا سريعًا.

أغلقت المكالمة ودققت النظر إلى الطريق، وكأن أحدهم قد تقيأ على وجهك، مراد يجاهد لإفساد العلاقة بكل ما أوتي من سفاهة، لولا إصرارها على مقابلته ليكون أول شاهد على نيتكما بالزواج لكان آخر من تقضي معه هذه الأمسية.

- هل تنتظر أن أسألك عنها؟

بوجه مقتضب سألتك، وبمثله أجبت:

- لا أحد، اسم لا صاحبة له من تأليفه، ألم أخبرك بطيشه ومزاحه المستمر؟
- أنت تكذب يا كريم، تبدو مفضوحًا عندما تكذب، أكاد أشفق عليك.. تحمرّ أذناك ولا تلتقي عيناك بعيني أبدًا حال كذبك.

رددت بسخرية:

- ألهذه الدرجة أنا مكشوف أمامك؟!
- و أكثر.

أطلقت صراحك من أغلال نظراتها التي كانت توكزك بها بينما تقود السيارة وثبتت عينها على الطريق مثلك، وأردفت:

- حمقى من ادعوا حلاوة البدايات.. ها نحن نبدأ بالأكاذيب و انعدام الشفافية، القط المهذب الذي ينظر أرضًا كلما ألقت إحداهنّ عليه التحية بالشركة على علاقة بالعديد من النساء.. هدير موظفة تعمل لدي، رزان جارٍ التفكير في دورلها حتى تكون الكذبة مصدقة.. حقًّا تحت السواهي دواهي.

ازدادت حدتها بينما كنت تتوقف بالسيارة أمام منزل مراد لتنتظر قدومه غير المحبب.. قالت بنبرة قاسية ومرتفعة تكاد تصل إلى داخل شقته بالدور الر ابع:

- هل ستتكلم أم لاااا؟

علمت أن الاستمرار في اصطناع البرود والغباء لن يحميك من طيش جنونها الآن، إنها في ذروة غيرتها، سألتها بهدوء حاولت ألا يكون مستفزًّا أكثر:

- ماذا تريدنني أن أقول؟ سليني وسأصدقكِ القول.
- قل الحقيقة.. من هي رزان؟
- مرة أخرى؟ الإجابة: لا أحد.

صرخت كأنها تتحول لمذؤوب متوحش:

- كااذب، وخائن أيضًا، وناقص.. أنت ناقص كجميع الرجال.

وهمت بالخروج من السيارة لولا أن نباح زغلول المتحفز بجوار باب السيارة جعلكما تنتفضان في مقاعدكما، كان يزمجر وينظر إليها في إصرار، وظهر مراد بجواره وهو يهدئه ويربت على ظهره.

بوجه طلق، وفم يلوك علكة كبيرة قال:

- أعتذر عن التأخير.. أهلًا نهال كيف حالك؟

كانت صدمة نباح الكلب ما زالت تسيطر عليكما، فأمرته بجدية أن يتركه بالبيت:

- زغلول لن يأتي معنا.

قال بدهاء:

- أنا من يستحق العقاب وليس زغلول، أرجوك دعني أصلح الأمر.

فتح باب السيارة الخلفي وأدخل زغلول أولًا وهو يحكم قبضته على سلسلته، ثم دلف خلفه قائلًا:

- ولد مطيع.. نهال أرجوكِ تقبلي اعتذاري، أعلم أني سخيف.

قالت وهي تحاذر أن يقترب الكلب ناحيتها:

- هذا المسلسل تضحكون به على طفلة، أما أنا فلا.. لقد فهمت رسالاتك يا مراد إذ كنت تحاول إيقاظي من أحلامي الوهمية، هدير ورزان والعالم من غيرهن، لكن هذا شأن لا يعنيني بعد اليوم.

كدت أن تتكلم لكنها استمرت كمن يقدم عرضًا بالأدلة الداحضة على خيانتك:

- هذا اسم مميز لن يأتي من وحي الخيال يا سيد كريم.. أقنعتني بأن الرجل قد يجد الحب الحقيقي حتى بعد زواجه، لكن ما إن وجده عليه بالإخلاص لهذا الحب، عليه بتقدير هذه النعمة، هذه خيانة خالصة لا شائبة فيها، والحمد لله أن كل شيء اتضح قبل أن ألطخ قلبي بك أكثر من ذلك.

كان انفعالها قد تخطى حد التحمل، فبكت موارية عينيها بيديها، كانت تنهيداتها تتعالى ويزداد معها اقتضاب وجهك وحنقك تجاه مراد الذي صار أمرًا جادًّا لا مزاح فيه، وقد لاحظ ذلك بالفعل فقال بتأثر شديد:

- نهال لا توقفي سريان هذا الحب الوليد لمجرد أوهام.. بالفعل كان هذا اسمًا مميزًا وليس من اختراعي، كيف لا وهو اسم أمي رحمها الله، أنا من عليه المغادرة الآن لأني عكرت صفو احتفالكما بهذا القرار الذي أسعدني.. لو سمحت يا كريم أوقف السيارة.

تذكرت قصة موت والداه التي حكيتها لها، فمسحت بيدها عيونًا لم ترورق بالدموع، وقالت وهي تئن:

- لا، انتظريا كريم.. رحمها الله على كل حال.

لحظات من الصمت المفعم بالتفكير المركز مرت على ثلاثتكم، ما بين حاذق، وغاضب، وماكر.. ثم قلت قبل نزول ستار المسرحية:

- ليس كل أمر قابل للمزاح يا مراد.

فقال بصخب وهو يناولك سيجارة يعلم أنك ستردها:

- مزاح الخير يا صديقي.. ماذا لو تركت لي القيادة أنا وزغلول لأكفر عن ذنبي بخروجة لطيفة وممتعة؟ لن تندما، أعدكما.

قادكما مراد إلى ملهى ليلي قريب من الأهرامات يسمح بدخول الحيوانات المستأنسة، فأيدت نهال الفكرة بشدة، بينما كانت لا تغريك كثيرًا هذه الأماكن الصاخبة التي تمثل ملاذًا للعاطلين أو التافهين من أصحاب البطون المتخمة بالمال مجهول المصادر، لكن ربما يكون هو المكان الأنسب للاحتفال.

*****

في ممر شبه ضيق على جوانبه بطانة سميكة مكسوة بالقطيفة الحمراء كانت خطواتكم الحذرة تقترب وتقترب لتسمع بوضوح قرعات الطبول، الموسيقى عالية تكاد تصمّ الآذان، الأغاني الشعبية المشهورة كانت تُغنى كلها تقريبًا هنا.

تقدم مراد بصدر شبه مكشوف يكاد يفجر كل أزرار قميصه الأبيض، والذي تعجبت منه بحق أن جميع الجرسونات والحراس يبادرونه بالتحية الخاصة؛ إن مراد مشهور هنا إذن.

كنت حريصًا ألا يسبقك كثيرًا كي لا تتعثر مع أحد هؤلاء المرتزقة مفتولي العضلات حالقي رأس الشعر بالكامل، شواربهم وحدها جديرة ببطولة فيلم رعب من الدرجة الأولى، لكن ما دام مراد يعرفهم ويجيد التعامل معهم فلتترك له القيادة هنا، لذا تبعت تعليماته أنت ونهال التي كانت تتأبط ذراعك بقوة.

في واجهة المكان الداخلية تثبت مسرح صغير لم يرتفع كثيرًا عن الأرض التي تناثرت بين أرجائها الطاولات ذات المفارش البيضاء، حيث جلس قلة من الجماهير يقهقهون ويصخبون، ولا تغادر أبصارهم جسد الراقصة المكشوف الذي يتلوى أمامهم كالأفعى على أنغام شعبية مزعجة.. الوجوه مصطبغة بألوان ضوئية بين الأحمر والأزرق

والأصفر، ولا تعرف اتجاه محدد، فلا يستطيع أحد كشف ما يعتري أوجه هؤلاء الناس الذين يرتادون هذه الأماكن.. هل هم هنا ليظهروا حقيقتهم أم ليخفوها؟!

لم تمر دقيقة واحدة حتى جاء فتى لم يتجاوز العشرين خريفًا، رحّب بكم بطريقة أهل البلد، بينما احتضن مراد بحرارة وتعالت ضحكاتهما وعبارات سلامهما، ثم أمر أحد رفاقه ليضع أمامكم الأكواب الفارغة، وزجاجات المياه المعدنية، وبعض أطباق التسالي والمحمصات.

- هذا وائل.. من الشباب المكافح الذي يبحث عن لقمة العيش، يدرس بكلية التجارة ويعمل في الكباريه هنا سرًّا ليستطيع الإنفاق على أمه الأرملة وأخته الكبرى التي ستتزوج قريبًا.. رجل بحق وائل هذا.

ألقى مراد على مسامعكما تلك القصة القصيرة بعد أن غاص وائل بين الطاولات الأخرى، فأكمل وهو يختلس النظر إليه كل جملتين تقريبًا:

- أبوه كان يعمل موظفًا بالبريد وأحسن تربيته هو وأخته، للأسف لم يقدّر له أن يسعد برؤيتهما ناضجين إذ توفي إثر جلطة دماغية في وردية عمل إضافية، لتبدأ من هنا قصة كفاح وبسالة الزوجة أمام جمع من الأوغاد والطامعين.. فالمرأة في غاية الجمال وسنّها كان يسمح لها بالزواج مرة أخرى، وقد تقدم لها الكثير بالفعل لكنها اشترطت على من يرغب في الزواج منها أن يتكفل بتعليم ورعاية اليتيمين، لكنها انتظرت طويلًا لهذا الرجل الشهم الذي يصلح لهذه المهمة الصعبة.
- الحمد لله وائل قد كبر قبل آوانه.. التقيته لأول مرة في أسوان وعملنا معًا، كان صغيرًا جدًّا آنذاك ليترك منزله ويعمل في مدينة تبعد عن بيته قرابة الألف كيلومتر، من وقتها وهو مثل أخي الصغير.

كانت نظرات الإعجاب والدهشة تتجه نحو مراد من قبلك، حتى قلت:

- على الرغم من أنك جئت بنا إلى كباريه أيها السافل فإني قد تأثرت حقًّا بقصة وائل هذا.
- أما أنا فسعيدة جدًّا بفكرة الكباريه هذا، وإن كنت أفضل وصفه بالملهى الليلي.. وأما عن هذا الشاب فهو يعاني من الغباء لا غير، لقد اختار أن يعمل عملًا حقيرًا على أن يجتهد في دراسته ويتعلم لغة أخرى ويسافر لأي دولة أوروبية، هناك سيصبح حاله أفضل ويستطيع أن يرفع من مستوى معيشة أهله، إنه حتى لم يستفد من فيلم "همام في أمستردام"!

أردفت نهال:

- بالمناسبة أيضًا أمه أكثر غباءً منه.. ما الداعي من تضحياتها الباهتة؟ ما الذي جنته سوى مزيد من الفقر لها ولأطفالها؟ على الأقل كانت لتقلل من عدد البؤساء في القصة وتتزوج.. الرجال مستهترون بالمشاعر وعندما يلمحون فريسة ينقضون عليها كالوحوش، لكنهم في الغالب أغبياء لا يرون قيمة ما يمزقون إلا بعد فوات الأوان.

نظرت لمراد مترقبًا ومتوجسًا أن يرد عليها بما يليق، لكنه ابتسم واكتفى فقلت أنت لتجيب عن كلامها:

- وهل الجميع بهذا التوحش والغباء؟ أعتقد أنه تعميم ظالم.
- نادرون جدًّا يا كريم من يخالفون فطرتهم العفنة هذه.

اشمأزت من وصفها، وفكرت في اعتراضات مراد التي ستتضاعف على هذه الزيجة بعد هذا الحوار الصفيق، سينال الجهد منك مبلغه في محاولات إصلاح الخلل في شخصيتها العنيدة، هذه المرأة التي تتطاير حجارة مذيلة باللهب من المنجنيق الذي يحويه فمها، حتى سلطان الحب القاهر لا يرضى بحالتك المخزية تلك.

صاح مراد في الشاب مشغل الأغاني قائلًا: "مهرجان أولاد سليم اللبانين يا شبح".. فلوّح الشاب بكفّه محييًا مراد وقال: "أوامر يا مراد بيه".. هذه مهارات لم تعلمها عن صديقك إلا اليوم. بدأت الأغنية وشرع مراد في الوقوف مصفقًا مع النغمات بطريقة الأفراح الشعبية، ثم دعاكما للرقص فأبيت وصوّبت له نظرة نارية، لكن نهال استجابت وقامت معه، اعتليا المسرح الصغير مع الراقصة واستسلمت أجساد ثلاثتهم كاملةً إلى الإيقاع المزعج الراقص.

للمرة الأولى تتابع عن كثب جسد نهال يتلوى أمامك على الأنغام؛ هذا ما تطلق عليه المجون.. صرت عاشقًا بين ليلة وضحاها لامرأة ماجنة تتراقص بحركات جنونية حرة، تتشنج كل عضلة في جسدها وتهتز في كل اتجاه ممكن، تنخفض، تستقيم، تدور، وتحرك يداها كبدال العجلة، ثم تلوح في الهواء كأنها تمسك بسكين أو سلاح أبيض في مشاجرة غوغائية غادرة، تتمايل لتستند بظهرها على صدر مراد وجسده، وتتبادل الأماكن مع الراقصة التي ما عادت تخطف الأبصار..!

كان صدرك يعلو ويهبط حاملًا قلبًا على وشك التوقف بسبب دبيب الآلات الإقاعية وبسبب الغضب أكثر، كنت خجلًا لا من أحد في المكان، فلا يمكن أن يوجد

هنا من يعرفك، لكن كنت خجلًا من نفسك حيث وضعتها هنا بفرض الحب.. وجدت أنك لا تملك سوى التظاهر بالاستماع والاستمتاع.

"زمان عجيب مالوش حبيب مالوش طبيب بيداوي.. هنروح على فين ونشكي لمين زمان مليان بالبلاوي.. يا ولاد آدم مهيش دايمة دي قيامة قايمة.. هنهرب فين من رب الكون اللي خالقنا، فيه ناس غلابة وناس ديابة عايشين فيها، ووشوش كدابة وشوش خاينة وعاملة بريئة".

"لما اللي منك يجرحك.. طب قولي هيفرحك! بعد أما تتعب ماتلاقيش.. في الدنيا حاجة تريحك.. كنت بعامل الناس بضمير والتقدير خسرنا كتير بس خلاص فهمت اللعبة هلعبها معاكو على كبير".

*****

الرابعة فجرًا.. مؤكد أن الجميع غارقون في سُبات عميق، ربما حماتك هي من توشك على الاستيقاظ الآن لأداء صلاة الفجر، لقد صارت أكثر التزامًا بالعبادات بعد وفاة زوجها.

يفترض أنك عائد من سفر كان غرضه العمل، لن تجد من يسألك غالبًا.. أولجت المفتاح في الباب المصفح ولاحظت أنه يُفتح معك بدون أن تدير المفتاح أكثر من مرة؛ لا تنفك علا تنسى تأمين الإقفال جيدًا.. ما إن فُتح الباب حتى تهادت إليك ضحكاتهن...

- ها هو كريم قد عاد.

قالتها علا وهي تهرع إليك لتحمل عنك الحقيبة، وتبعتها جيهان مرحبة:

- أهلًا أهلًا بأخي الغالي..

وقفت في منتصف محيط الاستقبال وحييتهم جميعًا قائلًا:

- مجتمعين عند النبي.. ما شاء الله. مرحبا جيهان، أخيرًا و افقتِ صديقتك على تقضية بعض الوقت معنا.

قالت علا:

- ادخل الغرفة لترتاح وتغيّر ملابسك حتى أجهّز لك الحمام.

تبدو لهجتها رائعة بخلاف طبيعتها المشاكسة، لم تغِب عنها سوى يومين فقط، إنه قدوم جيهان الذي أثّر عليها إيجابيًّا ولا بد.. انصعت إلى ما وجهتك إليه مديرًا ظهرك لهم، فقالت جيهان:

- سأعود غدًا، أنت تعرف أنهم غير معتادين على غيابي، أنا هنا منذ أن سافرت أنت.

- حسن.. سأوصلك غدًا.

لا يحل التعب إلا مع انتهاء الرحلة، ولن تشعر بحاجتك الشديدة للتبول إلا عند دخول المنزل، ناهيك بالجوع، والعطش، والنعاس.. كلها أشياء لا تتكالب حولك إلا بعد العودة إلى البيت، ولذلك اختصرت الكلام مع جيهان وتوليت عنها مرة أخرى.

- كريم لا تنام، نريد أن نتسامر قليلًا، سأنتظرك بعد أن تبدل ملابسك وتتناول شيئًا من الطعام.

استدرت لها وقلت بلهجة ساخرة:

- أنتم بلا عمل ولا شغل حبيبتي أما أنا فلدي مكتب ينتظرني في الصباح الباكر.. انظري في ساعة يدك لتحسبي السويعات التي سأنامها.

نهضت من الأريكة سريعًا ونظرت في ساعة يدها مشيرة إليك بإصبعها عليها وقالت:

- ستنام لخمس ساعات إذا سهرت معنا ساعة واحدة، أنتم لا تبدؤون العمل بالمكتب قبل العاشرة أو الحادية عشرة.
- أولًا.. عندما أفتح المكتب بنفسي أفتحه في التاسعة، ثانيًا.. أنا متعب جدًّا بالفعل وأحتاج إلى الراحة، ثالثًا.. ابعدي ساعتك ويدك عن أنفي وعيني حتى لا تخرقيها.

تحت المياه الغامرة سرحت قليلًا في نظارتك التي تركتها على الحوض، ألم تلحظ أمام تلك النظارات بسنتيمترات منذ ثلاث دقائق تقريبًا ساعة فضية رائعة! ثمة خطأ ما...

*****

ساد الصمت، وأطفأت المصابيح، وغبت في غابات النوم بلا بداية ولا نهاية.. لم تتقلب على جنب من الجانبين، كنت نائمًا على بطنك كالتمساح، ولذلك لم تشعر بأن علا لم تطأ السرير حتى بزوغ الشمس!

العمل أولًا ثم كل شيء آخر.. ذهبت مسرعًا إلى المكتب الذي لا يبعد كثيرًا عن منزلك؛ عبارة عن شقة صغيرة جدًّا استراتيجية وهادئة، يمكنك فيها التفكير بسلام أو استضافة العملاء، وقد استضفت فيها نهال منذ أيام قليلة.. الشقة أيضًا بها حجرة شاغرة تسمح لك بتخزين بعض المواد والأدوات والأسلاك التي تحتاجها دومًا للعمال.

جلست على المكتب الذي خصصته لهدير وأخرجت ورقة وقلمًا وبدأت في رسم بعض الأشكال الهندسية.

رسمت مربعًا متوسط الحجم وكتبت بداخله اسم مراد، ورسمت مثلثًا وكتبت فيه اسمك، ثم رسمت مستطيلًا وكتبت في وسطه اسم نهال، وأحطت اسمها بخطوط متعرجة زجزاجية حادة، ثم أخيرًا دائرة فارغة كتبت فوقها اسم علا.

قلبك يدق بعنف كأنك ما زلت تراها تتر اقص ببنطالها الضيق الملتصق على جسدها أمام أعين الجميع؛ هل تصدق أنك ستتزوجها؟ هل تؤمن بأنها ستتغير للأفضل؟ إنها تخطط بجدية للسفر لاستكمال دراستها دون مراعاة لشعور أو وجود ابنها آدم.. فماذا عنك! أمسكت بالهاتف وأرسلت لها أن علينا إعادة التفكير بعمق في أمر الزواج.

تعليقها على قصة مراد أمس أظهر شيئًا مما تخفيه؛ الأمر لديها مغاير لما تفكر فيه، وإن كنت تبحث حقيقة عن الحب فالعنوان خطأ إذا ظننت أنه يقع داخل محيط قلبها، أنت بالنسبة إليها مجرد عصا سحرية تقرع بها قبعة سوداء؛ تارة تصيح كن صديقًا فتكن، كن حبيبًا فتكن، كن عاشقًا، كن سمسارًا، كن نزهة جميلة، شهوة عابرة، سهرة لطيفة، زوجًا... من دفع ثمن كل هذا؟ إنه أنت.. ما مقابل كل ذلك؟ أن تتزوجها في النهاية؟ سيكون مخزيًا بالنسبة إليك إذا ما خسرتها بعد كل ذلك، لكنها ليست صفقة على كل حال، أنت لديك زوجة بالفعل ولا تدري لماذا لا تشعر بكيانها حتى الآن؟! تشعر بالنقص لكن هذا ليس دافعًا لأن تتورط في زيجة ثانية، على الأقل تأكد من إحساسك وحساباتك، الأمر ليس بهين.

حتى وإن تنازلت - لا تدري لأي سبب ستتنازل - هل ستتزوجها ثم تتركها لتسافر إلى ألمانيا للدراسة؛ فلن تذهب معها بالتأكيد، سيكون زواجًا مع وقف التنفيذ وبلا فائدة. وماذا عن ولدها؟.. هنا قاطعك اتصالًا من مراد يطمئن على أحوالك بعد سهرة أمس.

- لا أحب أن أوبّخك يا صديقي لكن بعد ما حدث لا أنصحك البتّة بالزواج من هذه المرأة.
- أنا أشعر بخنقة وضيق يا مراد.. أنا بالمكتب منذ قليل أفكر بالأمر، لا أرضاها زوجة لي ولا أقبلها على هذه السجية والطباع، لكني لا أستطيع البُعد عنها.
- لكنك تستحق الأفضل.
- نعم أستحق الأفضل.

انتهت المكالمة القصيرة مع مراد ليطمئن قلبك الذي تأرجح إلى جهة ر افضة الزواج من نهال، حين دخلت هدير بلا استئذان لتتفاجأ بوجودك على غير المعتاد.. قالت:

- أهلًا بشمهندس كريم، صباح الخير.

- أهلًا هدير صباح النور، تعالِ فلتستعيدين مقعدك، سأرحل على الفور.

سألت متوجسة:

- هل كل شيء على ما يرام.

أجبتها مترددًا:

- لا أدري..

مقتربة منك دققت النظر بالورقة أمامك فسمحت بذلك، فقالت:

- هل هؤلاء بخير؟
- كلهم بخير عدا شخص واحد!
- ما بك؟ احكِ لي..

كانت منصتة جيدة وذكية، لم تقاطعك في شيء، تستنتج ما أُبهم من أحداث أو تنتظر لتوضح أنت بعد ثوانٍ؛ ما شجعك على أن تفضي وتثرثر لها بكل شيء لقرابة الساعة الكاملة.. حكيت عن علا وطبيعتها الخلافية معك منذ البداية إلى مرضها الذي ركزت عن عمد أنه قد أعاق ومنع كثيرًا من الأحاسيس المهمة بينكما، حكيت عن رزان بكل تأثر، وقد أدركت من إحساسك الصادق في سرد قصتها أن لها منزلة طيبة في قلبك لا أكثر، لكنها في الوقت نفسه فتاة مخطوبة ترى أن ذلك لا يصح ولا يليق.. أسررت لها عن تعلّق قلبك بخالك الراحل الذي ترك لك جزءًا لا بأس به من المال، ثم انتهى حديثك بقصة موجزة عن نهال وشغفك في الزواج منها كنتيجة طبيعية لكل الأحداث التي عشتها، فاعترضت هدير عند ذكر هذا الجزء، وخرجت عن صمتها سائلة باستنكار:

- لماذا؟
- لماذا ماذا؟
- لماذا لا تضحي من أجل زوجتك؟ ما الدافع لك لتتزوج من نهال هذه؟ هل فكرت إذا كنت أنت المصاب بمرض مزمن أكانت لتتركك وتتزوج غيرك في وجود ابنتك؟ لمَ لا تضع نفسك مكانها؟

لم يخطر على بالك هذا الاحتمال قبل سؤالها الآن، فقلت مبررًا:

- لدي احتياجاتي كرجل، أنتِ لا تفهمين، وما يدريكِ أنها لن تفعل إذا تبدلت الأدوار؟
- من كلامك ووصفك لها وتحملها لسفرك وغيابك المتكرر، ثم إن طبعك يا بشمهندس حاد شيئًا ما.. إن جازلي التحدث كصديقة.

أومأت برأسك لتعطها إشارة بالتجاوز اليسير، لتضيف بتحفظ:

- اسمح لي.. أنت تملك كل شيء؛ زوجة متفهمة وطفلة جميلة واستقرار إلى حد كبير...

قاطعتها معترضًا:

- لكني أفتقد إلى الراحة.. النفسية بالأخص.

ردت بسجية تلقائية مطلقة:

- ربما هذه مشكلة تتعلق بمستوى الرضا داخل قلبك.. في كل الأعمال التي نفذناها منذ وطئت قدمي هذا المكتب و أنت تسعى إلى المثالية والصورة المتكاملة في كل صغيرة وكبيرة، حتى إنك كثير ما تعطي استشارت مجانية لبعض العملاء بل وتنفذ كثيرًا من التعديلات على أخطاء فنية لست سببًا فيها، كل هذا لتنال رضاهم التام وتعلو قيمتك النفسية إلى القمة.
- لكن هذا في صميم العمل يا هدير.
- أتفق معك، لكنه اهتمام أعلى من المنسوب المراد.. أنت تغرق الجميع بخدمات أعلى من طاقتهم وقدرتهم على الشكر أو رد الجميل، ولذلك تكون معظم ردود الأفعال لك أقل من المتوقع؛ مما يشعرك بالضيق مؤكدًا.. أنا أشعر بهذا من معاملتي معك في العمل يا بشمهندس، وأرجو أن تفهمني جيدًا في هذه النقطة تحديدًا.

إن نقدها وإن كان لاذعًا ففيه الكثير من الصحة، بل إنه يتو افق أيضًا مع نصيحة مراد لك عندما أردت أن تهادي رزان بالهاتف الجوال.. ولمَ تذهب بعيدًا، زوجتك نفسها عارضت أسفارك كلها لأنها لا تحتاج للمزيد، عارضت عملك هذا أيضًا الذي يعد مصدر رزق جيد لأنها ببساطة تفتقد وجودك أنت بالمنزل، هذا المنزل أيضًا عارضت أن يكون أوسع بدلًا من أن تطير به فرحًا، كانت تخشى اتساعه وهي وحيدة به معظم أوقات اليوم مع الطفلة. فعلى أي شيء انتظرت منها شعورًا ممنونًا، أنت قدمت للكثير ممن حولك كثيرًا مما لا يطلبونه أو يحتاجونه، فكان عبئًا عليهم وليس تفضلًا.

سرحت في كلماتها التي قالتها منذ ثوانٍ.. "لكنه اهتمام أعلى من المنسوب المراد".

- يعني المشكلة عندي في النهاية.. زمن غريب أن يلام المرء على أفعاله الطيبة مع الناس.
- الأفعال الطيبة لا بد وأن تقاس بحكمة من ناحية حجمها ووقتها والأشخاص الموجهة إليهم.

قلت ضاحكًا بقليل من السخرية:

- **على هذا التحليل أنا مريض نفسي إذن.**

ردت بجدية متجاهلة سخريتك:

- **فلتذهب إلى طبيب نفسي إذن، لا أن تتزوج على زوجتك المريضة بمرض أنت قلت إنه خطير.. ماذا لو اكتشفت أمر زواجك، ستكون سببًا في موتها لا قدر الله.. هل لمجرد أن البيت غير نظيف تمامًا أو لكونها مجادلة عنيفة تنهار حياتك بالكامل؟! يا بشمهندس كريم، حل مشكلاتك بمنطقية ولا تهرب منها إلى أنثى أخرى.. تارة رزان وتارة نهال.**

لم تجد ما تقوله فأنهت هي الحديث معتذرة:

- **أعتذر إن انفعلت قليلًا.. هي امرأة مثلي وأعلم كيف يكون الشعور.**

بعد برهة قلت مغادرًا المكتب:

لا بأس.

وكوّرت الورقة وألقيتها في سلة المهملات.

الهدية المنسية

- هل تعتقدي بأنه قد لاحظ الساعة في يدي؟

وجهت جيهان سؤالها لعلا وهي تحتسي الشاي بالحليب، فأجابت علا بوجه أضناه السهر حتى الصباح مع صديقتها المحببة وأخت زوجها:

- كريم يلاحظ كل شيء.

ثم أضافت متحسرة:

- هل تعلمين يا جيهان.. كنت لأسامحه إن كان خانني وعرف أخرى غيري في علاقة سمحت له بتبادل الهدايا معها، لكنه أخفى عني هذه الخيانة وكذب عليّ.

قالت جيهان في محاولة للتخفيف عن علا:

- حبيبتي هناك فرق بين ذنب عابر وخيانة كاملة، كريم لم يخُنكِ ولا أعتقد أن لديه الوقت أو الجرأة لفعل ذلك إن شاء.. أنت تعرفين أنه لا يجيد شيئًا في الحياة غير العمل.. نحن نتكلم طوال الليل وحتى شروق الشمس وهو قد نام لساعات قليلة دون أن يأكل ليستيقظ ويذهب إلى العمل دون راحة تُذكر.. ألا ترين أنه مشغول للحد الذي لا يكاد يراكِ أنتِ أو سارة.
- إذن أوجدي لي تفسيرًا آخر لما أسرّه لكِ بخصوص هذه الساعة.. لقد كان يعلم جيدًا أنكِ من عشاق الفضيات، فلمَ قدم لكِ حينها كل هداياكِ وكان بينهم تلك الساعة الفضية؟! باغتّه أنا باستفساري عن هاتين الساعتين المتماثلتين الموجودتين بين بقية الهدايا فادعى أنها لكِ! كان يكذب إذن، لكن الذي لا أفهمه كيف غفل عن تركها مكشوفة هكذا وقلّما يخطئ خطأ هينًا! فكيف بهذا الخطأ؟!
- لا يوجد من لا يخطئ يا حبيبتي...

قاطعتها علا بحزم:

- أخوكِ لا يخطئ يا جيهان، ربما هو شحيح المشاعر لكنه كالآلة المبرمجة بذكاء بالغ وهذا الأمر يعييني، لا ينسى شيئًا أطلبه منه، لا يعمل عملًا ينقصه الإتقان، لا يقصِّر في رعايتي ومتابعة علاجي مع الأطباء.. أنا من يفعل

الأخطاء دومًا وليس هو، لا يترك لي فرصة أن أحاصره بعيوب مثل التي يحاصرني بها، صرت أكره أسئلته المتكررة: "ماذا فعلتِ منذ الصباح؟ لماذا نسيتِ كذا وكذا..؟ لماذا لا تتبعين الإرشادات الصحية؟ ماذا تعلمت سارة اليوم؟ لماذا البيت غير نظيف وغير منظم؟.. كلها أسئلة إجابتها دومًا لا ترضي طموحاته الفلكية وتشعرني بالنقص والتفريط والتقصير، وعندما لا أجد مفرًّا من حصاره أهاجمه وأجادله بدوري حتى يمل أو ينتهي الصراع ببعض المكاسب الوهمية لي.. أنا أعترف اليوم بكل ذلك لكني لا أجده دافعًا ولا مبررًا له لخيانتي.

قالت جيهان بودّ:

- علا حبيبتي، أنتِ تفعلين ما بوسعك وتقدير ذلك من قبل كريم يختلف عن تقدير غيره من الرجال.. انظري حولك: منزل كبير ومكان جميل، أجهزة توفر عليكِ العناء والوقت، يأتي لكِ بخادمة كل أسبوع لتساعدك في كل شيء، هدايا كثيرة بمناسبة وبغير مناسبة.. هذا هو الحب عند كريم، يتخذ شكلًا من الأشكال المادية في الخدمات والرعاية أكثر منه في المشاعر والأحاسيس الرومانسية.
- كل ذلك جميل ورائع، لكن لا أقبل الخيانة يا جيهان، أبدًا لن أقبلها.
- ماذا لو كانت مجرد نزوة عابرة؟
- يعترف بها ويطلب السماح وسأسامحه.. لا أملك إلا أن أسامحه لأنني أحبه، لكن على وعد ألا يتكرر الأمر.

سكتت جيهان تفكر في الأمر ثم قالت:

- من الحكمة الآن ألا نعيد النبش في ما دفنه الزمن..

لم يستطيعا إكمال حديثهما بسبب صوت غلق باب الشقة الذي أعلن مجيئك. لاحظت همسهما فتوجهت إليهما محييًا:

- كيف الحال؟

لم تلحظ علا ما كانت ستوصي به جيهان، فتسرعت قائلة بنظرات غاضبة وجهتها لك:

- تُرى ما الذي يجعل ساعة يد ذات طلاء ذهبي لامع تتحول للون الفضي؟ أي مسحوقٍ تستعملينه يا جيهان يمكنه فعل ذلك؟ هل لديك تفسير مقنع يا كريم عما حدث؟!

ارتجفت جيهان لفعل علا المتسرع العابث، والذي قد يشعل بينكما مشاجرة لن تستطيع هي أن تطفئ سعيرها.

همّت قائلة بتردد:

- ااا.. لا عليك كريم، سوف...

قلت بابتسامة هادئة أعددتها خصيصًا لهذه المناقشة المتوقعة، وكنت قد تذكرت أمر الساعة التي أخفيتها سابقًا في حقيبة إبراهيم:

- أفضّل إجابة الآن عن ما حدث أنه قد حدث و انتهى، وقد نسيت الأمر برمّته وتفاصيله، و أنا أدعوكِ للفعل نفسه يا علا.

كانت علا تعضّ على إصبعها وتنظر إليك وفي أوصالها رجفة منذرة بصدمة عصبية أخرى أو إغماءة جديدة على أقل تقدير للأمر.. بات ذلك متوقع الحدوث مرة أو مرتين كل شهر، بسبب أو بدون سبب.

قالت بتوتر شديد:

- يعني أنت تعترف بالخيانة، و أنه قد حدث شيء بالفعل!

وأجهشت بالبكاء بينما سارعت جيهان لتهدئتها، فقلت محتفظًا بالابتسامة الباردة:

- حتى هذه المواضيع لا تناقش هكذا وأمام أختي أيضًا، لا داعي لإحراجي أمامها.

- حصل خير يا كريم.

قالتها جيهان لتهدّئ الأمور بينكما، بينما استمرت علا في البكاء بحرقة.. احتضنتها جيهان وأشارت بيدها إليك أن تغادر الآن.. بالفعل اتجهت متباطئًا نحو غرفتك متفهمًا لماذا تركتها علا البارحة ولم تنم معك.. مع هذا أتتك كلماتها المختنقة بين البكاء واللغط:

- خانني يا جيهان، خانني..

استدرت لتنظر في عيني جيهان نظرة لوم قاسية، فطأطأت بعينها على كتف علا متأسفة ومتوارية عن نظرتك الاتهامية.

*****

هل أنت خائن فعلًا؟ وما الخيانة إن أردت تعريفها؟ إنّ تباين مفهوم الخيانة ومعانيها يجعل من الجميع خونة بلا استثناء، لكنك ترفض اتهام الخيانة في علاقة رزان، ولا تدافع عن نفسك لأنك تحمل على عاتقك آثار خيانتك مع نهال.. صوت

بداخلك يصيح أنك تنبهت في وقت مبكر، لكن شيطانك اللئيم يلومك مذكّرًا إياك بالتخطيط المسبق.. هل نسيت ما حدث في المكتب؟

وهل تختلف التهمة في حالة أن ما تفعله مع نهال حبًّا طاهرًا نقيًّا من شوائب الشهوة؟ وهل يوجد حب بلا شهوة للجسد؟ من حقك أن تتزوج على زوجتك ما دمت ستعدل بينهما، وتقدر على تحمل تكاليف الزواج، لكن كيف لك أن تتزوج إن لم تحب من ستتزوجها أولًا أو تميل وتنجذب إليها قبل أن تقرر هذه الخطوة الغليظة للمرة الثانية في حياتك، لكنك لم تتبع هذا النهج المرتب مع علا، لقد اختلفت المعايير خاصتك، صارت أسوأ في الحقيقة، ربما لأن قلبك هو من يسعى للأمر هذه المرة.

حضر في ذهنك الآن ما نصحك به مراد في الساحل: "على الأقل عندما تتزوج للمرة الثانية تزوج بمن هي أفضل، أو لتكن على القدر نفسه من الخُلق".. مراد على حق.. إن كنت ولا بد ستتزوج مرة أخرى فلتكن تجربة أفضل، ولا شك أن ما تبشر به نهال كل نهار وليل ينذر بكارثة اجتماعية ربما تطيح بما شيّدته من قلعة راسخة قديمًا، فهل ترضى بأن تهدم قلعتك الراسخة من أجل كوخ اجتذبك اختلاف طرازه، يوشك مع أول ريح تهبّ أن يتمزق إربًا؟

*****

- أكاد لا أصدق عيني.. أخيرًا وقّعتِ العقد وأصبحتِ مالكة للشقة! هل تودين البدء في أعمال الديكورات والدهانات منذ أول الأسبوع أم كيف تفكرين؟
- لن أفكر في شيء الآن سوى الإعداد للسفر يا كريم.

ردت نهال بطريقة عملية بحتة دون أن تشكرك على الشقة التي توسطت بينها وبين صاحب البناية في خفض السعر، على أن تنفذ له بعض الأعمال الفرعية التي تخص بناية أخرى ملكه في المقابل.. كان يُحزنك إهمالها لتفاصيل مثل هذه؛ لو باتت تبحث عن شقة طوال حياتها ما حصلت على هذه الشقة في الحي نفسه الذي تسكن فيه، وبهذا السعر أيضًا.

لكن ربما هي تخفي استياءها بسبب رسالتك التي لم تجِبْك عليها حتى الآن، علقت الموضوع كأنه شيء عابر لا يستحق الأهمية، لم ترد ولم تفكر بعمق، فقط تجاهلت الأمر كأنه لم يكن، لتتعامل بطريقة جديدة عليك كأنك شخصًا عاديًّا جدًّا.

- هل تعرفين المهندس ياسر عبد الهادي؟
- ومن لا يعرفه؟

- سليه ما شئت عن السفر لألمانيا وسيجيبك ويرشدك.
- سأعرض عليه الأمر، لكني سأخبره أنك من نصحتني باستشارته.
- لا بأس.. الرجل عاش هناك ثلاث سنوات وعلى دراية بكل ما تحتاجين معرفته.

عليك إزاحتها برفق عن طريقك ما دامت اختارت طريقها الخاص، لتكن أول من يساعدها على البُعد عنك حتى يسهل عليك نسيان حبها.. حب أم تعلق؟ لا تجيد وصف الإحساس، المؤكد في الحالتين أنه أمر يجعلك لست أنت كما لاحظ مراد، فليجعلك نسخة أخرى منك أفضل من السابقة وستتمسك بها، لكن هذا لا يحدث حتى الآن مع نهال.

صارت حياتك دائرة متكررة من الجحيم، كلما رأتك علا تشاجرت معك لأتفه الأسباب، وينتهي الأمر دومًا بإغماءة يتشارك جميع من بالبيت بما فيهم سارة في محاولات إنعاشها و إفاقتها.. لا تبرئ نفسك ولا تستسلم لحكمها عليك بالخيانة، أنت خائن في طيات ضميرك لكن في رو اية أخرى لا تعلم هي عنها شيء، أما ما حدث مع رزان فلا تقبل بتاتًا صفة الخيانة فيه؛ حفاظًا على قيمة العلاقة التي كانت بينكما، والتي لا تتذكرها إلا بالحُسنى.

حقائق مختفية في قلبك وعلى أرفف ذاكرتك تود لو تخلصت من ثقل حملها، لكن ما حدث قد حدث بالفعل كما ذكرت. قد يعلم مراد بعضًا من الحقيقة، وقد تعترف لهدير بشيء منها، وقد تكتشف جيهان بعض آثار لجريمة ما في ظنها، لكن الحقائق الكاملة لم يسبر أغوارها سواك، ولم يرها بوضوح إلا أنت، ولا تستطيع التحدث عنها كما هي عليه لغيرك.. الموت عندك أرحم من أن يعلم أحدهم كل شيء، حاصر نفسك بنفسك لكن لا تدع أحدهم يفعل؛ لأنك ستكذب وستصدق الكذبة وربما تعيشها و اقعًا لا ريب فيه بعد ذلك، لكن هذه الحقائق لا تموت ولا تخرس مهما تغير الزمن ومر.. رزان تعود في زي الذكرى كالشبح بالملاءة البيضاء، ونهال إذا غادرت ستعود هي الأخرى في ثوب مرقع بالذكريات، وكل عائد يطرق باب اللعنة الدائمة في أعماق قلبك، تلك الفتنة النائمة، تتلهف لمن يوقظها وإن همس!

*****

نهال صارت أقوى كلما استغنت عنك، لكنها ما زالت تميل إلى الاعتمادية لتزيح عنها ما يتقدم به رجل يهيم بها، تتعمد إيذاءك والتلاعب بك؛ تقول إنها على علاقة

بشاب سوري يعيش في ألمانيا وحده، يدرس ويعمل وعلى استعداد ليمد يد العون لها حالما تقدم إلى هناك.

ذات مرة رغبت في اصطحابك للمنزل الجديد لتفاجئك بما أنجزته وحدها من أعمال.. ظننت أنها تستدرجك بعيدًا عن أعين الناس لتجدد الشوق بداخلها، و ابتسمت بخبث عندما تخيلت ذلك، وتخيلت أيضًا أنك لن تقاومها بقسوة هذه المرة؛ أنت رغم كل شيء تائه في دروب الهيام بجمالها، وقد اشتقت إليها بحق.

صعدت معها البناية فتوقفت لتخرج سلسلة مفاتيحها، فلاحظت أنها قد غيّرت باب الشقة كاملًا، فقلت بطبيعتك:

- لماذا غيّرتيه؟ كان أفضل وأمتن من هذا.

فضحكت ضحكة صغيرة ولم ترد.. فتحت الباب لتشاهد شقة جاهزة من كل شيء بإمكانيات عملية وبسيطة، لا يوجد ديكورات لكن الدهانات معقولة جدًّا، الأثاث غربي قليل القطع، هناك شاشة عملاقة أيضًا، لا ينقص المكان سوى بعض الستائر، لكنك لن تحدّثها عنها الآن.

لا تدري لماذا أصابتك الحسرة، وتوقفت غصّة خانقة في حلقك حشرجت صوتك، لعلك أدركت أن احتياجها لك قلّ و انحسر، هذا ما يفسر قلة رسائلها التي كانت تحمل متطلبات لا تنتهي، هذا السيل الجارف من الإزعاج لا يكاد يقطر الآن.. قطعت شرودك قائلة:

- ما رأيك يا بشمهندس؟ ألن تبارك ما قمت بعمله؟

قلت وقد احمرّ وجهك:

- مبارك! هل قمتِ بكل ذلك وحدك؟

ببرود أجابت:

- بالطبع لا.. بعض الأصدقاء ساعدوني، لكني اكتسبت من الخبرة ما أستطيع أن أنافسك به في هذا المجال.

وأخرجت لسانها لتغيظك على سبيل الدعابة.. ليست هذه بدعابة، من هم الأصدقاء الذين ظهروا في حياتها فجأة وتقرّبوا منها لهذه الدرجة.. لقد صرت بديلًا لأحدهم، كلاعب الكرة الذي سرق الأضواء وتألق في موسم، وتصدّر بأهدافه وأرقامه قائمة اللاعبين المهرة، ثم الآن جاء دور غيرك ليتمتع بالصدارة وليأخذ حظه من تلك القمة، و أنت ليتك تنافسه حتى، بل في طريقك للانحدار إلى نقطة الأصل.

قلت بدهشة غلّفتها ابتسامة مزيفة مرتعشة:

- أصدقاء! منذ متى صار لديك أصدقاء تثقين بهم؟
- كريم لا تكن غبيًّا، وهل يستطيع أحد أن يعيش بلا رفقة؟!

ثم تحركت آخذة بيدك لتطلعك على ما تم من أعمال أخرى في الشقة.. فتحت أبواب الغرف وهي تخبرك بما خصصت به كل منها، وتخطت غرفة واحدة لم تفتحها، كاد الفضول أن يفتك بك لتفتحها أو تسألها عنها، لكنها سحبتك من يدك مرة أخرى لتلقي نظرة على غرفة نومها..

- ما رأيك في الألوان والأثاث؟
- جميل، ذوقك رائع!
- في الحقيقة ليست ذوقي لكنها أعجبتني.

لم تعد تحتمل خبايا أكثر من ذلك، فقلت لتثير غيظها حتى تثور بما تبطن:

- لا بد أن لكِ صديقة مثل هدير.. ألم أخبرك.. لقد أصبحت خبيرة بفن الديكور.

قالت بابتسامة ساخرة:

- اسمه عمرو.

كدت تختنق بالفعل.. اسمه عمرو! لديها صديق مقرب اختار لها ألوان وديكورات غرفة نومها واسمه عمرو، ماذا أيضًا يا ترى؟ هل خصصت له تلك الغرفة المغلقة ليقيم معها بعض الليالي؟ لكن لا.. لن تهزمك، ولن تنسحب من أرضها لتلوذ بالفرار تتبعك الحسرة دون أن ترويها من الكأس الذي تتجرعه الآن نفسه.

قلت بنبرة الواعظ لتستلطفها:

- نهال حبيبتي، أنصحكِ أن تتريثي في تطوير علاقاتك بالآخرين.. عمرو أو صديقك السوري هذا أو غيرهم، أعني الأصدقاء ليسوا بكثرتهم، لديكِ طفل أيضًا لا بد وأن يفخر بأفعال أمه، أرجو أن تتفهمي وجهة نظري.

ثبتت عيناها في عينيك وقالت بجدّية:

- كريم يا صديقي، أنا لست بحبيبتك، هذا أولًا.. ثانيًا، أنا من يحكم على أفعالي وليس ثمة مخلوق له الحق في فعل ذلك غيري.
- ما بكِ يا نهال؟ لقد تغيرتِ كثيرًا في غضون الأيام الفائتة، هل كل ذلك بسبب أننا أجّلنا مشروع زواجنا قليلًا لنفكر بعقلانية أكثر؟

انفعلت قائلة:

- اخرس يا كريم، أنا لن أتزوجك أبدًا.

- تعلمين أني أحبك.. فقط أردت أن نرتب بعض الأمور، هل تظنين الأمر لعبة سهلة؟
- طفح الكيل من اللعب سهلًا كان أم صعبًا يا صديقي، أنا أبحث عن الأمان، ولقد تعلمت معك أن طريقه الوحيد هو المال؛ لذلك سأسافر وسأعود أفضل مما كنت عليه.. أما الأمان عن طريق الحب فلن يملكه بالأحرى رجل يحبني يومًا ويتردد في حبه لي في اليوم التالي، لا أريد رجلًا يدمن إصلاح أخطائي أكثر مما يدمن حبي على ما أنا عليه، لا أريد أن يتملّكني أحد أو يسيطر عليّ بإلحاحٍ مزعج لأسير في الاتجاه الصحيح.. انتقاداتك لا حصر لها معي، تجعلني باستمرارية تحت ضغط إعادة التفكير وتصويب ما فعلت أو الاعتذار عنه.

قاطعتها مدهوشًا:

- كل هذا أنا؟
- وأكثر.. أنت فضولي ليس بدافع الحب وإنما لتعرف كل شيء، أنت نرجسي ليس بهدف تقدير الذات وإنما لإرضاء الأنا الزائفة بداخلك.. حاول أن تنسى قليلًا أنك ملاك لا تخطئ ولا تتعامل مع البشر بفوقية متكبرة.. وهل كنت تظن أنني سأكتفي بعقل رجل دون قلبه؟

كانت تلهث من الانفعال بينما أنت واجم متجهم من سيل الإهانات والتجريح، لا تجد ما ترد به عليها؛ لقد جُرحت في أعماق قلبك على لسانها الحاد السليط، أوقعتك في فخّها وانهالت عليك بعدوانية لا تستحقها.. أنت لا تستحق ذلك.. لا تستحق ذلك!

- حتى وإن كنت كالملاك معكِ ستتذمرين مما يتساقط من ريش أجنحتي على سجادتك الجديدة.. يا صديقتي.

انصرفت بهدوء تصحبك الغصّة، وتركت لها تلك الكلمات التي اعتقدت كم هي سخيفة ومبتذلة.. هكذا أنت دومًا لا تجيد صياغة الشر الكامن بداخلك على هيئة كلمات قاسية؛ نوع من الضعف لا يليق برجل مثلك.

*****

في هذه الليلة اصطحبت مراد في جولة بالسيارة بدت بلا هدف.. كنت محتقنًا والدماء تكاد تنفجر من وجهك، رأى مراد ذلك فلم يشأ معارضتك أو إجبارك على فعل أي شيء، واكتفى بتشغيل بعض الأغاني المبهجة والصاخبة من هاتفه الذي وصّله

بسماعات سيارتك ليخرج الصوت أعلى و أفضل.. أحيانًا الصخب قد يشوّش على لغط المعارك الدائرة في الرؤوس.

توقفت بالسيارة في شارع هادئ جدًّا ليس بعيدًا عن بيتك، مرت ثلاث دقائق من الصمت إلا من صوت قرضك لأظافريدك وجلد أصابعك بشكل من الغلّ.. تنحنح مراد ليمهد بدأه بالكلام وقال:

- من الطبيعي أن ننجذب نحو الجمال الخارجي، هذا هو الإعجاب الذي يدفعنا لأن نقترب أكثر.. نود أن نرى ما خفي لأننا نعلم أن ما خفي أعظم.. أعظم جمال بالضرورة لأن هذا ما قرأناه على غلاف الكتاب الخارجي.

خفضت صوت الموسيقى حتى لا تتضاعف مسببات التوتر، وقلت:

- لن أهدأ حتى أرى الأيام تلقنها درسًا.. ستحتاجني وستعود ذليلة بالتأكيد، أنا متيقن من ذلك، لكن وقتها لن تجدني متفرغًا لها.
- املأ قلبك بحب عائلتك يا كريم، فالقلب الفارغ يتقبّل أي شيء كان.

أشرت إليه نحو نافذة غرفة مضاءة في البناية المواجهة، فخفض رأسه ليرى من خلال زجاج السيارة، كانت عدة نوافذ وشرفة يعمل من الداخل بعضهم، وقد تبين لكما أنهم يثبتون ويعلقون ستائرهذا المنزل الجديد.

قلت بنبرة حزن واضحة:

- هذا منزلها الجديد، استضافتني به اليوم بطريقة مخزية ومخذلة يا مراد.. هل أنا قصّرت معها في شيء؟ هل هذا عقابي على حسن معاملتي ودعمي لها بكل الطرق؟ لقد اتهمتني بأنني أنتقدها بحدة وباستمرار.. وهل كان هذا إلا من أجل مصلحتها؟!
- وهل كنت تفعل ذلك فعلًا؟

قلت موضحًا:

- أنت على دراية بكثيرمن أفعالها الخاطئة..
- حسنًا، لكن ليس من شأنك إصلاح الآخرين يا صديقي، خصوصًا لو خلا نصحك من الرفق.. لقد عرفتها كما هي، إن شئت أحببتها بدواخلها التي لا تتشابه مع مظهرها الخارجي أو تتركها وشأنها، أما إن كنت تظن أنها ستتغير من أجلك فليست هي بالتأكيد، بعد كل ما حكيت لي من ظروف قاسية مرّت بها.

- لقد تغيرت بالفعل ولكن للأسوأ.. إنها على علاقة بآخرين غيري، سواء من تتواصل معهم في ألمانيا أم هنا في مصر؛ شخص اسمه عمرو لا أعرف صديق أم عشيق أم ما صفته بالضبط ليختار لها ألوان غرفة نومها.. هل تصدق ذلك؟

كنت على وشك البكاء فهدأك مراد وقال:

- حقائق الأشخاص تظهر في تلك المو اقف يا صديقي، أنت الآن يؤلمك وجع اكتشاف البركان الذي ظننته خامدًا.. لقد اهتممت بها أكثر مما ينبغي، تلهفت عليها ظنًّا أنها تستحق ذلك.. لكن إلى هنا ينتهي الحماس وتتضح الحقيقة.. لا بأس بالألم فهو ضروري حتى لا تتألم مرة أخرى.

تساقط الدمع من عينيك لكلام مراد، كنت تصبّر نفسك بوعدها بالتوقف عن ممارسة الحب أو البحث عنه مجددًا.. لم تجده في الزواج للأسف، أو هكذا ترسخ الإحساس في قلبك، لكنك أيضًا لم تجده خارجه.

*****

لا تنتهي القصة ها هنا، قلبك لا يزال يلهث وراء العاطفة المفقودة، يتتبعها في كل حدب وصوب، عرضت نفسك على مديرك لتعلن استعدادك للسفر في جميع المأموريات والمهمات المؤجلة أو العاجلة، لم تشترط شيئًا ولا مكانًا بعينه، وقد استغلك الرجل خير استغلال لأنه يعلم مدى كفاءتك في العمل منذ تجربة العراق، والتي من بعدها و أنت تنعم باستقرار معقول عن إرادة منك.. الآن أنت من يطلب السفر.

لحسن الحظ كانت مهمات بسيطة وغير معقدة، اعتبرتها نزهة وجولات سياحية، فأعددت لكل جولة ما يعده السائح لقضاء أيام معدودة في كل بلدة.. خططت لزيارة الأماكن المهمة، والقيام بالجولات الخفيفة متنقلًا بين المدن، مستكشفًا للاختلاف المناخي، والبشري، والعمر اني، والطبيعي.. رأيت نفسك كالرحالة والمستكشفين، وغمرتك المتعة مع كل جديد طالعته عيناك.. وحده ذلك الصوت الذي يتردد بداخلك كان يخيف سعادتك ويجعلها تفر مذعورة، أنت أيضًا في هذه البلدان الغريبة هاربًا من شيء ما.

على بو ابة عهد جديد بينك وبين الحياة سلمت كل ذكرياتك التي تخصها للزمن بوصفه ماحي الذكريات العظيم، وتركت رسائلها و اتصالاتها في دفاتر المؤجلات غير المهمة، وقررت أنها إذا بادرت بالتواصل لسبب أو حاجة فلن تفعل إلا ما في وسعك

فعله، هذا فقط حتى لا تظن أنك ساعدتها في الماضي لغرض غير شريف؛ ستساعدها بغير غرض أو اهتمام الآن.

كلها كانت استعدادت لاستقبالها عائدة، نادمة، آسفة.. لكنها لم تتصل أو تتواصل معك حتى اليوم.

من فرنسا تحدثت إلى مراد عبر الواتس آب تخبره بأنها نشرت صورة عبر حسابها الشخصي لرجل ذو أجنحة ملائكية قد ضم فتاته بجناحه ليقيها ما فاضت به السماء من سيل كثيف، وكتبت تعليقًا على الصورة: "حقيقة الإنسان ليس ما يظهره لك بل ما يفعله لأجلك".. قلت لمراد:

- ما معنى هذا؟
- لا يهمك أن تعرف.
- لا يهمني حقًّا، كنت فقط أثرثر معك و أفكر في معنى ومقصد كلامها..
- ألست بباريس؟
- بلى.
- قم بحظر حساباتها واستمتع بالمدينة إذن ولا تنسى أن تلتقط لنفسك صورة قريبة من برج إيفل.. فقط لا تدقق في الهيكل المعدني الرمادي القبيح للبرج، استمتع بالأضواء الملونة عليه وحسب.

تحظر حساباتها.. ليس صوابًا بالتأكيد، سيتحول فضولك لسيف بارد يغرس في صدرك ببطء، لن تقدر على هذا حتى لو فعلته هي.

*****

ابتعدت عن أوسلو عاصمة النرويج راكبًا القطار السريع المتجه إلى مطار أوسلو – غاردرموين، أخذ عقلك وقلبك مشهد الأشجار والأزهار المتراصة باتساق منمق على جانبي القضبان الحديدية للقطار، لن يتخيل المسافر عبر هذا الطريق سوى الجنة ولا غير.. أزهار صفراء فاقعة وبنفسجية دافئة تكاد تنطق وسط خضرة مريحة للعين.

أخرجت هاتفك لتسجل مقطعًا من أجمل ما شاهدت وأرسلته لعلا؛ عليك تخفيف التوتر الذي تعانيه بسببك، فأنت إما غائب أو مثير للشكوك.. أرسلت المقطع لكنها بادلتك ردًّا غير حانيًا أثناء إرساله:

- "من اعتاد على تجاوز حزنه بمفرده لن يؤثر فيه بقاء أحد من غيابه".. ما رأيك في هذا الكلام الذي اقتبسته من صفحات التواصل الاجتماعي؟
- لا أعتقد أنه كلام إيجابي أو يحثّ على السعادة.

- امممم.. لقد اكتمل تحميل مقطع الفيديو الذي أرسلته، سأشاهده، إلى اللقاء الآن.

لم تعد علا للتعليق لكنها عادت لتكتب كلامًا من النوع نفسه، غير أنه ليس بمقتبس:

- هل انتبهت يا كريم لكوني ما عدت أطلب منك أن تقبّلني أو تحتضنني كما كنت أفعل من قبل؟ ولا حتى أريدك أن تعتذر عما فعلت من أخطاء ما زلت تنكرها.. لم تخبرني منذ مدة لا أتذكر عدد أسابيعها بأني جميلة أو ما زلت في نظرك.. ولتتصل وقتما شئت أو لا تفعل لتخبرني كيف كان يومك.. ولن أتكلم معك بما أشعر به ويقلقني لأني لن أطلب منك أن تستمع لي مرة أخرى رغم آلاف القصص التي تتلهف لأن تُحكى لك، لن أسألك أن تبقى بجانبي للأبد كما كنت أطلب دائمًا، فلترحل وتعود في أسفار عملك التي ظهرت بغتة لتخفي عني أن صاحبة الساعة الفضية صارت زوجة لك.. لن أسألك شيئًا يا كريم لأنني لست مضطرة لشحذ الحب منك بعد اليوم.

على الأرجح أنها تبكي الآن؛ لا توجد امرأة على الأرض تكتب تلك الكلمات ولا تبكي، كما أن زوجتك تبكي لأسباب أقل من تلك، تبكي كثيرًا للأسف.

أنهيت المحادثة معها قائلًا:

- أقسم لكِ إنه ليس غيرك في حياتي.

*****

- أهلًا كريم، أفتقدك بشدة يا صديقي، مرت شهور منذ لقائي الأخير بك، متى تعود من تركيا؟
- ثلاثة أيام فقط تفصلني عن رؤيتك.
- أرجو أن تكون مستمتعًا بوقتك.. الكثير من الهمهمات حولك.. لا أكاد أسمعك بوضوح.
- معذرة يا مراد، أنا في مقهى ساحر أمام المسجد الأزرق بإسطنبول، وددت لو كنت معي الآن! لا أستطيع وصف جمال هذا البلد دون أن أظلمه، يكفي أن تأتي إلى هنا لتنعم بالشعور الذي يتمدد في كل خلايا جسدي.
- أنا سعيد لسماع ذلك عنك يا صاحبي.

*****

ليت مراد يعلم أنك لست سعيدًا حقًّا، لا بإطلالة مسجد السلطان أحمد المبهجة، ولا بالمطعم الفاخر.. إنها تنغص عليك كل مكان وكل شيء تفعله؛ في كل رشفة من الشاي تتذكرها، وتتذكر طريقتها الأرستقراطية في الأكل، والشرب، والحديث، كأنها فتاة إنجليزية من سلالة عائلة راقية.. حقًّا لا تهب الدنيا كل الأحجار الملونة لبشر واحد، أنت تفوز ببعض منها وعليك مزجها بنفسك لتصنع الألوان التي تريد، لكن بعضهم يفسد الخليط بمزج الألوان التي لا تتلاءم مع بعضها البعض، فتنتج تلك الصورة التي تراها عن بُعد أخّاذة رائعة، وإذا بك كلما اقتربت تتكشف الغيوم، وينقشع الضباب، وتتجلى الحقائق، لتشعر حينها أنك قطعت المسافات من أجل خدعة أخرى لا تقل شهرة عن السراب.

لقد زرت بلدانًا كثيرة في تسعة شهور؛ البرازيل، إيطاليا، فرنسا، وأخيرًا تركيا.. تأملت الدنيا خلالهم فذهبت إلى أن السعادة، والعاطفة، والحب لا يقاسوا بمقياس مادي، فما كان موطنه الروح لن يزيد الجسد إلا عبودية له.

إن القياسات الدقيقة والتحليلات الجيولوجية التي يقوم بها الاختصاصيون والباحثون للتمهيد لأعمالكم، والعديد من الاختبارات التحليلية لا تعطي نتائج خاطئة في عملكم إلا فيما ندر، لكن عندما تُنقّب عن الحب والعاطفة في القلوب فالأمر لا يقبل تلك القياسات البتّة.. وكيف يقاس الإحساس بالمعادلات والهندسة؟ فما تراه قائمًا ينحني، وما تظنه يتقاطع معك يعود لطريق متوازٍ مع طريقك مثل نهال، أما رزان فقد تقاطع طريقكما معًا لتفترقا سريعًا كلٌ منكما في طريقه الخاص مرة أخرى، تاركين نقطة رائعة في خط الزمن عليها لافتة الحب الطاهر.

*****

المعارك الحقيقية لا بد وأن تسفر عن ضحايا كُثر، وإلا فلن تكون جديرة بلقب المعركة.

ما مررت به انتهى بخسائر عدة، عليك وعلى من حولك.. أنت فضّلت الهرب قليلًا للنسيان، وللعزلة، ولطلب الراحة النفسية بعيدًا عن وجوه الخاسرين أمثالك، تعللت بالعمل خارج البلاد وليس في ذلك ادّعاء باطل، بينما انهمكت علا ببيتها، وطفلتها، وأمها، ومتابعة الأطباء من حين لآخر، وقد أثمر ذلك عن إجابات مرضية عن أسئلتك المنتظمة.

و انزوت جيهان على بعضها شاعرة بالخزي والإثم، ورفعت على عاتقها نتائج ما آل إليه اعترافها لعلا بما كان بينك وبينها بخصوص الهدية؛ كان ينبغي لها السكوت العفوي بدلًا من الكلام العفوي، فليس كل عفوي حميد.. ها هي الآن تنهش لحم وجهها لومًا على كشفها لسر أخيها وتوريطه في مشكلة قد تتطور لتقضي على بيته بالكامل، لكنها أيضًا شعرت بالنيران التي تشتعل في صدر صديقتها المخلصة، ولم تستطع ألا تؤكد لها شكها في أخيها، بعد ما رأت دليلًا ملموسًا على كذبه.. كسرة قلب صديقتها اللاهثة وراء الحقيقة الصادمة دهست موقفها بغير رحمة.. الحقيقة مؤلمة للجميع، وهي شاركت في الوصول إليها، فنالها ما نالها من الألم.

كيف لها أن تنسى نظرتك لها وما كان فيها من لوم وعتاب ممزوجان بالغضب؟! والآن هي الفاضحة لسرك والخائنة لصديقتها، فآثرت الانزواء المبهم عن الجميع.

أما نهال فهي الأقل خسارة في نظرك، تسلّت بك قليلًا حتى نالت أغراضها كاملة أو شبه كاملة.. لا يهم ذلك الآن، فقد رحلت عنك وعن البلاد بهدف الدراسة في ألمانيا، وصارت تربح ما تستطيع أن تربحه في العلاقات، مرتدية واقي القلوب المضاد للتعلق المضني، ورافعة شعار المصلحة أولًا، وعلى الرغم من أن أحدًا لم يتخذ خطواتها في هذا الصدد على محمل الجد، لكنها في النهاية فعلته، ورحلت تاركة ابنها الوحيد لوالديها.

أنت وربما وحدك من عرف السبب الحقيقي وراء هروبها.. نعم، إنه هروب من أشياء كثيرة أهمها المسؤوليات، فمثلها لا يتخذ الحياة بجدية تضاهي جديتك، أو بتحليل فكري معتدل كما أردت لمشروع زواجكما الذي كتب عليه الإجهاض السريع.. لا تدرك أنه قد ترسخ في ذهنها ألا تثق برجل آخر أبدًا، وحددت وجهتها وأهدافها غير عابئة لما خلّفته وراءها من حياة وصفتها بالفشل.

مع ذلك فإن الألم النفسي لا يشفق بروح أحد، ولا يميز بين من يلقي اللوم على الآخرين ليبرئ نفسه، وبين من يلقي اللوم على نفسه ويحملها أسباب الشقاق، فالجميع يتألمون في قصصهم كافة.

*****

عناق لم يرتوِ من تلامس الأجساد بينكما، ابتسامات صادقة أصولها قلبية أضاءت وجهكما.. ربما يصدق من قال أن الغياب وطول البعد لا يؤثر في الصداقات الحقيقية؛ فأنتما إثبات حي لذلك الرأي.. وعلى المقهى الشعبي البسيط نفسه، وربما على الطاولة نفسها في المكان نفسه.

تكررت الأسئلة الاعتيادية فقاطعها مراد بما يثور في القلوب طلبًا للخروج منها عبر الألسن، فقال:

- وماذا بعد؟

تورّد وجهك أسفًا على حالك وأجبته بألفاظ سؤاله نفسها.. ثم قلت:

- لو أن حياتي مثل مفكرة صغيرة فكل صفحاتها الآن ملتصقة ببعضها البعض.. لا تستطيع قراءة ما فيها لتفهم أسعيد أنا أم حزين، متعب أم مرتاح!
- حتى بعد سلسلة الرحلات هذه!
- حتى و أنا بداخل السلسلة.

اعتدلت و اقتربت منه هامسًا:

- هل تعرف طبيبًا نفسيًّا يمكنني الوثوق فيه؟

اندهش مراد لسؤالك قائلًا:

- هل تعني حقًّا زيارة طبيب نفسي؟ وما الداعِ لذلك؟

أسندت ظهرك مرة كما كنت وقلت:

- هذا ما تنصح به علا.. إنها قلقة على مستقبل علاقتنا الذي بات مضطربًا ومهددًا على حد وصفها.
- طبعًا بسبب شكوكها في أفعالك.
- نعم.. ومواضيع كثيرة أخرى مثل إقامة أمها الدائمة معنا، و انشغالي الدائم طيلة اليوم وبُعدي عنهم لأيام كثيرة في الفترة الأخيرة، كأنها لا ترى ثمار هذا الجهد! أنت تعلم أنني لا أكاد أمكث بالبيت إلا نادرًا.

أخذت نفسًا عميقًا بينما يهزّ مراد رأسه متفقًا مع ما تقول و أكملت:

- هي ترى أن كل ما مررنا به سببَ خلل في علاقتنا، وتُقسم أنني لم أعد أحبها كما سبق؛ لذلك نصحتني أن من واجبي للحفاظ على استقرار أسرتنا أن أذهب لزيارة طبيب نفسي.. قالت إن الأمر لن يخرج عن إطار الوقاية مما هو محتمل الحدوث.

ضاحكا كعادته.. رد مراد:

- أنا أرى أن الأمر لم يتطور إلى مرحلة المرض النفسي بعد، مع ذلك أنا أتفق معها في كل ما وصفت به أحداث حياتكما.. كريم أنت تبدو كارهًا لبيتك ولأسرتك، أنت معترف بأفعالك التي توحي بذلك، لكني أخشى عليك الولوج في دوامة الأمراض النفسية بغير داعٍ.

أطفأ سيجارته وأردف:

- وعندي تفسير آخر لرأي علا.. ربما أرادت أن تشغل تفكيرك وتشتته حتى لا تفكر في غيرها.. اكتشاف أمر الهدية سيظل لعنة تطاردك لوقت طويل.
- ربّما.. لكن ربّما أيضًا أنني أتفق معها في ضرورة الاطمئنان على سلامي النفسي، أنت ترى الأمر بنفسك، أنا لست أنا.. وليكن في علمك يا مراد أنا لا أكرهها ولا أكره البيت، هذا ما حرمت نفسي من الملذات لبنائه، لكن أشعر أني أستحق حياة أفضل من هذه.

اكتست ملامح مراد بالجدية وقال:

- أنا غير متزوج مثلك، لكنني مررت بأكثر من علاقة حب اعتقدت بقوة في كل مرة أنها علاقة جدية، منها علاقة دامت لسنوات، وفي النهاية اختار كل منّا طريقه دون تضحيات.. الزواج لم يكن حلًّا لنا ولذلك استمر الحب بيننا، حتى بعد فراقي لها ما زالت تعيش بداخلي و أنا على يقين بأن ما تحمله لي بداخلها أعظم.. أما أنت الآن أراك تقع في غرام كل امرأة تعرفها بدرجة ما تتوقف على مدى استعداد تلك المرأة لحبك واهتمامك لها وتضحياتك التي لا حصر لها معها.. أما الزوجة فتحظى بمعاملة لائقة من رجل محترم وليس محب لها.. زوجتك ليست حبيبتك و أنت لا تريد أن تستسلم لزواج مستمر بلا حب، فليس هذا ما تستحقه، أليس كذلك؟

ترد بملل ويأس:

- بلى.. أتذكر حينما كنت أدفعك لخطوة الزواج؟ أنا الآن أعترف أنه لم يكن أفضل شيء.. إن كنت و افقتني حينها فكان ينبغي لك أن تنهي كل ملفات

الماضي النسوية وتحفظها في أرشيف أسود بلا أمل في استرجاعها.. الزواج يحتكرك لواحدة فقط، لا يحق لك إقامة أي علاقة مع إحداهن ولو بنية الزواج منها وإلا لبست تاج الخيانة للأبد.

- ولصعوبة الأمر يا صديقي كان عليك أن تختار من تحبها، لا أن تتزوج لمجرد هدف اجتماعي حتى لو كان نبيلًا، فأنت لن تتزوج كل يوم، أما الآن فقد قضي الأمر ولا يحق لك أن تصلح أخطاء الماضي على حساب الآخرين.

قلت:

- وماذا لو كان الآخرين رافضين تغيير أنفسهم للأفضل؟

نهض مراد وشرع في ارتداء سترته معلنًا رحيله، وتمدد بذراعين متكدستنان بالكتل العضلية وهو يتثاءب كفرس النهر حتى بدا كالرجل الأخضر، وقال ليختم الحديث بفائدة بدلًا من الجدال:

- اسمع، أنا أعرف معالجة نفسية رائعة، إذا حسمت أمرك أبلغني.

لملمت أشياءك ونهضت بدورك وقلت له:

- أراك اقتنعت أنت أيضًا بحاجتي إلى طبيب نفسي!

قال مراد موضحًا:

- لقد قلت معالجة نفسية وليست طبيبة، وإن كانت طبيبة بالفعل.

قلت مستفسرًا:

- وما الفرق؟

- الفرق تعرفه عندما تذهب إليها.

*****

داخل سيارتك مغلقة النوافذ كنت تفكر، طبيعتك البشرية كرجل تحتاج إلى أنثى أخرى لتتزن حياتك، أنثى تجيد طهي الطعام وترتيب المنزل وتنظيفه جيدًا، وتترقب بلا تصنُّع لاحتياجات زوجها العاطفية والجنسية دون أن يلمّح لها ألف مرة بذلك.. تحتاج من يقدر مجهودك ويعطيك التحية اللائقة المستحقة، لا تريد بالطبع أن تخسر علا مقابل الحصول على أشياء مثل هذه، ربما فقط تريد أن تكمّلها بأخرى حتى تستقيم لك الأمور.. هل تُعد بهذا خائنًا؟

ما زلت مشوش الفكر كلما زارت نهال رأسك عابرةً ذكرياتك، تظن أحيانًا أن مراد سبب فيما جرى بينكما من خلاف؛ لم لا وهو يعارض أي علاقة تنشؤها في ظل زواجك بعلا، هل يجب أن تنفصل عن علا لتتعرف على أخرى؟ أنت رجل، وقد أتاحت لك

شريعتك أكثر من امرأة بشرط العدل والمقدرة، وهذا ما لا يدركه مراد لأنه ليس في مأزقك، إنه يُدلي برأيه من خارج الصندوق، يتعامل معك كصديق ناصح يهمه أمرك، ويخشى أن تتعرض أسرتك إلى تفكك، ثم تخيب حياتك من بعده، لكن ماذا لو كان زواجك الثاني سرًّا؟

سرًّا أو علانية، لا فائدة من الاسترسال في التفكير ولا توجد امرأة تستحق؛ لقد كانت رزان الوحيدة التي تصلح لذلك، والله أعلم أي حياة تحياها هي الآن، وأي سعادة أو حزن أحاط بها.. يعيش المرء حياة واحدة، ولا يتزوج فيها كل يوم ليجرب أي النساء من تسكن قلبه ويتخذ قلبها سكنًا؛ هل من أجل ذلك أباح الله لك أن تتزوج ثانيًا أو ثالثًا؟

*****

شتاء عام 2018..

حيث الذكريات ما زالت ساخنة وقادرة على تدفئة الشتاء، ورفع درجات حرارة البيوت الباردة.

- بالطبع خيانة يا كريم.. وجرح ما زال مفتوحًا لم يلتئم بعد.

عَلا صوت علا وهي ترد على سؤالك عما إذا كانت تناست أو نسيت أمر الهدية، وتفهمت أنه ماضٍ و انتهى.. لكنك أدركت أنك كنت مخطئًا.

أشرت إليها بيدك ناهيًا المحادثة، وقلت بلهجة يتضح منها شعورك بالإعياء الشديد:

- حسنًا حسنًا.. كان سؤالًا غبيًّا في الأصل، ظننت أنكِ حالما يمر الوقت وتهدئين ستعيدين التفكير بطريقة أفضل.. لا داعي للشجار إذن.

كانت تتبع خطواتك وتكاد تصطدم بك من خلفك.. استدرت متجهًا للحمام وهي تقول مستنكرة:

- هل تنظر إلى نفسك يا كريم؟ هل تستمع لما تقول؟

- ستوقظين الفتاة بثورتك تلك.. لقد كان سؤالًا لا داعي له، انتهى الأمر.

استيقظت أمها وخرجت من غرفتها المخصصة لها متسائلة عن سبب هذه الجلبة، فابتسمت لها بتصنّع واضح ثم نظرت إلى علا وقلت بينما تغلق باب الحمام في وجههما:

- أخبريها من فضلك.. بعد إذنكما.

ارتعشت المرأتان فور إغلاقك للباب بعنف.. زفرت علا في ضيق وقالت لأمها:

- لا عليكِ يا أمي.. ليس شيئًا.

نظرت إليها متحسرة، غير راضية عن أدائها القتالي مع زوجها وقالت:

- تصبحين على خير.

ثم رجعت إلى حجرتها وهي تتمتم بكلمات على غرار "لماذا يا ربي كتبت الخيبة على ابنتي!".

بعد مرور خمس دقائق فتحت باب غرفتك بهدوء؛ كانت علا جالسة على السرير ضامة ركبتيها إلى صدرها، شاردة في صمت.. قمت بتغيير ملابسك مستدبرًا إياها، ثم غطست ببطء تحت الأغطية حريصًا على ألا تلمسها.

- في القريب العاجل سوف أزور طبيبًا نفسيًّا، لقد كنتِ على حق وسأنفذ نصيحتك.

أسدلت الغطاء مرة أخرى، فنظرت إليك ولم تغير من جلستها الشاردة.

*****

ما أجمله هذا الحي الأرستقراطي العريق ذو الطراز البلجيكي المنمقة بناياته بعناية! تحفٌ فنية هي في نظرك كمدقق معماري، لا عجب من عشق مراد لهذا المكان، "هليوبوليس" أو مدينة الشمس، حيث الزحام لا يطغى على الراحة النفسية التي تغمرك وأنت تتجول بسيارتك في شوارعها الجميلة المحاطة بالأشجار المزهرة، مساحات خضراء عديدة تسمح للهواء النقي أن يتسلل سريعًا إلى رئتيك.. حريٌّ بعيادة نفسية أن تحاط بهذه الطبيعة الهادئة.

هنا في أحد الشوارع الجانبية الواسعة مقهىً راقيًا ارتدته مع مراد مرات عن رغبة منه، كل العاملين فيه يعرفونكم جيدًا، ويحفظون مشروباتكم المفضلة التي قلّما تتغير. ليست مصادفة بالتأكيد أن تكون عيادة تلك الطبيبة في الجهة المقابلة من ذلك المقهى.. هناك في الطابق الثالث بالتحديد من تلك البناية، حيث مجال الرؤية مسموح بين البناية والمقهى.

لم تناقض البناية جيرانها بالنسبة إلى كونها تحفة معمارية أخرى.. اختيار صائب من الدكتورة لمياء، هكذا اسمها الذي أخبرك به مراد.. أخبرك أيضًا أنها في بداية العقد الرابع من عمرها، لكنها تملك درجة علمية رفيعة، وخبرة لا بأس بها في مجال الطب النفسي.. قال إنها تخصصت في العلاج اللادوائي للاضطرابات النفسية، ولا تُلزم مرضاها بتناول أدوية كيميائية إلا نادرًا، ولهذا رشحها لك.

ركنت سيارتك بسهولة في أحد المساحات الشاغرة في الشارع العريض، وترجلت منها متجهًا إلى البناية المقصودة، ابتسمت في نفسك لما رأيت مدخل البناية الذي يذكرك بمشهد من فيلم "كرامة زوجتي" للفنانة شادية.. البوابة القصيرة المزينة بغصون الأشجار، حيث أسدلت الأشجار الفارعة خصلاتها لتتلصص على أسرار المارّة الوافدين منهم والخارجين، ثم تتصل فروع الأشجار وتتشابك مع بعض فروع الأشجار والشجيرات المحاذية لها، لتزين السور الحديدي المحيط بالبناية.

الدَّرَج عريض، يتسع لمرور سيارة من فئة "مرسيدس".. في الفيلم كانت شادية تُوهم زوجها صلاح ذو الفقار أنها تخونه كيدًا له لاكتشافها خيانته ونقض عهده معها بعدم العودة لعلاقاته الغرامية بعد الزواج منها، لكنه يملّ ويشعر بطوق العهد يحاصر رقبته، ويحن لممارساته اللامسؤولة مع أصدقائه قبل أن يتزوج، وبينما يقع فريسة شكه في زوجته ويراقب تحركاتها، يراها تذهب إلى تلك البناية المماثلة، تصعد الدرج حتى الطابق الذي يسكن فيه "عنتر"، صديق النادي السمج مفتول العضلات، والذي لا يطيقه صلاح ذو الفقار.

بعد أن لاحظت زوجها يتبعها فكرت كالبرق بدهاء، فخلعت نعليها وواصلت الصعود للطابق الذي يلي طابق عنتر، فتوقف قرع نعالها عند طابقه، بينما تراقب ما سيحدث من الطابق الأعلى.. يجن جنون الزوج لأنه يعلم يقينًا أنها توقفت في هذا الطابق، ويضرب الجرس ويدق على الباب بعنف، فيخرج له عنتر وهو شبه عارٍ، معتذرًا عن استضافته لوجود ما يسميه "الجو" في شقته، فتتأكد شكوك الزوج ويستشيط غضبًا على غضب، ويحاول اقتحام الشقة عنوة، لكن عنتر الذي يشبه مراد في بنيانه يمنعه، ويدفعه للخلف ليغلق الباب وراءه.. وكل ذلك يحدث على مرأى زوجته، فيعود والجنون يسيطر عليه بعد فشله في إثبات تهمة الخيانة عليها.. يتعثر ويسقط على السلم، وتكتم الزوجة ضحكتها.. ثم... ثم ماذا؟!

لماذا تذكرت هذا المشهد تحديدًا؟ هل لذلك علاقة بتأنيب الضمير على أفعالك في الفترة الأخيرة؟ ربما ستخبرك حفيدة "فرويد" بعد قليل بتفسير ذلك.. لعله عقلك الباطن هو من استحضر ذلك المشهد.

لقد وصلت أخيرًا، العيادة مفتوح بابها كما العادة، وفي الداخل شاب قمحي البشرة تحتل بشرته أعدادًا غفيرة من الحبوب، يبدو في العشرين من عمره، ويجلس خلف مكتب صغير صابًا كل حواسه في هاتفه المحمول، حتى إنه يوصّله بسلك

الشاحن لعدم تضييع أي الوقت.. في الواقع هو لا يعمل شيئًا يستحق التركيز، والعيادة تبدو هادئة خالية من المرضى؛ فأين يذهب كل هؤلاء المنهكين نفسيًّا إذن؟

هناك شاشة تلفاز مثبتة على أحد الحوائط الأرجوانية اللون، وعلى منضدة صغيرة ترى بعض المجلات الفنية، وتأكد لك بعد جلوسك أنه لا يوجد بالعيادة مجانين سواك وامرأة أخرى.. ليست امرأة عادية ولن تكون مهما طال بها العمر، تبدو كتمثال فرعوني لن يزيده العمر إلا قيمة، امرأة يبدو على وقارها جمال الوقار، وجهها مستنير أو ربما يخيل إليك هذا، تشعر أنّ خلف هذا النور حزن نجحت في إقصائه، خمّنت أنها في مثل عمرك أو أقل.. هل هي جميلة حقًّا وتلفت الأنظار أم أنت الذي صرت وغدًا يلهث كلما رأى أنثى في مكان ما؟! رأيتها قامت من مقعدها، وبدا عليها أنها تهمّ بالرحيل، ثم جلست مرة أخرى متنهدة تنهيدة طويلة.

ما يميز هذه الطبيبة أنها لا ترجح لمرضاها في بادئ الأمر أية علاجات كيميائية، فضلًا عن أنها لن تصعقك بالكهرباء بالطبع، لكنها تتبع طريقة تسمى "العلاج اللادوائي للأمراض النفسية"، لم تسمع به من قبل، فالموضوع برمّته جديد عليك، لكنه وافق هواك؛ إذ علمت أن من ينتسب لهذه المدرسة يستمع باستفاضة لمرضاه في جلسات عدة، وأنت لا تريد أكثر من ذلك.

أفضل ما يمنُّ الزمان عليك به صديق مثل مراد يعلم ما تريد وما تحتاج إليه، لذلك رشّح لك الدكتورة لمياء، هو يعرفها منذ زمن على حد قوله، وكانت مصدر ثقته في الأمور المتعلقة بعلم النفس، فليست من هؤلاء المشعوذين الذين ينهبون أموال ضعفاء الأنفس والمساكين، ويستغلون مرضاهم، لكنه أوصاك ألا تذكره عندها لانقطاع التواصل بينهما منذ فترة بعيدة؛ لا يرى داعيًا لرتق عُري العلاقة والمودة معها في الوقت الحاضر.. احترمت رغبته بعد سيل من الأسئلة عن أسبابه الخفية، لكن ليكن، ما دمت لن تحتاج اسمه عندها.

بدأ التوتر يتسرب إليك أثناء دقائق الانتظار، وبسهولة تغلب عليه شعور الخجل من صفة المريض النفسي التي ستلاحقك بعد اليوم، حتى بينك وبين نفسك، لكنك أقنعت نفسك أنك لست مريضًا أصلًا، لعلك فقط تحتاج كغيرك من الناس لأن تتكلم كثيرًا وتُخرج ما يثقل قلبك، تحتاج إلى فرد من خارج قائمة معارفك لتشاركه مشكلاتك، عسى أن تجد حلولًا مبتكرة لها، وهل كل من يأتي هنا مجنون أو مريض؟ انظر إلى هذه المرأة الغارقة في ملكوت الجمال والهيبة؛ لا أحد يخجل من هول ما يشعر به إذن.

بينما الجميع يعبث في هو اتفه خرجت من غرفة الطبيبة فتاة مراهقة ذات شعر كثيف بني اللون، طويل ومموج، يبدو عليها الإعياء الشديد.. اتجهت الأعين إليها على الفور، كانت ترتدي الجينز الضيق مع بلوزة بيضاء تكشف عن بطنها، في الو اقع هي تكشف عن وشم مرسوم بعناية، كالأشكال التي تزين بها فتحات السقف التي يتدلى منها القناديل المنيرة. "هذه ملامح مدمنين بلا شك".. قلتها في سرّك مستنبطًا ما يدور في عيادة نفسية بمصر الجديدة.. الفتاة تحتفظ بجمالها الذي يشوبه هالات سوداء و انتفاخات حول وأسفل عيناها، كانت تبكي وترتعش، ومن خلفها ظهرت الدكتورة لمياء.

امرأة شابة هي، قصيرة نوعًا ما، ذات ملامح مبهجة كأنها في قاعة عُرس، ترتدي نظارات طبية ضخمة تستحوذ على نصف وجهها تقريبًا؛ إشارة أخرى لا شك فيها لكونها هي لمياء.

وضعت كلتا يداها على كتفي المراهقة ذات الشعر المموج، وربتت عليها قائلة بودّ:

- سأنتظرك الأسبوع المقبل في الموعد نفسه، وحالما تصلين البيت كلميني أو أرسلي لي من فضلك.
- حاضر يا دكتورة.. شكرًا لكِ.

قالتها بانكسار واضح، فقالت لها كأنها تذكرها:

- لا تنسي أن تسجلي موعد الزيارة القادمة مع كريم، ولا تشكريني مجددًا، لا شكر بين الأصدقاء.

ابتسمت الفتاة ابتسامة أمل، بينما انتبهت لذكر اسمك في الحوار الدائر بينهما، فابتسمت وسرعان ما استدركت أن الشاب العشريني مساعد الطبيبة، أو سكرتير العيادة يحمل اسمك نفسه.

غادرت الفتاة، فنظرت لمياء نحوك ثم نحو المرأة الأخرى، لتقول لها بصوت مسموع معتذرة:

- أعتقد أنه حدث خطأ ما بجدول مواعيدي يا نيرفانا...

نظرت النيرفانا إليك شذرًا لتجيبها:

- لقد توقعت ذلك.

وهمّت بالذهاب.

سارعت لمياء إليها في دلال قائلة:

- إلى أين؟ لا مفرّ مني ولا منكِ الليلة، سنقضي الليلة ساهرين معًا، هذه آخر استشارة طبية معي وبعدها سأتفرغ لكِ حبيبتي.

فهمت من الحديث أن موعدك مع الطبيبة يمثل تأخيرًا للقائهما.. لم تتأكد بعد أهي صديقة لها أم جاءت لتطلب استشارة طبية مثلك.

قالت نيرفانا بصبر وهدوء:

- سأنتظرك، لا تتعجلي، ما زال لدينا الكثير من الوقت.

ابتسمت لها لمياء ليبدو لك وجهها كالقمر وقت اكتماله، وعانقتها بقوة، ثم ألصقت قبلة مُدوية على خدها الأيمن، فاحمرّ وجه الأخرى خجلًا، ثم استدارت إليك بالملامح المستنيرة نفسها لتدعوك بكل ودٍ:

- تفضل يا باشمهندس كريم، أعتذر لك أيضًا، فهي صديقة عزيزة جدًّا ولا نحظى بلقاء إلا كل زمن.

فقلت بأدب:

- لا داعي للاعتذار، أستطيع أن آتي في وقت لاحق إذا أردتِ.
- بل تفضل..

قالتها مشيرة بيدها إلى داخل غرفة الكشف، فتقدمت وهي خلفك.

غرفة واسعة ومريحة كما توقعت، مكتبها متواضع تستقر عليه بعض الكتب والمراجع الضخمة عن علوم النفس بالتأكيد، وخلف المكتب تنسدل ستائر بيضاء تظهر نافذة زجاجية تطلّ على الشارع الذي أتيت منه.. غير المكتب في الغرفة يوجد منضدة دائرية صغيرة، يحيط بها من جهتين متقابلتين مقعدان، تبدو عملية أكثر شيء ما.. وفي جانب آخر من الحجرة جِلسة أخرى مكونة من مقاعد جلدية سوداء ضخمة لمزيد من الاسترخاء والاستلقاء إذا تحتّم الأمر.

جلست خلف مكتبها وكنت قد اتخذت مجلسك.. دارت بنظرها في بعض الأوراق على مكتبها وبدأت الحديث:

- السيد كريم شوقي، مهندس ميكانيكا أو بترول، و أيضًا مهندس ديكورات وتشطيبات عقارية ومعمارية، متزوج ولديك طفلة اسمها سارة خمس سنوات تقريبًا، و أنت في الر ابعة والثلاثين، لا تعاني من أية أمراض مزمنة، ولم تقم بإجراء عمليات جراحية من قبل.. حسن، كل هذا جميل جدًّا.. في البداية أحب أن أشكرك على ملء هذا النموذج عبر الو اتس آب.. أرجو أن ذلك لم يسبب إزعاجًا لك.

كنت تستمع للبيانات الخاصة بك بتركيز مبالغ فيه، وكأنك تتعرف على شخصك من جديد. تنحنحت وقلت:

- لا أبدًا، لم يسبب إزعاجًا على الإطلاق، أعتقد أن كل معلومة ستطلبينها ستساعد في التشخيص أو في طريقة العلاج.
- بالضبط سيد كريم، واعذرني في طبيعة الأسئلة القادمة أيضًا، وسأترك لك المجال لتتحدث بحرية مطلقة حين ننتهي منها.
- بالطبع سلي ما شئتِ.

ثم بدأت في سرد أسئلة غريبة نوعًا ما عليك...

- حسنًا.. هل فكرت في الانتحار أو إيذاء نفسك بأي شكل من الأشكال من قبل سيد كريم؟
- إطلاقًا.
- هل تشاجرت مع أي شخص غريب أو قريب منك وتطور الأمر لتشابك بالأيدي والاعتداء سواء منك أم من الشخص الآخر؟

سكتّ قليلًا مفكرًا في شيء أنت تعلم يقينًا أنه لم يحدث قط.. ثم قلت:

- لا أعتقد ذلك، أنا شخص مسالم ولست همجيًّا، أكره العنف، حتى إني لم ألعب أي رياضة عنيفة في طفولتي.
- جميل جدًّا.. هل تم التحرش بك من قبل، أو حدث عكس ذلك من قبلك لأي من الجنسين؟

ارتسمت ملامح البلاهة على وجهك قبل أن ترفع نبرة صوتك قائلًا:

- ماذا تقولين؟!

سارعت بتهدئتك قائلة:

- بشمهندس كريم، أعلم أن الإجابة "لا"، لكن لا بد لي من سماعها منك.

زفرت وارتفع حاجبك الأيسر مستنكرًا سؤالها، ثم نفيت حدوث ذلك، فعادت لتسألك سؤالًا آخر:

- هل سبق لك ومرت عليك فترة طويلة نسبيًّا تجاهلت فيها كل من تربطك به علاقة من أي نوع.. زوجة أو أخوات أو أصدقاء مقربين أو أصدقاء عمل، أو كل من هم حولك من أشخاص وأعمال... إلخ؟

قلت بتروٍّ مفكرًا أمامها:

- أظن أن ذلك صعب الحدوث، أنا تقريبًا أقضي معظم أوقاتي في العمل، الفراغ قاتل بالنسبة لي.. بالطبع هناك اهتمامات أخرى كالبيت والأسرة

والأصدقاء، لكنهم قليلون جدًّا أيضًا، فلا مهرب إذن إلى اللاشيء.. الحياة لا تتوقف لتتم عملية التجاهل بنجاح.

ابتسمت ليظهر وجهها القمري من جديد منبهرًا، وقالت:

- أحييك بشدة على هذا التعبير الدقيق.. صحيح فإن الحياة إذا توقفت لحظة يمكننا التجاهل ولو قليلًا، لكن ربما يكون من الأفضل أن نتصنع التجاهل والتغافل عن بعض أحداثها خصوصًا إذا تعثر السبيل إلى التأثير على تلك الأحداث.

كانت تدوّن إجاباتك على الورق كما تدون العديد من الملحوظات أو ربما الاستنتاجات على هامش إجاباتك.. بدت لطيفة في تفاعلها مع إجاباتك مما جعلك تشعر بالارتياح.

عادت تتستأنف أسئلتها:

- طيب.. هل مررت بحالة من الهذيان أو الذهول التام الذي نَصِفه بالتبليم لوقت قصير كان أو طويل؟
- لا.. لم يحدث ذلك قط.
- أهنئك سيد كريم.. إنّ حالتك ليست بالخطيرة أو الطارئة.

ومدّت يدها لتصافحك بالابتسامة نفسها التي لا تفارق وجهها، فمددت يدك بدورك مصافحًا إياها، وقلت مازحًا ضاحكًا:

- أنصرف إذن لمتابعة مهامي ولتقابلي أنتِ صديقتك.

ضحكت وكشفت عن بياض أسنانها قائلة:

- ألهذه الدرجة؟! يبدو عليك مدمن عمل، أو كما يقول الأمريكان "Workaholic".
- هذا الوصف لائق عليّ، هذا ما أحب فعله، هذا ما أجيده في الحياة، لا أتخيل الحياة بدون هدف أو قيمة.
- وهل من وجهة نظرك أن قيمة الإنسان تختزل في عمله فقط؟ بالطبع الاهتمام بالعمل أمر مُعتبر، لكن إدمانه وطغيانه على باقي جوانب الحياة يؤثر سلبًا بالتأكيد على علاقاتك بمن حولك، ومن ثَمَّ يؤثر سلبًا عليك.

بالفعل يحدث ذلك، لكنك دومًا تضع المبررات التي تعمل عمل المُسكِنات لضميرك اليقظ، وتسكت أحاديث نفسك التي لا تنتهي. تنهدت وقلت في استسلام:

- ربما دكتورة لمياء، لكن لا أحد يكسب كل شيء.. في النهاية هي أولويات وأحاول جاهدًا ألا أقصّر في جانب منها.
- ارفع التكليف لو سمحت، ناديني لمياء دون ألقاب، هذا لن يمحو الحبر المكتوب على هذه الشهادات الجامعية.

وأشارت إلى مجموعة من الشهادات الجامعية المعلقة على حائط جانبي من الغرفة بداخل براويز ذهبية.. شهادة الدكتوراة من جامعة القاهرة، زمالة جامعة كاليفورنيا في الطب النفسي. ثم أردفت:

- ذلك فقط ليطمئن قلبك أنك أمام شخص متخصص لا أكثر.. كما أريد منك أن تتحرر في إجاباتك، أراك تنتقي الجُمل المثالية يا رجل، قل ما تفعل، لا ما ينبغي أن تفعل.. صارحني بكل شيء.

مرة أخرى تبهرك بأسلوبها السلس في التعامل، وتكسر الحواجز بينكما بسرعة وبراعة.. غريب أنها قد حققت كل هذه النجاحات بينما ما زالت في سنٍّ صغيرة؛ إنها امرأة ناجحة حقًّا.

- حسنًا، ليكن.. أودّ أن أخبرك مبدئيًّا أني لا أشكك في قدرات عقلي، أنا أثق في عقلي بدرجة كبيرة وبدون أن أصل إلى حد الغرور، لكن أعتقد أن بعض الأمور قد التبست عليّ هذه الفترة، أو أريد استشارة نفسية من اختصاصي مثلك، وقد نصحتني زوجتي بذلك أيضًا، كما نصحني صديقي المقرب بزيارتك لاتباعك طريقة علاج مميزة راقت لي عندما سمعت بها منه.. أظنه قال طريقة العلاج الكلامي أو مثل ذلك.

قالت وهي تضيق عينها:

- أستنتج من كلامك أن هناك مشكلة تؤثر على علاقتك بزوجتك، ولذلك أرشدتك لزيارة استشاري نفسي.. فهل استنتاجي صحيح؟ هذا أولًا.. ومن صديقك المقرب هذا الذي يعرف طريقتي العلاجية؟ هل هو من زائريني المرضى مثلًا؟

*****

رحلة التعافي

تذكرت وصية مراد التي توشك على هدرها بسبب استرسالك في الكلام بغير حسابات، فكرت سريعًا كيف تخرج من المأزق، ثم اخترت أن تترك نفسك على سجيتها وليحدث ما يحدث. قلت:

- بالفعل ثمة أمور كثيرة تؤثر على علاقتي بزوجتي، وصديقي الذي يعرفك هو مراد.

ما إن ذكرت اسمه حتى تغيرت ملامح وجهها المستنير لأكثر من عشرة تعبيرات مختلفة.. ما بين القلق، والتوتر، والفرح، واللهفة، والحزن.. الأمر هكذا إذن، إنها إحدى صديقاته على الأرجح، لكنها ليست مثل الأخريات، لا بالنسبة إلى مراد ولا بالنسبة إليك.. حسن عليك أن تخبره بما حدث، وتتحمل غضبه حتى يفسر لك ما بينه وبينها.

رفعت سماعة الهاتف بجوارها وأمرت مساعدها أن يحضر كوبًا من الشاي الثقيل، ثم وجهت لك سؤالًا مباشرًا بملامح جدية ظهرت للتوّ فقط:

- حسنًا يا كريم، ما المشكلة الواضحة المؤثرة على حياتك الشخصية أو الاجتماعية؟

حككت أنفك وقلت:

- اسمحي لي بداية أن أرجع بالزمن لأعطي لكِ صورة أكبر عن حياتي سابقًا باختصار.
- احكِ ما شئت بالطريقة التي تريحك، أنت هنا لتجد مستمع جيد ومتفاعل معك.

بدأت سردك للأحداث بفترة طفولتك التي وصفتها بالعادية.. طفل من أسرة عادية تتسم بالسيرة الحسنة، والتدين، و اتباع الأعراف والتقاليد.. كونك كنت الولد الوحيد مع أخت تصغرك بعامين، فأحاطتك أسرتك بمخاوف زائدة، وقلق مبالغ، خوف من الحسد ومن الغرباء، خوف من الخطف صغيرًا، ومن أصدقاء السوء كبيرًا؛ فالذهاب للمتجر القريب لشراء بعض الاحتياجات البسيطة كان يُعد مغامرة.. أخبرتها بذلك المؤثر التربوي الذي رأيت العالم الخارجي من خلاله ولم يكن منظارًا دقيقًا للأسف، لتبدأ رويدًا رويدًا في اعتياد مناظير أخرى، لتتطلع إلى دروب الحياة برؤيتك الخاصة، فتكتشف حينها إلى أي مدى كنت محرومًا بسبب أوهامهم.

لما تأخرت البدايات من كل شيء تأخرت بالتتابع فصولًا أخرى في حكايتك.. كأن تذهب مثلًا لشراء ملابسك وحدك، أو أن ترتاد دور السينما مع أصدقائك، فضلًا عن فكرة الخروج بلا هدف لمجرد التسكع.. تذكُر تلك الثقة المهزومة في أعماقك أمام خوف والداك عليك.. كنت تتجاوز كل ذلك بأنك لا تصلح لهذا النوع من الإغواء، فما يغويك هو النجاح وحسب، فكان ندمك على تأخر اكتساب بعض من خبرات الحياة غير المهمة قليلًا.

جنيت من طبيعة نشأتك تلك قدرة على المذاكرة والتحصيل السريع، كان من السهل عليك الحصول على درجات رفيعة تمكّنك من اختيار الجامعة والكلية التي ترجو... ولم تنسَ ذكر الخال مجدي أيضًا ومدى تأثرك به.

- هل يمكننا القول هنا يا كريم أنه قد تم توجيهك بطريقة غير مباشرة من قِبل عائلتك إلى هدف لم يكن في الأصل هدفك؟
- لا أعتقد ذلك، لكن ربما تعلقي بخالي رحمه الله هو ما أثّر على ذلك، كنت أطمح إلى أن أكون مثله في أشياء كثيرة.

قالت بتأثّر داعم:

- رحمه الله، ستحكي لي عن خالك بالتفصيل ولكن ليس اليوم، فلتكمل قصتك الخاصة.
- حسنًا.. داخل إطار دراستي لم أحظَ بكثير من المرح.. أستطيع حرفيًّا أن ألخص لكِ خمس سنوات من الدراسة الجامعية في المذاكرة والسفر للريف أيام الإجازات لا أكثر.

قالت بانفعال مازح:

- و أين جموح الشاب الجامعي؟ أين الرحلات والملاهي؟ أين الفتاة الجامعية التي أعجبتك؟ و أين أصدقاء السوء.. أين مراد؟

نظرت لها متعجبًا.. مراد في رأيك ليس صديق سوء، ربما في نظر والديك لكن أنت لا تراه كذلك.. لم تقف عند كلمتها ولم تعلق، فقط أكملت سردك:

- كل ما ذكرتِ لم يحدث قط، لم يكن هناك وقت لتلك الأفعال، ما كنت لأترك واجباتي حينها من أجل هذه المتع السخيفة.
- من المؤكد أنك حصلت فيما بعد على ترتيب راقٍ في دُفعتك.. صحيح؟

قلت بابتسامة يملؤها الفخر:

- الأول.

- واو.. دعني أؤكد فخري بك.

ثم نهضت ودارت حول مكتبها لتدعوك للجلوس على المقاعد الجلدية المريحة فلبّيت الدعوة.

- لقد نسيت أن أدعوك على مشروب.. ماذا تفضّل؟
- هذا لطفٌ منكِ.. فلتكن قهوة فرنسية.

رفعت سماعة الهاتف بجوارها لتأمر مساعدها بإحضار قهوة فرنسية، ولم تنسَ أن توبّخه على تأخره في إحضار الشاي الثقيل.. شعرت باسترخاء أكثر في الوضع الجديد وقلت:

- هنا أفضل بالتأكيد، في الحقيقة أنا أشعر براحة في الحديث معكِ يا.. لمياء.
- أنا سعيدة لسماع ذلك بالتأكيد.

اقتربت برأسها نحوك وقالت:

- أرى أنه لا بد أولًا من كسر الحواجز للوصول إلى الأسباب الحقيقية لتعب الأنفس.. إنه مفهوم الاعتراف بما لا نجرؤ على البوح به للآخرين يا صديقي.. ألا ترى ذلك جليًّا في العقيدة المسيحية! وفي الإسلام نقول في الدعاء "أبوء لك بذنبي".. إنه الاعتراف بما اقترفناه من خطايا وحماقات ما يخفف العقوبة ويمحها، ولا شك أنه يزيح عن الهم والتعب عن القلوب وتهدأ الأنفس لتسمح ببدايات جديدة.. دومًا هناك بداية جديدة يا صديقي وإن كانت كل يوم.

وتابعت متسائلة وقد ازدادت حماسة:

- هل أنت مؤمن بالله كفاية يا كريم؟
- بلا شك مؤمن، وأجتهد في العبادات قدر الإمكان، لكن بالطبع هناك تقصير يحدث.
- كلنا كذلك.. ما يهم أنك مؤمن بأن الله بيده تغيير كل شيء للأفضل، فقط عليك أن تبادر بنيَّاتك، وأن تصحب تلك النيّات أعمالًا لتحقق هذا التغيير.. مهما بدت المشكلات عسيرة الحل فإن مفتاح الإيمان هو أول ما تبدأ به للولوج عبر أبواب العلاج النفسي.

أضفى كلامها أثرًا متزنًا فيك، كأنها أزاحت ثِقلًا ما عن صدرك بالفعل بمجرد كلمات مطمئنة مهدئة.. حتى التنهيد خرج ببعض الهموم معه.

- أؤمن بالله وأستعين به.

- الحمد لله.. هل أنت كثير السفر بطبيعة عملك؟
- نعم، هذا يكسر الملل أحيانًا كثيرة، وأعتقد أنه يمنحني السعادة في حياتي لكن لفترة مؤقتة سريعة التطاير.

حضرت المشروبات الساخنة أخيرًا بواسطة كريم الآخر، فحدجته بنظرة لائمة وطلبت منه أن يخبر نيرفانا بأنها على وشك الانتهاء، فأخبرها أنه سيفعل ثم غادر سريعًا.

- ربما هذا ما يمنحه لك الغياب المتكرر لكن هل يمنح مَن حولك الشعور نفسه؟ لا تُجِب الآن، فكّر قليلًا.
- تقصدين زوجتي.. لتوضيح الأمر فهي ليست وحيدة، أمها تعيش معنا على الدوام.

هزت رأسها ببطء، وقالت:

- هذا يسبب نوعًا من عدم الراحة أو قلة الخصوصية لك؟
- مؤكد.. لكن الشعور بالارتياح متقلص من قبل أن تقرر أمها العيش معنا.
- ولماذا قررت أمها ذلك؟
- مات زوجها، الذي هو حمايا، و اتفقت زوجتي مع أخيها أن تعيش أمهما في منزل أحدهما فكان اختيارها بيتنا.. هذا لا يضايقني كثيرًا لكن لا شك أنه لم يساعد في جعل الأمور أفضل.

سألت سؤالًا مباشرًا وقد توقفت عن تدوين الملاحظات:

- في رأيك ما الذي يجعل الأمور أفضل يا كريم؟

أجبت دون تفكير أو تردد:

- أن أشعر بحبها، أن تفعل ما أريده ما دامت تستطيعه وما دام ما أريده منطقيًّا وصحيحًا باعترافها.. ألا تهملني!
- كيف تهملك؟
- تهمل ما أحب، تهمل الحياة التي أردت أن أعيشها، تهمل تفكيري في أمور حياتنا.. تخيلي أنها تلومني لا تشكرني على أنني جعلت حياة أسرتنا أرقى أفضل.. هذا يجعل مجهوداتي سُدى.. الرجل منّا يحب أن يتم تقديره على الخير لا لومه.

بدا الانفعال على وجهك، فقالت:

- أشعر بك و أقدّر مجهوداتك من أجل بيتك وأسرتك.

- **لكنها لا تشعر بذلك، ولذلك وجدت نفسي أنجذب للابتسامات والكلمات الرقيقة من غيرها، وكأنني أعوّض فيها الحرمان.**
- **ولماذا لم تحاول أن تتكلم معها صراحة في بما تشعر؟ لمَ لم تخبرها أنك تخرج من دائرتها لدوائر أخرى غيرها؟**

أشحت بيدك قائلًا:

- **كانت لتقيم الدنيا ولا تقعدها إذا فعلت.. الحديث بيننا يا سيدتي دومًا ما ينتهي بشجار.. وفي تلك الحالة لن يكون شجارًا عاديًا بل مزعجًا بشدة.. أنا دومًا مُدان بالخيانة.**
- **بالخيانة؟**

سألتك وعادت لتدوين هذه الملحوظة ثم قالت:

- **هل تطورت علاقاتك بالابتسمات والمجاملات ممن هن حولك؟**

تنهدت ثم قلت:

- **نعم.. بعض العلاقات قد تطورت.. وقد اكتشفت زوجتي شيئًا منها.**

يا إلهي.. الزوجة التي تدينك بالخيانة مسبقًا اكتشفت تطور علاقاتك بأخريات!

للأسف..

لقد منحتها الفرصة لثبات التهمة عليك يا كريم..

للأسف أيضًا!

انتهت جلســتك النفســية الأولى بنجاح وارتياح، والتقت عيناك بعيناها مرة أخرى، واعتذرت لها على غير ذنب منك، فقط لتظفر بابتســـامة مع النظرة، فظفرت بها.. اسمها نيرفانا.. يصعد قلبك إلى السماء مستندًا على ذكر اسمها، وبجناحي نظرتها وبسمتها تصل إلى أعلى النجمات الممكنة في السماء.. هل تكون هذه المختارة التي تجمع بين حكمة رزان وجمال نهال؟

أما عن لمياء فهي بداية جيدة لمفهوم الصديقة الناصحة؛ لم تلمس حتى الآن مدى قوتها العلمية في ما نصحتك به؛ بل هي استمعت أكثر مما تكلمت، وهذا ما تريده الآن، فلتذرف كل دموعك على أوراقها ثم دعها تحلل وتفند وتستنبط على مهلٍ.. أفضل ما في الأمر أنك وجدت المنفذ المناسب للثرثرة المريحة.

وحتى لا تتخلى عن تحليلاتك الدائمة لكل ما يحدث أويقال، فقد راجعت حديثك معها عن علاقة الإيمان بالرحة النفسية، وقد صدقَت والله، فما الذي يدفع مراد للاعتكاف واعتزال البشر جميعًا في نهاية شهر رمضان سوى أن ينقّي روحه المرهقة من آثار المعاملات مع البشر، دعك من أنه أول من يدخن الحشيش في ليلة العيد، لكنه بعد الظهور بتناقضات شتى يبدو في حالة سلام نفسي تحسده أحيانًا عليها، إنها طبيعته البشرية التي تدفعه للإيمان كي يستمد القوة الروحية التي تعينه على حياته الغريبة،

ولكي يكمل بذلك ما نقص في حياته من نجاحات علمية واجتماعية قد سبقته في الحصول عليها.

أخرجت مفكرة صغيرة دوّنت فيها هذه الملحوظات، وأول ما كتبت فيها: "لا بد من إشباع روحك إيمانيًّا في بداية رحلة التعافي النفسي".

إلى أي مستوى من السعادة كنت تنتمى في زواجك بالأخص وفي حياتك عمومًا يا كريم؟

قلت محاولًا التفكير معها بصوت مسموع:

- **سؤال جيد، لطالما طرحته على نفسي من قبل وما تمكنت من معرفة إجابة صادقة أو يقينية له.**

اعتدلت في جلستك لتظفر باسترخاء أكثر وقلت:

- **كنت أظن أن السعادة في الدنيا هي النجاح، لكنني اعتدت النجاح فهربت السعادة.**
- **ذكرت شيئًا عن صراعك مع الحب.. ماذا تعني بالضبط؟**
- **الحب.. أشعر أنه إحساس مهم في الحياة لكني لا أجده، أنا أحب زوجتي بموجب أنها زوجتي التي اختارها عقلي بحرص، لا شيء فيها يدعو للرفض أو النفور، لكن هل تعلمين تلك اللحظات الحميمية بين الرجل وامرأته؟ أنا لا أجد قلبي يدفعني إليها..**

فلتحكِ إذن عن الابتسامات الصادقة التي استقبلت بها رزان، والشهوة التي اندلعت نيرانها دافعةً إياك على وجهك مع نهال، عن حب قضاء وقت أطول في أعمال تربح من ورائها المال أو ترى في أعين الناس بسببها الامتنان.. احكِ عن علا، قصة الحب التي لم تكن! وكيف بدأ الأمر وكيف مضى واستمر، كيف كانت أعياد ميلادكما وزواجكما تقام كأنها مهمات عمل تنتهي بالتصفيق لما صنعت.. صف لها ملامح وجهك في كل صورك، بل اعرض لها تلك الصور عرضًا لتكتشف فيها وجه لا قلب حاضر لصاحبه.

أخبرها أن الحب لم يتقلص يومًا أو يقل، فالحب الذي قل كان مكتملًا في يوم ما أو على الأقل كان كافيًا مشبعًا.. قل لها أنك قمت بالتفكير في اتخاذ القرار بنمط التفكير في شراء شقة جديدة لا أكثر، ولعل بناء الحب الضخم الذي أخبروك عنه لم يكتمل بكما حتى اليوم.. لا بد وأن تعرف الطبيبة كيف كان شعور انجذابك إلى رزان والذي لم يماثله شعور مع زوجتك، كيف استطاعت رزان أن تسكن قلبك إلا لو وجدت فيه خواءً!

ونهال التي كادت أن تصير زوجتك بين يوم وليلة إلا أنك تكتشف الوجه الحقيقي القبيح لها، ليكون ذلك دافعًا يُحيي شعلة حب علا الباردة من جديد بسبب مقارنة أجريتها غير ملزمة.. هل كان من المفترض أن تذوق الويلات من نهال صعبة المراس تلك حتى تقدس زوجتك؟! لقد أسأت لها بالمقارنة.

- كريم، هل تبحث عن زوجة أخرى؟

استحوذت الفكرة على رأسك وصارت حتمية.. ستتزوج حتمًا، كدت أن تفعل لولا مراد الذي أفسد ما بينك وبين نهال، لا تستطيع لومه، لقد كان يحاول أن يوقفك عن حفر المزيد في قاع حفرتك التي تصر أن تزيد من عمقها بغبائك.

ليس الخطأ في الفكرة و إنما فيمن فكرت أنه يصلح لمشاركتك تنفيذها.. أنت لا تتزوج كل يوم.

- نعم، أريد زوجة أخرى، حياة أخرى، حب حقيقي يجعلني أشعر بسعادة دائمة.

الزوجة الثانية أو الأخت الصغرى كما أطلقت عليها لمياء لا بد أن تكون أفضل من الأولى في صفات عدة، أو على الأقل مثلها.. من الجيد أن تتساوى معها أيضًا في بعض الأخلاق والمبادئ العامة التي ترضيك.. أما لو كانت أنانية تريد أن تستحوذ عليك وحدها فهذا يساهم بقوة في فساد بيتين وليس بيتًا واحدًا.

يجب ألا تكون بخيلة المشاعر، تضنّ بالمجاملات عليك؛ أنت في حاجة لإشباع معنوياتك وليس غرائزك فقط، لذلك كانت خسارة نهال واجبة في رأيها.. كما أنها ألقت عليك بهمومٍ كالجبال، متمثلة في مسؤولياتها، و ابنها آدم أيضًا.. في النهاية لقد هربت من كل شيء لتمحو احتمالية الندم عليها.

كانت لمياء تكتب باستمرار، لا تحب أن تسجل كلامك بطرق التسجيل الصوتي، لكنها أيضًا كانت تنظر إليك و أنت مسهبًا في الحديث.. نظرت إليك بتلك الابتسامة المبشرة وقالت:

- سأطلعك على ورقة بها بعض الرسومات البسيطة.. عليك أن تخبرني بما تراه وماذا يمثل لك؟

وضعت الورقة أمامك على المنضدة، وأشارت إليها.. تناولت الورقة وثبتّ نظارتك الطبية وبدأت تهمس:

- هذه الدائرة الكبيرة التي بها أدوات ميكانيكية وطائرة وحلقة ترس ورسم لمنزل رديء جدًّا.

ثم ضحكت لتضحك هي أيضًا وتقول:

- لا تسخر من رسمي من فضلك.. مؤكد أنك فهمت أن هذه الدائرة تمثل أعمالك والحياة المهنية.
- نعم بالتأكيد، ثم الدائرة الأخرى فيها رسمة لامرأة كبيرة وأخرى صغيرة، هذه زوجتي وهذه سارة ابنتي، لكن ينقص هذه الدائرة وجود حماتي فيها.
- فلترسمها أنت.

ثم ضحكت وضحكت معها، وأعدت النظر مرة أخرى في الورقة وقلت:

- يوجد وجه كاريكاتيري ليس بحزين أو سعيد.. دائرة صغيرة داخلها علامة بحث كالتي نراها في صفحات الإنترنت.. ربما تمثل هذه بحثي عن شيء ما.

قالت وهي تأخذ الورقة منك:

- شخص ما سيدي وليس شيء ما.. أنت تبحث عن شخص ما ليعدّل من مزاج هذا الوجه الجامد، شخص لا بد وأن يكون أنثى، ذلك الكائن الذي أهملت استكشافه في أوقات مراهقتك ودراستك.. ولأنك شخصية لا ترضى إلا بالتميز والحصول على أفضل ما يمكن فإن عقلك اللاوعي الآن ينغص عليك معيشتك.. ثمة معارك بداخلك يا كريم بين أمور شتى.

فترة صمت قليلة مرّت قبل أن تقول لها:

- هذا ما كنت أخشاه يا لمياء؛ فأنا لا أفهم شيئًا مما قلتِ ولا دراية لي بالعقل الواعي واللاواعي، لكني أعترف أنني أبحث عن أنثى أخرى غير زوجتي.
- نعم هذا صحيح.. ربما أستطيع أن أبسّط الأمر بمقولة فرويد عن الحب والعمل عندما وصفهما بحجر الزاوية للإنسانية.. أنت حققت إنسانيتك وأشبعتها في جانب العمل، لكنك تفتقد إنسانيتك في جانب الحب.

رشفت آخر قطرة من الشاي الأسود و أكملت:

- عقلك اللاواعي هذا يريد منك تحقيق التميز في الزواج والحب كما هو محقق في العمل، لكن عقلك الواعي سيسمي ذلك بالخيانة مثلما تتوقع أن تسميه زوجتك بالضبط.. كما سيضع أمامك كل العقبات المحتملة لتحقيق ذلك.. هذا ما أصفه بالمعركة بين عقلك الواعي واللاواعي.

أضاء وجهك بالفهم قليلًا قائلًا:

- هذا قريب جدًا من الصحة.

قالت وهي تبدأ الكتابة في ورقة جديدة:

- أنت الآن تحظى بسعادة غير كافية مع زوجتك بدأت بشعلة حب صغيرة لم تتضخم، لكن في الوقت نفسه لا يوجد مبرر لكراهيتها أو تركها، وخصوصًا في ظل وجود سارة.
- تمام.. توجد إضافة لم أخبرك بها، إن زوجتي مريضة بمرض مزمن يقول الأطباء إنه لا يوجد علاج شافٍ تمامًا له حتى الآن.
- أي مرض؟
- التصلب المتعدد.

صمتت لمياء قليلًا وبدت أنها تفكر بجدّية بالغة، لدرجة أن فارقتها الابتسامة الدائمة لبرهة.. أخذت الورقة الأولى وأحاطت رسمة علا المجازية بدائرة داخل الدائرة التي تضمّها مع سارة، وقالت مفسرة لتغنيك عن السؤال:

- هذا يوضح أن علا لها ظروف خاصة عليك مراعاتها، وإن قراراتك المصيرية في حياتك كالزواج من امرأة أخرى أو حتى إقامة علاقات من أجل الوصول لذلك يمثل خطرًا عليها إذا ما اكتُشف الأمر.. أرسل لي صورًا من آخر تقارير طبية أجريتها لها لو سمحت لأعرف إلى أي مدى تطور معها المرض.

أمسكت بهاتفك وبحثت عن التقارير وأرسلتها لها في التوّ، ثم دوّنت في مفكرتك الصغيرة سطرًا؛ "أنا أريد الزواج من امرأة أخرى لكن هذه الرغبة ستمثل خطرًا على علا حال اكتشافها للأمر"..

خرجت من غرفة لمياء إلى صالة العيادة لترد على هاتفك الذي يرن للمرة التاسعة.. كان مراد المتصل فأجبته على الفور لتعطي لنفسك مساحة أكبر من الوقت لتتأمل هذه المرأة.. لم تكن تدري أن للقمر نسخة أخرى لا تدور في فلكها حول الأرض، بل ربما أن القمر الذي يظهر في السماء هو النسخة، وأن نيرفانا هي القمر على حقيقته، فهي تخطف عقلك كلما رأيتها.. أطلت الكلام مع مراد بغير داعٍ، كنت تراقبها من خلال مكالمتك المصطنعة وقد لاحظت ذلك.. توجهت إليها بحرص قائلًا:

- أعتذر إن تسببت في تأخير لقائكما للمرة الثانية.

قالت بأدب:

- لا أبدًا، أنا من فاجأتها بقدومي اليوم من غير سابق موعد على كل حال.

خرجت لمياء في هذه اللحظة لتلقي نظرة على كريم الآخر ففوجئت بنيرفانا صديقتها، أقبلت عليها سريعًا وعانقتها قائلة:

نيرفانا.. لقد افتقدتك كثيرًا.

وعلى مائدة العشاء بمنزلك كنتم تتحدثون جميعًا..

يبدو أن حماتك كانت تحكم على أحد ما، كان هو موضوع حديثها مع ابنتها أثناء تجهيز العشاء في المطبخ:

- هذا رجل ناقص ذاك الذي يتزوج على امر أته دون وجه حق.. ما العيب فيها؟ ما ينقصها حتى يطمع في غيرها بأنانيته؟

و افقتها علا قائلة:

- ناقص وخائن أيضًا.

ثم نظرت إليك مستفسرة عن رأيك:

- تصور يا كريم أن عامر زوج أفنان صديقتي من النادي قد تزوج عليها.. الأعجب من ذلك أن الأخرى مطلقة وأم لبنتان.. لا أدري أي شيء قد فتن عقله بها!

كنت تنظر إليهما وتلوك الطعام داخل فمك، فحشوته بالمزيد من أصابع البطاطس و اكتفيت بهزّ رأسك و أنت تتذكر نهال!

- يبدو أن لديك رأيًا مخالفًا.

فطنت أنه لا مفر من الجدال، فقلت:

- في الحقيقة ليس رأيًا مخالفًا بقدر أنه مجرد تساؤل يحيرني كلما تناقشت مع الآخرين بهذا الصدد.. كيف يتصف الرجل المتزوج بالنقص عندما يود الزواج مرة أخرى.. في الوقت نفسه تتساءلون عن ما الذي ينقص زوجته ليتزوج عليها؟

قالت حماتك مهاجمة:

- يعني أنك تؤيد هذه الخيانة؟ لم أكن أتوقع أن مهندسًا كبيرًا مثلك يفكر بمثل هذه الطريقة الرجعية؟

ابتسمت لها في سماجة وقلت بثقة:

- كنت أعلم أن سؤالي أعمق من أن يصل إليكِ سيدتي.

فردّت علا بابتسامة هادئة:

- لسنا أغبياء يا كريم، أنت الذي تتفلسف، عمومًا هما الاثنان مشتركان في الخيانة؛ الزوج ومن رضيت أن تكون زوجة ثانية لتخطفه.. لكن ما الذي يجعلك تدخل في هذه النوعية من المناقشات؟ هل تفكر أن تفعلها؟

أجبت في تحدٍّ:

- ولم لا؟ ماذا ينقصني لعدم فعلها؟ المقدرة.. الحمد لله لدي القدرة المادية الكافية.. العدالة، من السهل التحكم بها.

قالت علا في أسى وقد تغيّر لون وجهها:

- كنت أخشى هذه اللحظة!

فقلت مطمئنًا:

- أنا أمزح يا علا، أنا بالكاد أجد وقتًا أقضيه معكم.. ما أردت قوله في الحقيقة أن زوج أفنان هذا لم يرتكب جرمًا أو إثمًا، لقد فعل شيئًا مباحًا، و أنتِ على دراية جيدة بسوء خُلق أفنان هذه.. أتذكرين أنني قد حذرتك من الاستمرار في صداقتها، لكنك لا تفعلين يا عزيزتي! لذلك أرى أن زوجها على حق فيما فعله، وأراه أيضًا نوعًا من الإصلاح الاجتماعي وليس سعيًا وراء شهوته ونزعاته الغريزية.. انظري كيف صارت غالبية النساء ما بين مطلقة أو أرملة أو متأخرة عن سن الزواج الطبيعي.. النسب الحصائية مرعبة يا عزيزتي!

- فعل شيء مباح.. هذا ما يحفظه الرجال من الشريعة، اختزلوا الدين كله في تعدد النساء.. وهل أحصى الخبراء عدد النساء التي تتطلق بسبب الخيانات الزوجية للأزواج؟ هل قاموا بعد هؤلاء اللاتي تزوجن من رجل متزوج بالأصل فلم ينجح زواجهنّ لأنه كان مبنيًّا على الخيانة؟!

ابتسمت حماتك بخبث مشجعة ابنتها، بينما شعرت أنك قد هُزمت في المعركة الجدالية، وأردت أن تكون صاحب الكلمة الختامية على الأقل، فقلت:

- ليست المشكلة فيما أباحه الشرع بالتأكيد بل المشكلة في تطبيقه.

فأجابت سريعًا:

- بالضبط.. أتفق معك تمامًا، فلا يوجد اليوم رجال أو نساء يعتنقون هذه الثقافة أو يجيدون تطبيقها.

انتهى الجدال بسلام على غير المعتاد، ودعتكم الحاجة فاطمة حماتك لمشاهدة فيلم كوميدي قديم سيعرض الليلة على شاشة التلفاز، فلم ترفض دعوتها؛ الليلة ليلة الجمعة وغدًا إجازة، فرصة لتستغل هذا الجو الدافئ لسهرة لطيفة أُسرية.

وقد كان ما رجوته، و انتهى اليوم نهاية ممتعة للجميع.. تحررت علا من منغصاتها المزاجية واستجابت لعلاقة حميمية معك وشعرت بأن هذا اليوم لا بد وأن يسجله التاريخ بعنوان "اليوم المثالي لأسرة المهندس كريم شوقي".

غطّت علا في نوم سريع متأثرة بالتعب؛ التبست عليك أسباب تعبها مرارًا.. تبدو مسالمة أثناء نومها، خللت أصابعك بين خصلات شعرها الأسود ثم قبّلت جبينها بعطف واعترفت لنفسك بأن العلاقة الحميمية كانت من صميم إحساسك، ولم تفعلها لمجرد الاعتياد أو الحاجة الجنسية.. هذا كان إيجابيًّا رائعًا على غير العادة، لكن ما أسرى القشعريرة في ظهرك هو وجه نيرفانا الذي لم يتزعزع من أمام عينيك خلال العلاقة، كأنك تعاشر جسدًا بوجه آخر!

*****

نيرفانا

"غالبًا الرجال تصاحب النساء لسببين، إما الحب وإما الجنس، وقد يلتقي السببان معًا لا شك في ذلك، مهما نفوا ذلك أو حاولوا تحريفه لمعاني أسمى وأرقى سينتهي بهم الدوران للنقطة الأصلية نفسها؛ الغريزة التي لا مفر منها ولا جدال حولها.. طبعًا لا أتكلم هنا عن الصداقة بين الجنسين، فتلك علاقة أيضًا أساسها الحب والتفاهم والارتياح، لكن بدرجات سطحية لا ترقى لرتبة الشريك الدائم لرحلة الحياة، أما الرجل فلن يتزوج في النهاية إلا من أجل الاستقرار والثبات، سيحب إقامة علاقة طويلة تبنى على هذين الشيئين العظيمين، سيعرف هذه وتلك لسنوات، ربما يُمنح الحب، أو يحصل على الجنس بطريقة غير شرعية، لكن في حالة استقرار قلبه بداخل أحضان إحداهنّ سيستسلم لفكرة الزواج، وسيسلم مفاتيح مدينته الخاوية لملكة تحكمها أو تشاركه عرشها، وسيصبح تنحّيها عن عرش مدينته من الصعوبة بمكان.

عكس النساء.. لا يتزوج الرجل من أجل العُرس أو الاحتفال أو الزي المميز لهما، لن يحلم كثيرًا بباقة الورود البيضاء التي سيلقيها مستدبرًا أصدقاءه و أقاربه ممن لم يحظوا بعد بما حظي به هو اليوم، لكن ربما سيفكر في الإنجاب مثلها، هذا هو القاسم المشترك وما عدا ذلك نقاط الالتقاء قليلة.

فيم تفكر أنت عندما تودّ الزواج الآن؟ لا شك أنك ستبحث عما ينقصك، والذي هو في حالتك يتمثل في الحب والارتياح؛ بيت جديد قائم على التو افق والمودة والرحمة، تلك جذور الثبات والاستقرار.. أما الأمور المادية فهي فرعية ومعظمها من أجل المرأة، الزوجة التي أعجب بها وأحب أن يقضي معها وقتًا أطول من اللازم، ظنًّا منه أنه سيصبح سعيدًا كلما استمر ودام هذا الوقت.

لا بد لك من التفكير أيضًا فيمن سيرعى لك أولادك وبيتك في غيابك ليكمل ما بنيته أنت، واعلم أن سكنك الذي غادرته صباحًا رغمًا عنك إذا فقدت الشوق إلى الرجوع إليه في لحظة عابرة من لحظات اليوم فأنت في مشكلة حقيقية، عليك أن تغادره مضطرًا وتعود إليه متلهفًا كالوطن تمامًا، وإلا فليس بسكن وليس بوطن.

هذه الزوجة التي أحببتها بداية لها صفات أساسية، فهي عطاءة تبادلية في المقام الأول، تتعامل بكرم بالغ معك.. بمعنى أنك إن أعطيتها من حياتك شبرًا أعطتك ذراعًا، وإن أعطيتها ذراعًا أعطتك باعًا.. أعطها المال ستعطيك الوجه الحسن مهما كانت درجة جمالها.. أعطها الخضروات، واللحم، والفاكهة، ستعطيك موائد الطعام

والشراب الطيب.. أعطها الاهتمام والحب وستجعل منك ملكًا سعيدًا ولو بغير مملكة، وستتوجك بتاج الراحة والرخاء.. وعندما تريد الإنجاب أعطها حيو اناتك المنوية لتلد لك الأطفال وتخلد اسمك وتحيطك بالأطفال... في كل الحالات والأحوال ستجود عليك المرأة بمقابل أعظم مما بادرتها به، لكن في البداية عليك أن تبادرها بذلك أنت.

أتجد أكرم و أنبل من تلك المعاملة؟! وعلى النقيض تمامًا من كل ذلك، إن أردت رؤية أسوأ الكوابيس نهارًا وليلًا، وشروقًا وغروبًا ما عليك إلا إهمالها وغلق صنبور الاهتمام عنها، وأعدك بأنها ستمنحك اشتراكًا إجباريًا في نادي المعذبين.. أنت تعرف ذلك على الأرجح، وهنّ يعرفنَ ذلك على الأرجح أيضًا.

هذه هي الأسباب التي تجعلك تعيش سعيدًا لمدة غير محددة مع امرأة ما يا كريم".

خمس جلسات انقضت كنت المتكلم فيها وكانت هي تستمتع بتفاعل، في الجلسة السادسة تبادلتما الأدوار، فألقت على مسامعك من عِصِيّ الحقائق ما تلقفت به كل الأباطيل التي نمت في رأسك عبر سنين، لكن...

- لمياء أنا أريد إصلاح بعض الأشياء فقط، ما تحدثيني عنه ما هو إلا صورة متكاملة ومثالية لن أصل إليها على الأرجح.

سكتتّ هنيهة ثم أردفت:

- أريد تشخيصًا واضحًا لما أمرّ به.
- التشخيص الذي أراه أنك رجل صالح ينقصه بعض الاهتمام، بعض الحب، بعض من الأشياء المهمة.
- وما العلاج لهذا النقص؟
- أن تكمل نقصك.. أن تجده.. هذا أوضح من الشمس.
- وكيف أكمله إن كان هذا مستحيلًا مع زوجتي.
- لا شيء مستحيل، لكن إن أردت أن تبدأ من جديد فلتبدأ مع امرأة غيرها بشرط أن تنتقي الأفضل هذه المرة، أن تنتقي من تكمل نقصك، من تحبها من قلبك وليس من عقلك!

سرحت و اقتضبت، لم تتوقع أن تشير إليك امرأة مهما كان موقعها في حياتك بهذا الحل، تشعر أنه فخّ سيهلكك، لكن أليس بعض كلامها شبيه بكلام مراد؟! هي اختصاصية نفسية، أما مراد فهو صديق.

- هل إذا فعلت أخبرها أنني سأتزوج غيرها؟

- إياك أن تفعل.. هل تريد أن تصدمها وتتسبب في موتها، لقد راجعت تقاريرها الطبية، حالتها غير مستقرة وقد تتدهور في أي وقت أو تحت أي ضغط، لن تتحمل أي صدمة أخرى.. تستطيع أن تتأكد من صحة كلامي إذا سألت طبيبها المتابع.

كنت تعلم حقيقة ما أخبرتك به.. مرت ثوانٍ من الصمت قبل أن تواصل كلامها:

- النساء لا تقوى على تقبّل الحقيقة العارية ولن تفيدك وقتها كل المبررات مهما كانت مقنعة.. هل تعتقد أنها إن تقبّلت أمر زواجك من أخرى أنها لن تدخل بذلك في حصار المقارنة؟ لن يكون أثر ذلك حميدًا على كل منكما.

*****

في صباح اليوم التالي أثناء عملك تلقيت اتصالًا دوليًّا يبدأ رقم صاحبه بـ 49، إنها نهال بالتأكيد.. قاومت رغبتك في عدم الرد لترد عليها أخيرًا بفتور، حاولت في المكالمة القصيرة نسبيًّا أن تبدو كزميل عمل لا أكثر، وقد نجحت، لكنها كانت تحاول استمالة الشخصية القديمة وبعثها من مرقدها مرة أخرى، لكن الأمر ليس بهذه السهولة.. ليس هذه المرة يا نهال، لا يلدغ مؤمن من جُحر مرتين.

- الأمور ليست أفضل شيء.. السكن الذي ساعدتني الجامعة على توفيره ضيق للغاية وإلا فعليّ مشاركة شقة مع أحدهم.. تخيل لم آكل اللحم منذ شهر! مع ذلك البلد جميل والجو بارد منعش.

ساد الصمت الهادئ للحظة ثم قالت:

- لقد اشتقت إليك يا كريم.. أعترف أني أتعبتك كثيرًا، أعلم من بعض الزملاء أنك تسافر كثيرًا لأوروبا، أتمنى أن تتقاطع طرقنا ذات يوم قريب، سيهوّن ذلك كثيرًا من قسوة الغربة والذل هنا.

قلت بتعجب:

- ولمَ عليكِ تحمل ذلك كله، و أين أصدقاؤك المخلصين؟ عامة الأمر بيدك أن تعودي لوطنك ومسكنك وولدك آدم.. لقد بدأت الطريق ولم يمر عام واحد حتى على رحيلك وباتت نتيجة السفر للدراسة واضحة أمامك.. أنا أيضًا سمعت من بعض الزملاء أن مديرك متذمر من إجازتك الطويلة هذه ويحاول الوصول إليكِ.

- لا أدري ماذا يريد الجميع مني؟ ماذا لو يظل كل منّا في حاله؟

- نهال أنتِ لستِ على الكوكب وحدك، أنتِ مطالبة من المجتمع حولك بمسؤوليات مشتركة، كلنا مسؤول وعلينا التعامل بجدّ وبصورة عملية في ذلك.

*****

دعوت مراد لعشاء أُسري بالبيت فرحّب بذلك، هو وحيد في كل الأوقات على العموم.

في المساء حضر ومعه هدية صغيرة لسارة والكثير من قطع الشيكولاتة التي تعشقها. بعد تناول العشاء الخفيف طلب مراد الشاي فقامت علا لتحضره، بينما استأذنت أمها للنوم، وخلا المكان لكما لبرهة من الزمن، أخبرته همسًا باتصال نهال وعدم اكترا ثك لذلك؛ كنت مسرورًا لأنك اعتبرت ذلك أمارة على تعافيك من سمومها.. فأخبرك مراد أن السموم العاطفية لا تخرج من القلب سريعًا، والحمد لله على خروجها. قربت فمك من أذنه وقلت سرًّا:

- هناك المزيد من الأخبار مع صديقتك الطبيبة...

لكنك لم تكمل جملتك حيث ظهرت علا تحمل إناءً عليه أكواب الشاي تعلوها الأبخرة المتصاعدة. قمت لتتناوله عنها. قالت وهي تجلس معكما موجهة السؤال لك:

- ما أخبار جلساتك مع الطبيبة النفسية؟

تغيّر لون وجهك وأجبت من تحت ضروسك:

- هل هذا الوقت المناسب؟

قالت بتحفّظ:

- أعتذر يا كريم، أردت فقط فتح حديث جماعي، فأنا على علم بأن مراد هو من رشّحها لك.

قال مراد محاولًا معالجة الموقف:

- حصل خير.. كان سيخبرني للتوّ عن تطورات جلساته.

وهذا غبي آخر..

قلت وقد وصل يأسك منهما لقمته:

- اشرب الشاي يا مراد.

ثم عادت علا لتبرر موقفها وتبينه موضحة:

- الذي أردت قوله أنك تتحسن نفسيًّا يا كريم، وأصبحت أهدأ أيضًا من ذي قبل.. هذا ما أردت قوله صدقني.. كما أردت أن أشكر مراد على ترشيحها لك.. بالمناسبة كيف عرفت هذه الطبيبة يا مراد؟

طار التوتر تاركًا وجهك ليحل على وجه مراد، لكنه رشف من قدحه وقال على الفور:

- ما هذا؟! ألا يوجد سكر في الشاي.. من فضلك أحضري لي قليل من السكر.

همت علا بالقيام لإحضار بعض السكر فقلت موقفًا إياها:

- اقعدي يا علا.. مراد لا يضيف السكر لأي مشروب، حتى القهوة يشربها سادة مثل حياته.

فطنت علا لمراوغته وقالت:

- يبدو أن الأمر خاص بك.. حسنًا أعتذر عن سؤالي.

ثم قالت وهي تضحك:

- يبدو أن وقتي معكما سيضيع بين الاعتذارات على أخطاء لا أتعمدها.

فقلت مازحًا مستغلًّا الفرصة في حصاره والتضييق عليه:

- لا تعتذري، مراد ليس لديه ما يخفيه عنا فنحن أهله وعزوته.. أخبرنا يا مراد كيف عرفت دكتورة لمياء؟

ابتسم مراد وقال بتحفّظ:

- كانت صديقة مقربة في وقت سابق ثم انقطعت أخبارها فجأة لتظهر مرة أخرى بعد سنوات لتخبرنا بأنها قد تزوجت من رجل ثري يعيش في أمريكا.. قالت إنه وعدها باستكمال دراستها هناك على نفقته الخاصة وفي أفضل الجامعات، وقد أوفى بوعده.. بعد انتهاء دراستها وحصولها على زمالة جامعة لا أذكر اسمها...
- كاليفورنيا.. جامعة كاليفورنيا يا صديقي.

زفر مراد ونظر إليك وعلى وجهه ابتسامة الغاضب، واستكمل قائلًا:

- بعد حصولها على زمالة تلك الجامعة أرادت أن تزاول المهنة كطبيبة نفسية، لكنه رفض، وصار الاختلاف بينهما مفترقًا للطرق، لأرى بعدها اسمها مكتوبًا أمامي على لافتة عريضة، حيث كنت أجلس على المقهى المفضل لي بمصر الجديدة، فعلمت أنها عادت لتحقيق ما تمنّته.

سكت مراد فطلبت منه أن يكمل القصة فقال:

- لا شيء بعد!

قالت علا:

- ليست بقصة مؤثرة.

فقلت:

- لأنه لم يخبرنا بالقصة كاملة.

استأذنتكم علا لمتابعة الطفلة، وما إن اختفت عن عينك قلت لمراد:

- كنت تحب لمياء.. أيها الوغد لماذا أخفيت عني ذلك؟

ضحك مراد ولم يرد، فأصريت على أن يتكلم ولا يخفي عنك شيئًا مثل هذا، وقلت له:

- لماذا لم تفكر في العودة إليها مرة أخرى ما دمت تحبها؟

قال مراد وقد بدا عليه التأثر الشديد لأول مرة في حياته:

- أحبها! لم أحبها قط يا صديقي، لم أستطع ولن أستطيع، مثلها يليق بها قلب سليم ليس ممزقًا أو مضمدًا من آثار الجراح، لن ينعم قلبي بها ولن تنعم هي بذلك؛ لذا اكتفيت بأن أعلن أنها حبيبتي التي لو كان لي حبيبة فستكون هي.
- لماذا لم تفكر أن عودتها كانت من أجلك؟
- لمياء عادت من أجل عملها فقط، لمياء لا تكذب في حرف مما تخبر به، إنها رمز الحب السلس يا صديقي، الصفاء والنقاء بغير لحظة كدر واحدة، هي الأفضل عندي من بين كل البشر، ولعل قصّتها القصيرة معي هي الفائزة بالمثالية.
- لكنك قلت عن آنا البرازيلية الشيء نفسه وقد افترقت عنها أيضًا، ما يجعلني مقتنعًا بفكرتي عن أنك تخشى الارتباط لسبب خفي لا أعلمه.. أنت تهرب في كل مرة.
- يا كريم لا تضخم المشكلة.. لقد كانت آنا أيضًا مميزة وأحببتها من كل قلبي قبل أن تظهر لمياء في حياتي، لكن آنا كاثوليكية، إما أن تكفر هي لنتزوج أو أكفر أنا لنفعل.
- هذه آنا، فماذا عن لمياء، هل هي يهودية؟
- أرجوك كفّ عن المزاح، هذه صعوبات حياتي، لا تستخف بها.. لقد اختارت لمياء مستقبلها الأكاديمي على أن ترتبط بشخص مثلي، ورغم ما فعلتْه فأنا لا ألومها أبدًا، لم تخطئ إذا فضّلت حياتها العلمية عليّ.

ابتلع ريقه وقال:

- لكنها وحيدة الآن تتأرجح بين العلم والعمل بلا حب.. أنا أيضًا بلا حب مثلها! لقد اختار الجميع حياته وكيف يعيشها، فماذا عنك أنت بعد جلساتك معها؟ لقد مر نحو الشهر والنصف.
- لقد اتخذت قرارًا مهمًّا يا صديقي.

أعلن صمت مراد عن انتظاره لسماع قرارك المهم، فقلت:

- سأتزوج.

*****

ستقترب رويدًا رويدًا لترى عن قرب تفاصيلها الخفية، حذارِ هذه المرة أن يغريك اكتشاف العيوب وملاحظتها قبل المميزات، لقد خطفت بصرك من أول لقاء و أنت تعلم يقينًا أن هذا لا يكفي لشراء لعبة، فكيف بعلاقة كاملة، لا يوجد حب من أول مشهد إنما هو إعجاب ملحوظ، دعك من الأفلام والمسلسلات وما يدعونه من خيال، كن على أرض الو اقع.. ماذا لو سألت عنها صديقتها؟

*****

- ماذا لو سألت زوجتك؟!
- إطلاقًا لن تقبل الفكرة أو حتى الحديث عنها.

قال مراد مصححًا:

- أقصد أن تسألها مباشرة عن الأشياء التي تنقصكما.. ما الذي لا تحبه فيك؟ و أنت تصارحها بما تريده منها لعل هذا يفتح بابًا لكما لمعالجة التقصير.
- أنا لست مقصرًا في شيء معها.
- هذا ما تظنّه أنت، كل امرأة لديها متطلبات تتعامل معها كالأسرار التي يجب عليك معرفتها وحدك، لن تطلب منك كل أشكال الاهتمام صراحة، اجعل لها فرصة أخيرة لتتعرف على خباياك وتتعرف أنت على خباياها.
- هذا لن يضيف جديدًا يا مراد، هي لن تتغير ولن تستطيع ذلك، إما بسبب مرضها أو بسبب ما توسوس به أمها أو بسبب شخصيتها العنيدة، لقد فات أوان ذلك.

سأل مراد بحذر:

- هل كرهتها يا كريم؟

أجبته بذكاء:

- لا.. لكني على شفا ذلك إن لم أنعم باتزان عاطفي في حياتي.

*****

"إن حبك الأول ليس حبك الأخير بل إن حبك الأخير هو حبك الأول".

الأديب الراحل إحسان عبد القدوس

"في حياة كلّ منّا وهم كبير يسمى الحب الأول، لا تصدق هذا الوهم، إن حبك الأول هو حبك الأخير".

الأديب الراحل إحسان عبد القدوس

*****

- لا أدري ماذا كان يقصد هذا الرجل العظيم! لن أبحث كثيرًا عن زوايا في دائرتي يا صديقي، سأتحدث معها أثناء جلسة الغد.. لسبب ما لا أعلمه هي لم تدع جلسة إلا وكانت متواجدة بالعيادة في موعد كشفي نفسه، كأن القدر يهديها لي.

*****

طرقات لطيفة على الباب توحي بأنها فتاة.. توجهت علا لفتح باب الشقة لتجد جيهان.. ما أجملها من فتاة!

ارتمت في حضن علا وأجهشت ببكاء حنون حتى تنفستا الصعداء؛ أخيرًا يبدأ الألم في الانسحاب، عناقهما يمحي الجراح، ودموعهما تزيل آثار الألم.. لقد قام الزمن هو الآخر بدوره في العلاج، فأنساهما ما كان، لكن جيهان تطمع في مزيد من كؤوس المغفرة المقدسة.

- فلتغفري لكريم!

مطلب عظيم من فتاة عظيمة، لكن لم يسع علا إلا قول حفظته عن ظهر قلب لما صادفته على صفحات التواصل، فألقته على مسامعها كما قرأته:

- وإن فعلت يا عزيزتي، يؤسفني أن المغفرة لا تنقذ الحب وأن فرص الأسف في الإصلاح ضئيلة.

عادت جيهان ليلتها بنصف المكاسب التي توقعتها قبل قدومها.. أخوها لن يتبرأ منها في أسوأ الأحوال، وصديقتها عادت لها من جديد.

*****

اتصال آخر غير محبب لقلبك من ألمانيا...

- أهلًا كريم، كيف حالك؟
- بخير.. كيف أنتِ؟

تتنهد ثم تقول بنبرة باكية:

- لست بخير على الإطلاق، لا أستطيع الإنفاق على الدراسة أو المعيشة، الأمر يزداد صعوبة كل يوم، ما زلت أعاني من ضعف اللغة الألمانية.. لكن هذا ليس الأسوأ.

ترد بتهكم:

- كيف هذا؟ والكورسات والشهادات التي حصلتِ عليها! وماذا عن العمل، ألا تستطيعين توفير ما يلزم منه لمعيشتك هناك؟
- أنا أعمل في مستشفى نوبتجية مع ثلاثة آخرين؛ رجل سوري و اثنان من العراق، أحوالهم تشبه لأحوالي، لا يجدون ثمن السكن.
- تقصدين أنكم تبيتون في المستشفى؟
- نقضي الليل في العمل ونستلقي قليلًا بغرفة واحدة حتى الساعات الأولى من الصباح، ثم يتوجه كل منّا إلى ما جاء إلى هذا البلد من أجله.
- هل أسمي هذا فشلًا؟!

سكتت ولم تجِب، وبدا عليها أنها تبكي.. ظننت أنها لن تبكي أمامك مرة أخرى.. هذه الدموع ما زرفت عمدًا، إنها تحترق داخليًّا وعليك فعل شيء من أجلها.

- اسمعي.. أرسلي لي برسالة فيها تكاليف ما يلزمك لاستقرار وضعك و أنا سأقوم باللازم.
- سامحني يا كريم على كل شيء.. أرجوك.
- لا داعي لذلك الآن يا نهال.. فقط أريد أن أسمع عنكِ أنك أصبحتِ بخير حال.

*****

في الموعد نفسه، بالجلسة مستقيمة الظهر نفسها، والنظر الحاد إلى اللاشيء.. كانت هناك، نسخة القمر الأخرى على أرضنا.. قصدت الابتسام لها فابتسمت بثبات، هذه الابتسامة التي لا يستطيع شخص أبدًا فك شفرتها، حتى إن قلت مجاملة قد تكون مخطئًا.

هذه المرأة لا تُمتلك، وإن أحببتها ستحب أن تمتلكها، مجرد محاولة امتلاكها قد تكون أول مسمار يدق في نعش علاقتك بها.

قالت لمياء:

- بل ستمحو تاريخك معها كأنه لم يكن.. هذا على افتراض أن لك تاريخ معها.. نيرفانا يا كريم ليست كبقية النساء، إنما هي امرأة حرة، تفكر وتخطط وتتاجر وتعمل وتسافر وتختار وترفض وصاحبة قرارات.. أحبت رجل فتزوجته ولما تطاول عليها بين جدران بيته خلعته على الفور، هذه الصديقة المحببة إلى قلبي خطيرة للغاية، تحرق الحب وأصحابه إن سجن الحبيب عقلها أو رأيها أو بخس قيمتها.
- هل معنى كلامك أنها صعبة المراس؟ وإلى أين تسافر؟ وماذا تعمل بالضبط؟
- ليست صعبة المراس إنما لديها قواعد للعبة إن احترمتها جعلتك ملكًا مظفرًا، وإن أخللت بالقواعد فتلك نهاية اللعبة، أما بقية الأسئلة فهي أمور تخصها، عليك أن تعرفها منها.
- هل تسمحين أن تكوني همزة الوصل بيننا؟
- بالتأكيد.. لكن الآن لنعد إلى مسيرتنا العلاجية...

*****

فور انتهاء جلستك العلاجية سريعًا على غير العادة هذه المرة، أغلقت باب غرفة العيادة وهممت بالمغادرة إذ توجست لسماع صوتها مناديًا..

- بشمهندس كريم!

بارتباك شديد:

- أستاذة نيرفانا.
- هل لي بمعرفة دوافعك في التقرب مني؟

ما هذه السرعة يا لمياء، هذه الطبيبة لا تضيع وقتًا؛ مؤكد أنها أخبرتها بكل شيء عبر رسالة، هل الأمور تسير بهذه السهولة؟!

لا داعي للكذب أو الادعاءات، احترس من الكلام الذي يحمل معنيان، هناك العديد من الإرشادات المربكة لا تستطيع حصرها، كأنها فرصة لن تتكرر، و أنت بلا شيء!

قلت بارتباك واضح:

- اعتقدت أن معرفتك بذلك ستكون أصعب مما حدث للتوّ!
- صدقني ليست الصعوبة في البدايات أبدًا.

الآن تراها بكل وضوح أمامك، القمر من مكان أقرب أجمل كثيرًا، يصعب وصف جمالها الذي لا ترى فيه شائبة، الآن يحق لك إطالة النظر بحجة ما إلى وجهها الحسن.. لكنها قاطعت حبل أفكارك عن الجمال بسؤالها مجددًا:

- أكرر سؤالي.. ما دوافعك للتقرب مني بهذا الشكل؟
- في الحقيقة الإجابة عن هذا السؤال قد تطول، لكنها دوافع خير..

قالت بثقة ذات هيبة:

- ما دامت خير فيمكنك مراسلتي لإخباري بها، تستطيع أخذ رقمي من لمياء.

دون أن تنتظر ردًّا تركتك ودخلت إلى غرفة الكشف لصديقتها، أما أنت فغادرت وبداخلك ألف سؤال عاجل.

تلزمك شجاعة قبول الرفض، بالإضافة إلى شجاعة القرار الذي اعتاده لسانك ولم يعتده قلبك بعد، لا يجرؤ أحد على اتهامك بجهلك بمسؤوليات الزواج، لكن كما قالت نيرفانا: "ليست الصعوبة في البدايات.. فالبدايات للجميع".

*****

"أستاذة نيرفانا، السلام عليكم.. أعرفك بنفسي؛ أنا المهندس كريم شوقي، التقيتك أكثر من مرة في عيادة الدكتورة لمياء صديقتك، لقد حصلت على رقمك منها كما أخبرتيني..

سأدخل في لبّ الموضوع مباشرة.. لا أعتقد أني مريض نفسي، ولا أريد لشيء مثل هذا أن يسيطر على تفكيري، تستطيعن أن تتأكدي من كلامي إذا سألت صديقتك.. ربما أردت أن يسمعني شخص آخر مختلف لا يعرفني ولا تربطه بي علاقة من أي نوع؛ لذلك كنت في هذه العيادة.. ومن حسن حظي حينها أني رأيتك.

لن أجازف بالقول لأدعي أن هناك شعورًا بداخلي يخبرني بحدوث شيء عظيم بيننا.. ليس جمالك وحده ما جذبني إليكِ، لكن أيضًا الوقار والجدّية اللذان يحفان جمالك كما يحيط السحاب بالقمر.. و أنا يا سيدتي أسيّر كل جمال جاد.

أنا متزوج منذ سنوات وأب لطفلة، ميسور الحال والحمد لله، ولن أتعجرف و أنكر نعم الله عليّ.. فقط أنا لا أشعر بالسعادة المرجوّة معها، ولها كل احترامي وتقديري للأبد..

بطريقة أوضح، أنا أبحث عن زوجة ظروفها تناسب ظروفي، تتفهم طبيعة عملي وبيتي الأول الذي لا أريد أن أهدمه، إنما أقدم على هذا العمل لإصلاحي أنا أولًا، فإن

كانت هذه الدوافع تمنحني حقًّا في القرب منك بهدف الزواج فذلك خير، وإن كان كل ما ذكرته لا يمثل لكِ أهمية فاقبلي اعتذاري الشديد والسلام".

*****

- ما رأيك يا لمياء؟
- لنتحدث بواقعية.. لن تظلي وحيدة بعد طلاقك من ذاك الرجل الغبي، وكريم رجل مناسب جدًّا لظروفك، وأؤكد لكِ أنه رجل بمعنى الكلمة، لقد صارحني بكل شيء ولم يكن يعرفك من البداية، ولعلمك لم يأبه كثيرًا لطلاق أبيكِ وأمك.

قالت نيرفانا:

- التجربة لن تضيع وقتًا طويلًا على كل حال.

ثم وجهت نظرة لوم لصديقتها قائلة:

- لم تخبرينه بكل ما تعرفين عني هكذا؟!

*****

التجربة كالماء الذي يكذّب الغطاس، والماء لم يكذّبك، بل أظهر أجمل ما بداخلك من معاني الحب.. لا يولد الحب بين عشية وضحاها، وإنما كالقصة أو الرواية، له بداية وأحداث مشوقة ونهاية، إما سعيدة أو حزينة، لكنه لن يكتمل أبدًا لتطلق عليه اسم الحب إلا بهذه الأوصاف كلها.

مزيج ساحر من القيم والأخلاق، والكرم والجود، واللباقة والاهتمام البالغ يميز تعاملاتك مع الآخرين، وتتضاعف كل هذه الصفات المحمودة إذا كان الطرف الآخر امرأة، ثم تعود لتسأل نفسك ما يحزنك؟ ما يغضبك ولا يريحك في هذه العلاقة أو تلك؟ إنه المقابل دومًا يا عزيزي.. نعم، فأنت لا تجد المقابل المرضي منهنّ، تغار لأنك تهتم، تكاد تجن لأنك تهتم، تقلق دومًا لأنك مهتم، فضولي إلى حد لا يطاق لأنك تهتم.

داومت لمياء على التواصل معك هاتفيًّا لأنك ما عُدت بحاجة إلى جلساتها، كنت تطمئنها بالأخبار الجيدة، كل شيء جيد؛ البيت، والعمل، والنفسية.. لا شيء سيئ في هذه الدنيا.. الخير صار محضًا يحيط بك من كل جانب، بينما اختفى الشر من الوجود.. الاتزان أرسى قواعده عند عقلك، وملأ قلبك الهدوء.. الكل صار محبوبًا تستطيع تحملهم، وتود أن تنجو بهم في سفينتك من الطوفان، حتى مراد الذي اعتدت أن تتواصل معه يوميًّا تباعدت الأيام بين كل اتصال وآخر.

شعرت لمياء بالغيظ قليلًا؛ لم ينعم مريضها بشفاء نفسي كامل، وقد مرت شهور دون أن تعلم عنه شيء، حتى صديقتها اتخذت من الكتمان حجابًا عنها.. ذلك الرجل جاء كفارس على حصان أبيض لينقذ فاتنته من الهلاك ويرحل بها بعيدًا، لكن فاتنته هذه هي نيرفانا.. صديقتها العزيزة.

- **لو ما ظفرت بك زوجًا لرضيت بك صديقًا عزيزًا.. وهذا لعلمك غير عاداتي مع الناس.**

بابتسامة مطمئنة ترد:

- **وما الذي يمنع فكرة الزواج، أنا ما تعرفت عليك إلا لهذا الشأن.**

تضحك بخفة وتقول:

- **ما يمنع هو أنك خائف، متردد شيء ما.. وما يجعلني أستمر أنك رجل، رجل يهتم كثيرًا دون أن يبدو أنه ينتظر المقابل، هذا ما يجعل امرأة عملية مثلي أن تتحلى بالصبر على رجل مثلك.**

ترد بهدوء:

- **ليس الخوف ما يمنعني، لكني أحسب كل خطو اتي بدقة و أتخذ قراري بروية حتى لا أدع ثقبًا يلج الندم من خلاله مستقبلًا.**
- **حسن أيها الحكيم المتأنق، هل تعلم أني قد و افقت على الزواج منك بكل الإشارات الواضحة والمبهمة أيضًا؟**

مازحًا لتغيظها تقول:

- **غريب أني لم ألحظ ذلك!**

بكل جدية ترد:

- **إذن من اليوم وصاعدًا إما الظلام وإما النور، ضوء الشموع الخافت هذا لا يناسبني، يوترني ويشعرني بالخوف أحيانًا، ولا تنمو فيه إلا ظلالًا لموجودات ربما تكون غير حقيقية.**
- **وماذا عن حبنا؟**
- **أنا أحبك بكل تأكيد.. هذا ما اكتشفته بداخلي وكشفته لك.. أريد ترجمة عملية لهذا الحب، أريد الاطمئنان والأمان، لا أريد أن نتعرض لمزيد من الخذلان يا صديقي.. هل تحتفل بالمشاريع بينما هي ما زالت رسومات على الورق؟**

أخذت نفسًا عميقًا وقلت:

- أنا جاد في إرادة القرب منك.

سألت بحسم:

- متى؟

تصمت لتفكر قليلًا ثم تجيبها:

- أعالج أولًا بعض المشكلات المادية.. لا أخفي عنك فقد تعثرت شركتي الخاصة وعليّ أن أنقذ الموقف.

برقت ولمعت عينا نيرفانا، وقالت بطريقة لم تدرك ما وراء كلماتها من معاني إلا فيما بعد:

- الانتظار مؤلم يا بشمهندس كريم، لا أستطيع أن أنتظرك و أنا بالقرب منك هكذا، يلتصق جسدي بجسدك بصمغ الحب.

*****

الحب شيء كالألم

يفكر مراد معك بصوته المرتفع كأنك كنت معه البارحة:

- سافرت! إلى أين؟
- إلى قطر حيث أبيها وزوجته.. عائلتها الثانية من طرف أبيها.
- هكذا دون أن تعلمك متى ستعود؟ أو لمَ سافرت من الأصل؟
- سافرت من أجل أن تقضي إجازة الكريسماس معهم، لكنها لم تقل متى ستعود.

بصوت مختنق قلت لمراد:

- لم أفعل ما يغضبها، لم يحدث شيء بيننا يدعو للقطيعة، أنا أحبها لكن الزواج ليس لعبة، أنت تعلم أن الشركة في وضع مادي سيئ للغاية، هل أترك الشركة لتغرق!
- هل تراسلها؟
- نعم.. لكن ردودها كلها باردة، كأننا نتعرف من جديد في عيادة لمياء.
- فلتسأل لمياء إذن.
- لم لا تسدِ لي هذه الخدمة؟

سكت مراد قليلًا ثم رفض أن يفعل، فشعرت بالحرج.

والآن كل شيء سيئ؛ البيت، والعمل، والنفسية.. لا شيء جيد في هذه الدنيا، الشر صار محضًا يحيط بك من كل جانب، بينما اختفى الخير من الوجود.. الشتات أرسى قواعده عند عقلك، وملأ قلبك الضجر.. الكل صار مكروهًا، لا تستطيع تحملهم، وتود أن تنجو منهم وحدك في سفينتك، وتتركهم للطوفان.. وحده مراد هو الذي اعتدت أن تتواصل معه يوميًّا دون انقطاع.

*****

تجاوزت الحرج وقررت الاتصال بها، ستوبّخك قليلًا لكن لا بأس؛ هي تدرك معاناتك، ونيتها في أن تساعدك لتتخلص من آلامك النفسية صالحة.

- لمياء أنتِ صديقتي بالفعل.. أعدك أنني سآتي لزيارتك قريبًا.

لم تتمالك نفسها من الضحك وقالت:

- أنت غارق في بحار الأشواق يا عزيزي.. سأخبرك بتفسيري لما يحدث الآن من وجهة نظري المتواضعة.

قاطعتها لتقول:

- هل معنى ذلك أنكِ لا تملكين خبرًا يقينًا عن ما حدث؟
- بالطبع لا.. لكن نيرفانا ليست امرأة عادية لتفهمها بهذه السهولة، نيرفانا كالشمس يا صديقي، وأنت حاولت الاقتراب منها، فلما اشتدت حرارة جسدك خفت الاحتراق وترددت.

قلت نافيًا:

- لم أتردد في شيء.

قالت ببرود:

- سنتحدث لاحقًا لأن لدي موعدًا مع أحدهم الآن، لكن آخر وأهم ما أريد قوله لك ألا تكرر ما فعلته معها مرة أخرى.

ما هذا الخبال الذي يظهرونه لك متفاخرين بالعمق والفلسفة؟! فلتعد نيرفانا أو لا تعد، لقد اعتدت الفراق كما اعتاد الدب القطبي الثلوج.. ما المانع في أن تعيش بنصف قلب، أو نصف حياة؛ النصف غير كافٍ لكنه ليس سببًا قويًّا لأن تبقى حيًّا.

ستمر فترة بأس عليك تعيشها، تبتسم دون فرح، وتدمع عيناك من غير حزن واضح، وستأكل كثيرًا حتى تظل سعيدًا لبضعة ساعات من اليوم، وستشرب مزيدًا من أقداح القهوة حتى تروي سعادتك، لكنها ستصيبك بارتفاع الضغط لا أكثر.. كل المحاولات تبوء بالفشل لأنك لا تقبلها لها بديلًا أو علاجًا؛ لا تتوقع لقلب حُرم تدفق الدماء أن يصمد طويلًا.. حرمان مدمر، أي قسوة هذه تجعلها تفعل ذلك في كائن حي!

نيرفانا التي أبدلت قوانين الفيزياء بقوانين الجمال، نيرفانا التي جعلتك تنظر للحياة من شرفة الخيال، فصرت تتأمل القمر، وتسرح في روعة جماله كأن وجهها قد رُسم على سطحه، كانت ساعات لقائها هبات ربانية، طال الانتظار يا نيرفانا ولستِ بقربي، الشوق والحنين يفتك بي يا حبيبتي.

رأسك المدفون تحت الوسادة تمر خلاله حقائق لا تجرؤ على سحب رأسك بسببها، خشية أن تفضح أو تراها زوجتك إذا تقلبت في نومها ولم تستدبرك كعادتها.. ما بال حديث نفسك صار طوقًا حول عنقك يضيق كل يوم في بُعدها أكثر وأكثر.

اللعنة على حقيقة حبها! هذه الحقيقة كالقنوات الإخبارية لا تتوقف عن البث، مهما تجنبت سيرتها في أي حدث تعود لتسرق منك أي فرص للعيش هادئًا، تستمر في إرسال لعناتها عليك من زمن آخر يسمى الذكرى، ومكان آخر يسمى قطر.. يا لا براعتها إذ لا تخطئ أعماق قلبك سهامها.

*****

"آه من الدنيا ومن قدرعلى الدنيا حكم.. البغض شيء مؤلم والحب شيء كالألم".

الر افعي

*****

مارس 2020

طوال أيام حياتك تمنيت أن تتضح الرؤية ويزول غبار السماء، أن يظهر اتساع الشارع كما هو وليس كما يقيسه لك الزحام الخانق، تمنيت النظام الجبري على الجميع دون استثناءات ورأيته بأمّ عينيك اليوم... نعم، تمنيت أن يخلد الناس للنوم مبكرًا، وتمنيت أن يقل نصف قطر ثقب الأوزون الخطير، وتمنيت أن يترك البشر بينك وبينهم مسافات آمنة لا يستطيع كل منكما أن يطغى عليها.

تمنيت أن يتوقف الدوري الإنجليزي ليتفرغ لك مراد ساعة ونصف على الأقل أيام السبت والأحد، لكن مراد لا يخضع لحظر أو قانون يقيد حريته.

تمنيت أن تلعب مع سارة وتتحدث معها دون قلق من السهر طويلًا خشية أن تتأخر في الصباح عن العم، كما تمنيت العمل من المنزل بشكل رسمي، وليس تطوعًا كما تفعل.

لسنوات طويلة تجنبت أناس سلبيين، والآن ستبتعد أيضًا عن أناس إيجابيين؛ نظرًا إلى إيجابيتهم التي قد تقتلك.

كل العطلات ستقضيها في المنزل، وستنعم بثلاث أو أربع قيلولات، وستدرك أن القمامة تنعم بالهواء الطلق والخروج من المنزل أكثر منك نفسك.. أيضًا صار لك صديق جديد لا يفارق وجهك إلا قليلًا؛ إنه القناع الطبي بألو انه.

لن تصافح، لن تثق، لن ترى ابتسامات السخفاء بعد اليوم، ولمدة لا يعلمها إلا الله... كل ذلك حدث بسبب جائحة "كورونا"، لكن ما أفرغ قلبك من دقاته هو التوقف التام لرحلات الطيران بين البلاد والدول؛ مما يعني أنك لن تراها قريبًا.

أيام العراق تعود من جديد في كل شيء؛ الوحدة والغربة والمخاطر، لعلها آخر فرصة لمحاولات تغيير البيت لمكان أفضل يمنحك الدفء والسلام بصحبة علا.

*****

سمر الشرفات أصبح عادة طيبة مسائية، الجميع حاضرون، وفي ليالي عطلة نهاية الأسبوع ينضم إليكم مراد.

زينت الشرفة بلمبات الإضاءة الملونة، و ابتعت فانوس رمضان ليضفي طقسًا من الذكريات السعيدة المفتقدة، تلك الألفة العطرة المصحوبة بالروحانيات، والأبخرة التي تتسلل هادئة لتطمئن معها النفوس، سطور من العمر لا تُنسى ولا تُمحى مهما مر الزمان، يتوارثها الأجيال تلو الأجيال، وتصير حكايات يرويها العجائز لأحفادهم فيما بعد.

غير أن السمر غير مشروط بالاتفاق على الدوام دون احتمالية الخلاف، فلكل رأي آخر مهما كانت القناعات منطقية، ومهما قويت الأسباب.

علا هي من أثارت ذلك الموضوع الخلافي القديم؛ زواج عامر زوج أفنان من امرأة مطلقة ولها ابنتان؛ لقد باتت صديقتها أقرب للانفصال نهائيًا منه.

لكن اليوم يحل مراد ضيفًا شرفيًا حياديًا تقريبًا، ضيف غير متزوج وله أفكار شاذة قد تقنع البعض..

- في رأيي أن كعكة الشيكولاتة هذه تستطيع معالجة جميع المشاكل والمعضلات والكوارث أيضًا، بما فيها التسريبات والانفجارات النووية.
- لا تهرب من السؤال وأجب بدون تحيزات لصديقكك يا مراد.

مراد وهو يبتلع المزيد من الكعك بشوكته:

- صدقيني يا حاجة فاطمة الأمر نسبي، قد ينجح مع البعض وقد لا ينجح، الضرورة والاحتياج ما يقرران ذلك.

سألت علا بينما تنظر في عينيك لتر اقب ما يظهر فيهما من تعبيرات:

- كنت متأكدة أنك من أنصار مبدأ امرأة واحدة لا تكفي.
- لست ثابتًا يا علا، ولا أنتِ ولا كريم نفسه.. الإنسان كتلة بيولوجية من المتغيرات غير النهائية، اليوم أنا على هذا المبدأ وغدًا قد لا أكون.

قلت:

- هذا عين العقل.. لقد قلت شيئين عظيمين يا مراد في هذه الأمسية؛ الاحتياج يقرر كل شيء، والثانية أن الإنسان متغير، وحتى نجمع بين الجملتين نستطيع القول بأن الإنسان يتغير كل يوم طبقًا لاحتياجاته اللازمة لحياة أفضل.
- هذا كلام فارغ.. أنتم جيل قد خرّب عقولكم هذه الهو اتف المحمولة.

رد مراد بحذر:

- سيدتي، وأنتم الجيل الذي كان يرضى بالزواج من أخرى وأخرى دون أن يحرك ساكنًا.

نظرت أم علا بقرف وتعجرف لمراد الذي رد على كلامها، بينما ابتسمت أنت في شماتة، ولولا أن علا أومأت لأمها كي تهدأ لغادر مراد بيتك وعلى رأسه اللعنات.

*****

نهاية أغسطس 2020

عادت الروح لرحلات الطيران بين بعض البلدان وبعضها، وما عادت روح الفؤاد إليك بعد.. علمت من لمياء أنها عادت من قطر بعد احتباسها هنالك بسبب الكورونا طوال تلك المدة، كاد التواصل بينكما أن يلفظ أنفاسه الأخيرة منذ أسبوع؛ المحادثات الباردة لا فائدة منها ولا نجني من ورائها سوى الوجع، فماذا لو كانت بين اثنان اتفقا مبدئيًّا على الزواج بعد ما وقعا في الحب قلبًا وعقلًا.. لا يعود الأحباب أصدقاء أبدًا إلا في الروايات الرخيصة، حتى الخيال لم يثبت ذلك في الأساطير العتيقة.

اقترحت لمياء اقتراحًا ظريفًا وهو أن تلتقوا في نزهة ليلية نيلية في قارب صغير خاص، ولمزيد من الإقناع بأنها نزهة تجمع أصدقاء وحسب، عليك اصطحاب مراد، ومن جانبها بالطبع ستر افق نيرفانا.. خطة ملتوية اهترأت من تكرارها لكنها تنجح دائمًا إذا أرادت الأغلبية ذلك.. أنت بلا شك تتمنى نجاحها لإعادة المياه إلى مجاريها مع نيرفانا.

العجيب والمحزن أن مراد قد رفض وعارض الفكرة بشدة، وقال لك بالحرف: "لا شأن لي بتلك القصة الفاشلة"؛ إنه يصف قصة حبك لنيرفانا بالفاشلة، أنت الذي تكره الفشل في الحصول على ما تحب، سنرى في النهاية إن كانت فاشلة أم عظيمة.. هل كان يقصد بالقصة الفاشلة طريقة لمياء؟

أما نيرفانا فرأت أنك صديق مميز، فلا بأس من القبول، وستكون صديقتها معها ليلتقطوا بعض الصور بهواتفهم من قلب النيل، وأيضًا لكسر الملل الذي أحاط بالجميع طيلة أيام الحظر.

لما أخبرتك لمياء أنهم جاهزون لتنفيذ الفكرة اضطرب عقلك؛ آخر ما توقعته أن توافق نيرفانا ويرفض مراد.. التوتر لن يفيد، عليك الإلحاح على مراد أو إيجاد بديل له.

- مراد، لماذا لا تريد مساعدتي؟ ما السبب في رفضك؟
- ليس هناك أسباب.. السبب أنك لا تفكر إلا بنفسك فقط!

لا تذكر أن مراد وجّه لك هذا الاتهام من قبل، تعصر ذاكرتك لتسترجع أفعالك معه في الآونة الأخيرة، تبحث عن فعل يتصف صاحبه بالأنانية فعلته عن غير عمد معه فلم تجد.. فقط وجدت نفسك تقول:

- ألا تستطيع أن تغفر لي ذلك وتوافق على حضور هذه النزهة؟

احتد مراد في حديثه وظهر على وجهه الغضب وهو يقول:

- أنت لم تفكر في معرفة ما دعاني لقول ذلك حتى!
- في الحقيقة فكرت ولم أجد لك مبررًا لاتهامك، لكنك صديقي المخلص وأخي ولا أريد التوقف عند تلك النقطة السوداء، ولذلك أنا أعتذر عنها مرة أخرى حتى لو لم أستطع معرفتها.. لم لا تقلها أنت ونحسم الخلاف!

تنهد مراد وقال:

- ألم أخبرك سابقًا أنه لم يعد لي علاقة بلمياء، ألم أطلب منك ألا تذكرني عندها؟
- بلى فعلت.
- والآن تريدني أن ألقاها في نزهة نيلية على متن قارب صغير!

فطنت أخيرًا لمدى غبائك، هو لا يريد رتق عُري المودة معها من جديد...

- أما آن الأوان لمواجهة ما سمّيته بصعوبات حياتك؟ ماذا لو...

قاطعك قائلًا:

- أنت أنت.. لن تتغير، إلحاحك كأزيز النحل، سأحضر بكل برود من أجلك، بدون ماذا لو؟!

قفزت عليه من فرحتك محتضنًا إياه وقلت:

- الخميس القادم مناسب؟
- لا.. الخميس الذي يليه.

قلت بتأفف:

- ولماذا؟ ما مشاغلك آخر هذا الأسبوع؟ لماذا ننتظر لنهاية الأسبوع القادم؟

زمجر مراد قائلًا:

- كرييم.
- طيب.

*****

عندما توقف إدمانك لإحداهنّ في علاقة مؤذية كنت تتألم، واليوم تتألم للسبب نفسه لكن يصاحب الألم اشتياق عارم.. ليس من السهل عليك أن تخسر نيرفانا، أحيانًا تجد في نفسك مقدرة مفترضة على خسارة علا نفسها، لكن نيرفانا لا.

أخيرًا ستراها مرة أخرى، كدت تيأس من هذا اللقاء.. عليك أن تكون حذرًا.

****

- **بالعكس يا نيرفانا فأنتِ تستطيعين بجلب هدية رمزية له أن تثبتي له أنكما أصدقاء لا أكثر.. الهدية هي التي ستتكلم عنكِ.**
- **يا لمياء أنا أشعر أن الموعد تم تأخيره لغرض أن يتم وضعي في هذا الموقف السخيف، لقد أخبرتيني أن اللقاء يوم الخميس القادم وليس الذي يليه والذي يوافق عيد ميلاد البشمهندس.. ثمة أمر لا يريحني في اختيار ذلك الموعد بالتأكيد.**
- **لن أرضى لكِ أي حرج، لقد تم التأجيل من جانب مراد لا أكثر.**

قالت نيرفانا بدهشة:

- **مراد! هل كريم صديق مراد؟**
- **نعم.**

لحظات من الصمت مرت بينهما، توقفا ثنتاهما عن تناول المزيد من الطعام.. نيرفانا تعرف كل شيء، ولمياء لا تخجل أن تظهر لها حنينها الخفي لحبها القديم، بدا التوتر عليها واضحًا خوفًا من رفضها، فظلت تطرق بإصبعها طرقات متتالية خفيفة على مائدة الطعام حتى قالت نيرفانا:

- **فليكن إذن..**

ثم أضافت:

- **ما رأيك في زجاجة عطر عربي؟**

****

الخميس أول أكتوبر 2020

التاسعة مساء على ضفة هادئة كالقبور من ضفاف النيل..

وقف عم خميس يستقبل امرأتان، إحداهما طبيبة نفسية ساهمت في علاج ابنته الصغيرة؛ إذ عانت من اضطرابات التحدي الاعتراضي، وقد تحسنت كثيرًا على يد لمياء، لكن عم خميس يكنّ لها قدرًا بالغًا لأنها نظرت لظروفه الاقتصادية بعين الرحمة، فكان علاج الطفلة بالكامل على نفقتها الخاصة؛ لذا فإن نزهة بقاربه الصغير

ليلًا مع أصدقائها أقل ما يعبر به عن امتنانه لها.. ومع التشديد الحكومي لاتباع التعليمات والإجراءات الاحترازية لسلامة الأفراد بهدف تقييد انتشار العدوى، فما كان منه سوى أن يهئ لها ولأصدقائها ما أرادت سرًّا وبعيدًا عن الأعين.

لكن...

عندما التقيتم جميعًا في الموقع الذي أرسلته لك لمياء ذعرت نيرفانا، وصرخت وسارعت بالاختباء خلف لمياء وعم خميس، وتشبثت بكتف كل منهما.. دقيقة مرت تبخر فيها وقارها فور رؤية زغلول.

كل من أراد ركوب هذا القارب المتواضع قد نام ليلة أمس يجهز حقيبة أحلامه ليضعها على متنه؛ الكلمات الترحيبية المناسبة لأربعة من الأحباب قد تفرقوا، ثم عادوا ليلتقوا من جديد على متن قارب صغير ليلًا، لكن أحدهم قد حضر مع صديق غير مرحب به في هذه الرحلة الرومانسية القصيرة، وبدلًا من وصف مشهد رومانسي للقاء بعد شوق ولهفة، صار المشهد مرعبًا بالنسبة إلى نيرفانا التي تخشى الكلاب والقطط والسلاحف أيضًا.. وتلقت لمياء خيبتها في تفكير صديقها القديم، وبدت معتادة على أفعاله تلك.. أما عنك، فكيف لك أن تكفّ عن سبّه في سرك كل لحظة؟! حتى عم خميس نفسه رفع حاجبه الأيسر متعجبًا؛ ربما كانت له خططه لقضاء ليلة خميسية هادئة مع سيجارة مشبوهة احتفالًا بهذه المهمة المجزية.

صرخة نيرفانا بسبب زغلول الضخم لم ترحم أحد، ولم يكف زغلول عن النباح والوثب بيديه عليهما، وبدا فرحًا برؤيتهما.

قالت نيرفانا:

- مستحيييل.. إذا ركب هذا الوحش في القارب فلن أركب مهما أمسكه أو حبسه.

وكان رد مراد حاسمًا أيضًا:

- و أنا لن أترك زغلول.. أنا وزغلول أو لن أركب.

وضعت يدك على وجهك حتى لا تظهر الخيبة، فسارعت لمياء بالتدخل لحل المشكلة، ووجهت الكلام لك ولنيرفانا:

- سننتظر أنا ومراد هنا.. سنجد ما نفعله بالتأكيد غير أن نفسد هذا اللقاء.. عم خميس فلتتوكل على الله معهم، لن نفسد الليلة بأي حال.

رد مراد على الفور:

- على الرحب والسعة دكتور لمياء.

كان يشد على كلمة دكتور كأنه يعني شيئًا هي ستفهمه، دخلت نيرفانا في القارب بمساعدتك بعد أن ساعدك عم خميس على ذلك.

النظرات بينكما قالت كل شيء حتى صرتما في وسط النهر، ولأول مرة في هذه الليلة التي لن تتكرر في حياتك أبدًا، لا حظتم أن القمر مكتمل بدر مهيب، والسحب من حوله رقيقة شفافة تظهره مهما ارتداها.. إنها ليلة الغزل والعشق، إنها ليلة الجمال، إنها الليلة وإما لا للأبد.

قالت وهي تبتسم:

- هل كان من اللازم هذا الفيلم؟ لو أخبرتني من البداية ما كنت لأمانع، أو كنت لأمانع قليلًا.

فهمت أنها تظن أن كل ما حدث حيلة أنت نسجتها بمكر لتظفر بليلة ساحرة معها، فقلت:

- ليس هذا ما أفكر فيه الآن.. في مرة من المرات الأولى لرؤيتك فكرت أن لو للقمر نسخة أخرى سيكون هو النسخة و أنتِ القمر ذاته، والآن أنا أرى تلك النسخة في السماء، والأصل معي أنا، بداخل قارب صغير يسبح وسط النهر.

ابتسمت مرة أخرى بخجل وقالت:

- لماذا تركتني أرحل عنك؟
- أنتِ من تركني حائرًا ورحلتِ.
- أنت رجحت خسارتي على خسارة مشروعك المحتملة.

اقتربت منها وأمسكت يدها وقلت:

- نيرفانا أنا على عهدي معك، ما زلت أحبك وأريد الزواج منكِ، لا يثنيني عن ذلك سوى بعض العقبات التي في طريقها للزوال قريبًا جدًّا.

منذ ما يقرب من ستة أشهر سألتك بصرامة وحسم اعتدت أن تفعلهما مع الناس من حولك، اليوم نيرفانا هي التي تسأل:

- متى؟ أريد موعدًا محددًا وسأنتظرك حتى وإن كان هذا الموعد بعيد نسبيًّا.
- حسن.. تريدين موعدًا..
- نعم أريد موعدًا محددًا، وحتى ذلك الموعد أنا في عُرف خطيبتك، ولن أستعجلك حتى ذلك الموعد لتأتي إلى أمي و أبي وتطلب يدي.. بشرطين لا غير.
- ما هما؟

- ألا تظلم علا.. والثاني ألا تظلمني معك.

ألقيت نظرة للقمر وعدت إليها ببصرك قائلًا:

- الربيع القادم.

قالت وهي تكاد تمنع نفسها من الانفجار فرحًا:

- موعد محدد يا بشمهندس!

- في شهر أبريل يا نيرفانا.

احتضنتك من فرحها بالوعد، وسلمت الأمر لذراعيك لتحيط بها.

وعلى أنغام أغنية قديمة لأم كلثوم، انبعثت من مسجل أثري يمتلكه عم خميس، أحطت بذراعيك خصرها و اقفًا، وثبّتّ عيناك في عينيها، جذبتها برفق نحوك، فطأطأت رأسها خجلًا من ثبات نظر اتك لها، تلك هي النظرة التي أرادتها؛ نظرة مُريد محب.. رفعت رأسها بيدٍ تتحسس الرقة، ثم اقتربت أكثر وأكثر، فصوّب المر اكبي نظره للسماء متأملًا القمر الذي اكتمل بدرًا، ونفث إليه هالة كثيفة من دخان سيجارته المشبوهة ليعمي بصره عنكما. لا القمر ينافسه في سمائه أحد، ولا يطل على الأرض نور كنوره الذي تتناغم لآلئه مضيئة مع تموجات النيل الرزينة.

يعلو صوت المسجل فجأة، فتتباعد الشفاه ببطء، وينفك التحامها بمرونة ولين، وتنفرج بو ابات الرموش عن أعين قد ذابت عشقًا وشوقًا.. أمسكت بيداك، وضغطت عليها بشدة كتمسك قلبها بحبك، تعرب عن سعادتها التي علت قمم الجبال في ارتفاعها وتقول:

- أنا أعشقك بجنون، ليتنا نتزوج الليلة، ليتني أبيت في أحضانك الليلة!

عانقتها فلم ترضَ أن تغادر أحضانك، فقلت مثلما قالت، وتلعثمت مفتونًا بها.. أهذا هو الحب الذي ناشدته لسنين؟ أهذا هو الشعور الذي ناجيته منذ زمن وقرر أن ينصت لك ويجيبك الليلة؟ لطالما حلمت بهذا الإحساس يتوغل في كل أنسجتك.. يسكنك ولا يمحو وجدانك باحتلاله، هذا هو الحب الذي لن يأتي مرة أخرى؛ لأنه لم يأتِ من قبل قط.. لقد صحّت نظريتك، لقد حصلت على ما تريده أخيرًا، نيرفانا هي الحب الذي سيكمل نقصك، هي العاطفة التي ستتزن الحياة بها، فلا ترهقك بميلها مهما مالت، هي التي سيهدأ معها ضجيج عقلك وقلبك.

*****

عندما لامس القارب الشاطئ المهجور لم يكن عليه سوى لمياء وزغلول، ورفضت نيرفانا مغادرة المركب حتى يظهر صاحب الكلب، الذي ادعى أنه ذهب للجوار ليقضي حاجته، لكن لمياء تقول إنه ذهب حين غادرتم ولم يأتِ بعد!

ظهر مراد من خلف بعض الأشجار يعدل من ملابسه، فنبح زغلول و اتجه إليه بعد ما كان جالسًا هادئًا جوار قدم لمياء، كأنه يحرسها في غياب الجميع عنها.. أمسك مراد بزمامه ونظر إلى لمياء دون أن ينبس ببنت شفة.

وعاد الجميع إلى حيث ينتمي من حيث مكانه، لكن القلوب سكنت مواطنها الحنونة.. علمت الآن لم تتعب الأجساد جراء أفعال القلوب؛ لأنها تغادرها بلا إذن أو تعقل، تغادرها وتتركها خاوية كجثة مشلولة لا حراك فيها ولا نفس.. وكيف للأجساد أن تعيش بلا قلوب؟ وكيف للقلوب أن تعيش بلا روح، بلا دماء تتدفق منها وإليها؟

*****

قبل نهاية العام عادت نهال أيضًا، و أثقلت حقائب عودتها أطنان من المشكلات التي لا قبل لأحد بحلها سواك.. هذه حقيقة لا ريب فيها، مهما كرهتها أو تملصت منها ستعرف كيف تستحضرك في الوقت الذي تريده، أولم تسلمك مفاتيحها قبل أن تهرب من نفسها وو اقعها إلى و اقع أسخف مما تخيلت؛ ظنت أن هناك من سيساعدها في غربتها بلا ثمن مثلما ساعدتها أنت في غربتها الخاصة بثمن يجعل منها امرأةً غالية، كان عليها أن تستمع لما نصحتها به مرارًا، فلقد عادت خاسرة لكل شيء، واعترفت بذلك أمامك، وتبينت لما رأيتها بنفسك أن خساراتها كانت أجسم و أفدح من أن تكون مجرد خسارة مادية.. علمت أنك قد نجوت بالفعل من هذه المرأة التي استطاعت أن تضحي بكل شيء مقابل بحثها الضال عن حريتها وقيمتها.. مسكينة نهال؛ كانت قيمتها أمام عينيها لكنها كانت عمياء، كان الحب بين يديها فرفضته وقسمت ظهره، حتى تجسد فشلها في كل شيء الآن في صورة يد خشنة قوية صفعتها لتترنح عائدة إليك، مفلسة من كل شيء، عادت إلى ما تنتمي إليه من حيث المكان وحسب، حتى الماجستير فشلت في إنجازه.

بوصفكم في المجاورة نفسها فأنها سمّت علاقتكما كجيرة؛ هذا الوصف هو ما تحتاجه الآن لتعزز من مكانتها لديك طمعًا في خدمات أخرى مجانية، فهي الجارة الحاضرة، والصديقة القديمة، والحبيبة سابقًا.

رفضت مشاركتها في مهام شتى؛ فقط لتتضخم داخلك فكرة أنك تفعل معها ما تريد فقط أو تستطيع، فقد بهت تأثيرها الجذاب على قلبك، لكن ما زال بريق إلحاحها

النسوي فعال، وبه وجدت نفسك مرة أخرى تتحمل العديد من مسؤولياتها الخاصة جدًّا، بل وفوق ذلك تتحمل بعضًا من مسؤوليات ابنها أيضًا! لم يعد الأمر كما كان لتبذل من وقتك، وجهدك، ومالك من أجلها، ما الذي تجنيه الآن وراء ذلك يا مدمن الخدمات المجانية؟

اليوم تذهب بها لزيارة طبيب العظام، تقوم باصطحابها من أمام منزلها إلى العيادة، وعليك أن تتحمل شيطنة ملاكها الصغير آدم، أنت الذي بالكاد يطيق ابنته.. ولأن نهال تشتاق لكثيرٍ من الأكلات المصرية، فلا بد من جولة على أحد مطاعم الكبدة والمخ، والكشري، وغيرها.. وما زلت تدفع ثمن كل ذلك، ما زلت مرحبًا بهذا الوضع ولا تبدي استياءً إلا في بعض الملاحظات الأصغر والأبعد داخل هذا الإطار العريض من القبح.

ولكم وبّخك مراد على هذه الأفعال المبتذلة، بل ووصفك بالضعف وقلة الحكمة؛ ضعيف لأنك قبلت أن تتعامل معها مجددًا بعد ما أذاقتك الويلات، وقليل الحكمة لأن الوقت ينفد منك.. هل جهزت شقة زواجك من نيرفانا؟ هل نيرفانا تعلم بشأن نهال أصلًا؟ لقد أوشك الشتاء على الرحيل و أنت ما زلت باردًا، ما زلت تصرّ على أن تدافع باستماتة عن هذه الأفعال بوصفها أعمالًا خيرية، الخلق الحسن لا يأتي بعده نكد وضيق كما يحدث معك.. ولقد سألك مراد ذات مرة: "هل تبغي الحفاظ على نهال ونيرفانا معًا؟ إن أفعالك لها العجب".

بدت كل حججك واهية في استمرارية ارتباطك بها وتعاملك معها بهذا الأسلوب، بداخلك لا تستطيع إنكار شعور الضعف؛ ماذا تريد أن تثبت لنفسك مع نهال؟ مع كل ذلك ما زالت على قبحها في التعامل معك كأنها تضمن بقاءك، كأن مشروع زواجكما الذي تعمّد مراد إفشاله من قبل قد نجح أو اكتمل.

تقول في نفسك: "لا بد من وقفة حازمة لهذه العلاقة المؤذية".

*****

كانت تلك الأفكار تتزاحم وتتكتل في رأسك إذ وَقَفَهَا اتصال من علا، أجبتها قائلًا قبل سماع كلمة مرحبًا منها:

- أقل من خمس دقائق وسأكون أمامك.

فقالت:

- حسنًا.. أنا وصلت وقمت باستلام تقرير الأشعة والتحاليل، سأنتظرك لا تتعجل.

يقتضب وجهك.. في كل مرة كنت تضمن ألا يقع نظرها على التقارير قبلك؛ لا تريد لها أن تنزعج إثر صدمة جديدة؛ لذا كنت تطمئن بنفسك أولًا ثم تبشرها، أو في أسوأ الأحوال تتخذ أفضل السبل لإخبارها.. تمنيت من كل قلبك أن يكون كل شيء على ما يرام الآن.

- هل قرأتِها؟
- لا.. سأترك الأمر للطبيب.
- جيد.. ألا يوجد مقهى قريب من المركز الطبي لتستريحي فيه، أمامي ثلاث دقائق فقط.

قالت مازحة:

- هذا يعتمد على نوع المشروب الذي ستقترحه.
- اطلبي ما شئتِ حالما أصل.

سريعًا أغلقت هاتفك، وسريعًا قمت بركن سيارتك وترجّلت منها، وبخطوات متلاحقة اتجهت إلى ساحة المركز التجاري الضخم الذي تنتظرك علا في إحدى المقاهي خاصته، لكنك استدرت متذكرًا أن غالبية الكافيهات والمقاهي في هذا المركز التجاري مدخلها من الخارج، فأسرعت في الاتجاه الصحيح.. سيكون من الأسهل رؤيتها بالداخل من خلال الزجاج الخارجي لتلك المقاهي.

بطأت السير حتى تستطيع أن تلمحها من بين الجالسين، ثم تسمّرت في مكانك مذهولًا!

إنها هي بالفعل.. ليس كابوسًا مزعجًا أو تخيلات شيطانية.

إنها هي حقًّا بشحمها ولحمها وهيئتها الجميلة الوقورة.

كانت تجلس بداخل هذا الكافيه الراقي على مقعد وثير أحمر اللون يتسع لفردين، كانت تبتسم وتضحك بارتياح كاشفة عن أسنانها البيضاء الجميلة، لم تدرك أن أسنانها بهذا القدر من البياض إلا الآن.

لقد رأيت بعينيك هذه السعادة تغمر وجهها من قبل، لكنك كنت أنت السبب فيها، فمن هذا الشاب الجالس بجوارها الآن، والذي يبدو على ملامح حديثه معها أنه السبب في سعادتها تلك؟

سيخرج قلبك ممزقًا صدرك، ومكسرًا لضلوعك كلها؛ دقاته السريعة المتتالية معترضة بعنف على ما تراه عيناك، تشعر بضيق تنفس غير معتاد، ورأسك يغلي في

فصل الشتاء، والغضب ينحي الدهشة جانبًا ليقود جيش من ردود الأفعال التي تزمجر معلنة الحرب.

من هذا الذي يجلس جوارها بالمقعد نفسه ويكاد يتلامس معها؟

من هذا الذي أضاء وجهه سعادة مستمدة من ابتسامتها وسعادتها؟ وكأن وجهه قمرًا هي شمسه، ولربما كان العكس! كانت متوجهة إليه في جلستها وظهرها للخارج نحو الزجاج، فلم ترَك.. في الو اقع هي لا تراك الآن في عالمها.

لاحظ من هو معها نظر اتك الطويلة الهائمة والغاضبة نحوهما حتى استنكر فعلك، وثبّت نظره على عينيك اللتين تطلقان الشرر صوبهما، لكنك لم تدرك ذلك ولم تنتبه له، أخرجت هاتفك و أنت على حافة الجنون لتتصل على مراد، وبينما الهاتف في يدك قمت بتصوير المشهد السعيد الصادم خِلسة.

أجاب مراد:

- كيف الحال يا صديقي؟

ترتعد قائلًا:

- مراد.. نيرفانا أمامي الآن تجلس برفقة شخص غريب في كافيه، لا يجلس أمامها يا مراد، ليس هذا اجتماع عمل، إنه يجلس بجوارها.. لقد قمت بتصويرهما، لكني سأموت من هول ما أراه.. أخبرني ماذا أفعل أرجوك؟

هذا العقل الذي يعمل كالحاسوب تم إعطاءه أوامر متدفقة سريعة ومعقدة تفوق قدر اته وإمكانيته، لقد فشلت خوارزميات عقلك في تفسير ما يحدث، تحاول تحليل المشهد الذي يخرج تمامًا عن إطار العملية المهنية.. على الأرجح هو صديق مقرب، أوربما قريب من العائلة لا تعرف عنه شيئًا، ذلك احتمال بعيد بُعد الأفق لكنه وارد.

تُخرس ثرثرة الاحتمالات برأسك صارخًا مرة أخرى في الهاتف:

- مرااااد.. ما هذا الذي أراه يا مراااد؟

كان مراد مصدومًا هو الآخر بعد ما تخيل المشهد الموصوف:

- اهدأ يا كريم.. ادخل إليها وأرِها نفسك واستفسر منها بتعقل.
- لا أستطيع فعل هذا الآن.. زوجتي بانتظاري في إحدى الكافيهات، ولربما يكون هو الكافيه نفسه الذي أنا أمامه وهي بداخله.. لقد سبقتني إلى هنا لنحصل على تقاريرها الطبية وأخبرتها أن تنتظرني في هذا المحيط.

التبس الأمر على مراد للحظة، فسألك:

- من التي تجلس مع الرجل يا كريم؟ علا أم نيرفانا؟

إلى هنا أغلقت الخط في وجهه؛ عقلك لا يستطيع إعطاء إشارة إلى شفاهك بالتبسم فور رؤية علا مقبلة وهي تلوّح إليك في سرور، بينما يعطي إشارات عدة أخرى لظهور ملامح الحسرة، والخذلان، والغضب مجتمعين على كل قسمات وجهك، وبالأحرى عندما أدركت نيرفانا أخيرًا وجودك خلفها؛ لقد نبهها من معها أن هناك مجنونًا التقط لهما صورة بهاتفه خلسة، شاهدك تفعل ولم يرد التسرع في إبداء اعتراضه على فعلك إلا بعد التأكد من أنه لا يجمع بينك وبينها شيء، ولعله أصاب التفكير.

احمرّ وجهها كالجمر حال رؤيتك، وكأنّ السماء أمطرت كُتلًا من اللهب عليه، وخشع بصرها صوبك.. كانت نظرتك لها تحمل ألف شعور مختلف، تأكدت على الفور من ظنك الأقبح فيها، ذاك الظن الذي لم يتجرأ عقلك على استحضاره ولو على سبيل احتمالية الشر المحض.. فلما أشاحت بنظرها لتتحدث مرة أخرى لمن معها في إرتباك بيّن خطا هذا الظن بخطوات ثابتة على أعتاب جبل اليقين.

كادت علا لتشك في الأمر كعادتها لولا انتباهك لقدومها.. بدا الوجوم على وجهك مُستدركًا، النساء تفرق جيدًا بين ملامح الغضب مهما اختلفت أسبابها ودو افعها.

أمسكت بيدها وقُدتها نحو المساحة المخصصة لركن السيارات حيث وَقَفَتَ سيارتك، فقالت معترضة:

- ما هذا؟! ألن ندخل ونتناول مشروبًا كما اتفقنا؟

سحبتها لتسرع الخُطى أكثر، تريد مغادرة المكان فورًا:

- ليس هنا حبيبتي، ليس هنا.. اعطني التقارير من فضلك أريد الاطلاع عليها.

ناولتك مظروفًا ضخمًا حوى العديد من الأوراق والنتائج وصور الأشعة.. اطلعت سريعًا على تقرير الاستشاري؛ لم يكن ثمة ما هو مريع أو جديد.. حمدت الله على ذلك، لكنك لم تكن بخير.

جاءك اتصالًا من مراد أهملته عن عمد أمام دهشة علا التي ركبت بجوارك وأمسكت يدك لتقول قبل أن تشرع في القيادة:

- كريم.. ما بك؟

أجبتها دون أن تنظر إليها:

- لا شيء..

- مَن الذي كنت تتحدث إليه في الهاتف قبل أن ألقاك؟ لقد كان وجهك ينبثق منه الشرروالضيق.. أثمة شيء حصل بينك وبين مراد؟

قلت بتعب موشكًا على البكاء:

- حدثت مشكلة في العمل كالعادة يا علا.. لا تنتهي مشكلات العمل كما تعلمين.

شعورك بأنك مكشوف كالشمس في الظهيرة زاد من غضبك وتوتر أعصابك، أي طفل صغير سيدرك الفرق بين غضبك المعتاد الذي صار جزءًا من شخصيتك لا يفارقك، وغضبك الآن.. أنت مهزوم ومُنكّلٌ بك في معركة لا يعلمها أحد، لقد أطاح بك طوفان الصدمة والجهل، تتصارع بداخلك جيوش من الأسئلة لا حصر لها، تواجهها باحتمالات مهزوزة.

خطر ببالك لوهلة أن تشرح لعلا كيف أن إحداهن قد شطرت قلبك نصفين.. ما هذا الخبل؟ ليس هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، لكنها أزمة لا تطاق ولا تحتمل، ولا بد من مشاركتها مع شخص آخر، ستموت إن لم تناقش ما رأيت مع مراد، لكن إن شاركت علا ذلك ستموت هي..

- وهل هذا جديد عليك يا كريم؟ لا أصدق أن هذه مشكلة عمل.

ثم أردفت متهكمة بابتسامة مصطنعة:

- أخبرني من السبب وسأنال لك منها.

تنظر إليها في وجل وتقول:

- هل لنا أن نتحرك الآن؟
- إلى أين؟ لم أكمل حديثي معك بعد.. أريدك في أمر جدي.
- حسنًا، دعينا فقط نغادر من هنا ونذهب إلى مكان آخر.

لم تبتعد كثيرًا، لكنك لم تنطق بحرف واحد حتى وصلتما إلى مقهى آخر.

اللعنة على الاهتمام

رشفت علا رشفة من كوبها الكرتوني الذي تبغض تناول المشروبات فيه، لكنها الإجراءات الاحترازية في كل الكافيهات والمطاعم بعد الجائحة العالمية.. وعلى الرغم من تناقص عدد الحالات فإن بعض الإجراءات الوقائية ما زالت تُتخذ من قبل المقاهي والمطاعم حتى الآن.

- كريم، هل تريد الزواج من امرأة أخرى؟

كيف لمثل هذا اليوم أن يمر بخير قبل أن تنفجر أوردتك من هول الضغط العصبي!

- علا، ليس هذا وقت اختبارات أو مشادات بيننا.. أرجوكِ أنا منهك.

طغى صوت العقل عليها وهي تقول:

- حبيبي أنا أتكلم بجدية، فأنا لا أضمن أن تمتد حياتي معك للأبد على كل حال، أنا مريضة بمرض خطير، ولا أريد أن أظلمك معي.. من تتكلم الآن معك هي النسخة العاقلة من علا، أنا لا أزعم أنني أؤيد هذه الفكرة عامةً لكن في حالتنا هذه إذا ما كان هذا هو القرار الأمثل فلنفترق بالمعروف إذن، و أنا من يبادر معك ويساعدك على هذا القرار.

رقرقت عيناها بالدمع، لكنها تماسكت و أكملت حديثها بالمنطق الذي أثار ريبك:

- كريم أنا مطمئنة لأنك ستحافظ علي أنا وسارة حال افترقنا.. هذا أفضل من أن تعيش حياة لا تحبها أو ترتاح فيها معي، أنا بذلك أتحمل معاناة مرضي وذنبك معًا.

وددت لو أخبرتها بكل شيء الآن، تمنيت أن تمتلك الجرأة لفتح صندوق الأسرار الذي بات مغلقًا لسنين خشية اللوم أو الفراق، لكن صبرًا.. فلربما ظنونك يا علا على شفا جرفٍ هار.. حتى إن توصلتما لاتفاق يرضيك ويرضيها فما الفائدة منه بعد رؤية نيرفانا مع آخر في جلسة لا تليق بها إلا صفة الحميمية، لكنك لا تستطيع أن تصرخ بها إلى الآن.. تتوق لسماع روايتها عمّا جرى.. مجرد تصورك

للمشهد يثير جنونك؛ لو كان عملًا أو صداقة مقربة أو قريب لا تعلم عنه شيء لما أحاط هذا الإطار المزهر مشهد جلستها معه، هذا المشهد لا يليق بالظهور فيه سواك أنت، أنت فقط.

علا تلوح بكفها أمام وجهك لتنتشلك من ثقبك الأسود فتعود إلى فضاء نقاشكما:

- لقد ابتعدتِ بخيالكِ كثيرًا يا علا، وحان وقت العودة لديار الواقع يا حبيبتي.. افترضتِ أولًا أنني في ضيق بسبب أنثى أخرى غيرك وهمية تحيا في عقلك فقط، أنثى خلقها خيال خصب بغير أدلة، ثم وصلنا الآن إلى فقرة المعاملة بالحسنى بعد قرار الطلاق! يا لها من مسرحية عظيمة سيدتي.. لولا الحياء لصفقت لكِ بحرارة.
- اسمع يا كريم، استمرارك في إخفاء الأمر سيزيد من ثقل الدمع المتحجر في عينيك.. أنت واسع الحيلة ولن تبوح بما في داخلك لي بالطبع، لكنني أيضًا لا أود معرفة ما سيقضي عليّ يومًا ما بطريقة غير الشفافية.. هذا كل شيء.

فلتكفي عن سكب المزيد من سائل التطهير على الجراح يا علا، لقد أخرجتِ ما في داخلك وصرحتِ به.. هذا أمر قد يريحكِ قليلًا، أما هذا الذي أمامك فمكسور القلب، لا يحتمل كلمة أخرى.

*****

أوصتك علا أن تكون بخير قبل أن تترجل من السيارة أمام المنزل، أخبرتها أن لديك أمورًا مهمة، وموعد مع مراد قد تأخرت عليه.. وفور ولوجها من بوابة البناية أمسكت بهاتفك بنفاد صبر، رقنت رقم نيرفانا واتصلت بها مرة، ومرتان، وعشر... لا إجابة ولا رد. صدرك يمتلئ بشهيق من لهب، تزفره نيران حارقة كتنين غاضب في أفلام الأساطير، كل محاولة اتصال انتهت بفشل يغيظ، ما عدا اتصالك بمراد:

- كريم، ما الخبر الآن؟
- سأجنّ يا مراد!

أخبرته تفاصيل المشهد كاملةً، وجاوبته على استفساراته الدقيقة التي من شأنها أن تجعله يتبنى هو الآخر ظنًّا مؤكدًا لديه، وقد كان ظنه متساوي القدر مع ما ظننت.

مرت دقائق قبل وصوله إليك، لقد كان على مقربة منك يقينًا منه أنك ستحتاج إليه.. أوقَفَ سيارته بعد أمتار قليلة من سيارتك، وجاء ليجلس بجوارك لتفكرا بصوت عالٍ، قال دون أن يسلم عليك:

- لقد وجدت تشابهًا شديدًا بين الصورة التي أرسلتها وصورة لصديق لديها على حسابها في فيس بوك.. واضح من تعليقاتهما المتبادلة والتفاعل بينهما أنه ليس بصديق قديم لديها فظهوره في صفحتها بدأ منذ شهرين لا أكثر.

اقتضب وجهك بينما تطالع الصور من هاتف مراد، إنه هو بالفعل الشاب نفسه الذي كان يجلس معها، تعليقاته جريئة في كل منشوراتها الأخيرة تقريبًا، كأنه يطاردها أو يتودد إليها بطريقة ما، لا تكاد تجزم بذلك أو تنفيه.. في إحدى منشوراتها علق بقول "أحبك بدون أسباب"! وفي تعليق منه آخر على آخر منشوراتها علّق بصورة قلب أحمر معبرًا عن حبه لها بالطبع.. لقد كان ذلك قبل أمس، ناولت الهاتف لمراد وقلت في مرارة:

- لا غرابة لما يحدث، لقد حظرتني من حسابها الشخصي منذ قرابة الأسبوعين.. أرادت ألا أطّلع إلى مُغازِلها الأحدث.
- حظرتك! لماذا فعلت؟ هل شبّ بينكما خلاف؟
- نعم.. مجرد خلاف عادي لكنه تضخم بلا داعٍ و انتهى بفعلتها تلك.. ما ظننت قط أن الأمر سيتطور لل...

لم تستطع التفوه بالكلمة فأكملها لك مراد:

- نعم، إنها خيانة بالفعل.. هل وجدت في هذا الرجل فرصة أجدر؟ أو لعلها سقطت فريسة لإغوائه تزامنًا مع الفجوة التي حدثت بينكما مؤخرًا.. لا أدري ما الذي غيّرها فجأة!

تنظر لصديقك المقرب وتبتسم:

- تقول ذلك و أنت تعلم أننا قد اتفقنا بالفعل على الزواج!

كسا وجهك حمرة نارية، وعضضت على شفتك السفلى وقلت بصوت مرتفع:

- وماذا عن اتفاقنا على المنزل الذي سنتزوج فيه؟! وماذا عن تمهيدي لأمها بفكرة الزواج؟ هل كانت الفرصة أجدر من كل ما فعلت أنا يا مراد؟ صدقني يا مراد فرصتي كانت أقرب للتحقيق من أي شخص آخر.

هدأك مراد ببعض الكلمات والاحتمالات التي يعلم يقينًا ضعفها، ودفعك لمواجهتها بدلًا من استمرار التوغل في غابة من التكهنات لن تجدي.

- هي لن تختلق كذبًا يا كريم لأنها رأتك كما تقول.. أعتقد أنه دار بينها وبين صاحبها هذا كلامًا عنك بعد رؤيتك تصورهما.

- نعم لقد رأتني، وما يؤكد ظنوننا الآن نظرتها المخذولة أمام نظرتي لها.. أما عنه فلا يشغلني أمره كثيرًا الآن.
- من المؤكد أنها لا تستطيع مواجهتك الآن.
- لكنني لا أستطيع على ذلك صبرًا يا مراد.

ابتسمت بحزن وقلت:

- لقد كانت الأمل الأخير لجعل حياتي متزنة، كيف لي أن أُخدع بهذه السهولة؟ إنها الوحيدة التي أحببتها وأردتها زوجة لي بكل كياني، لقد كانت تغيرني تدريجيًّا للأفضل، كانت تحثني على الاهتمام بمتابعة مرض علا، بل كانت تشترط أن يكون لها الأولوية في كل شيء، كيف لهذا الملاك أن يغرس مخلبًا صدأ في قلبي؟!

بدأت الدموع تنحدر على وجنتيك و أنت تكمل لمراد:

- هل يتجسد الشيطان في صورة ملاك يا مراد؟! أخبرني...
- اهدأ يا كريم بالله عليك، ستصاب بشيء إذ لم تتناسَ الأمر الآن، زوجتك لن ينطلي عليها إخفاءك لهذه الصدمة.

قلت بينما تجفف دموعك:

- لقد فكرت أن أبوح لها بكل شيء منذ قليل.. كنت سأنفجر من الكتمان.
- أنت بذلك تستدعي الكوارث كمن يستسقي المطر.. لا تفعل طبعًا، عليك أن تدخل بيتك الليلة ولا يبدو عليك شيء.

*****

في المنزل شغلت نفسك بكل شيء يمكنك فعله كي لا يتجدد النقاس بينك وبين علا، لكنها استسلمت للنوم مبكرًا هذه الليلة، خرجت بهدوء من غرفة النوم ذاهبًا للشرفة، تشعر بالبرد ودماغك يغلي من التفكير، تنظر إلى السماء البعيدة الصافية، وتتمنى لو أن بينك وبين ما تحبسه من كلمات كما بينك وبين إحدى نجمات السماء، تناجي خالقك بما تعانيه ويمزق فؤادك، والدمع ينهمر من عينيك المحتقنة بلا رادع..

"لم يكن عليّ ولوج هذه الدائرة من البداية يا الله، لا أدعي الكمال أبدًا، بل أعترف بالنقص.. نعم يا رب، أنا رجلٌ ناقصٌ أراد أن يكمل ذلك النقص.. أولم تخلق آدم وحيدًا أولًا ثم خلقت له حواء من ضلعه الأعوج لتكمّله، خلقتها يا رب جزء كامل في ذاته يبحث عن مسكنه، وخلقتني ناقصًا أبحث عمّن يكملني.. يا رب ما أردت إلا أن أكمل ذلك النقص، لا أجحد شكر نعمتك في زوجتي و ابنتي، زوجتي التي أسألك أن تشفيها.. هل

أجرمت يا إلهي إذ بحثت عن غيرها ليكمِلني؟! أليس هذا ما أبحته لي؟! لقد كنت أبحث عن الاكتفاء والكمال وحسب".

سَرت رعشة قوية في بدنك واشتد بكاؤك، تنفست بعمق وأدلفت داخلًا حيث الدفء، مجففًا دموعك التي انحدرت كالسيل.. فلتسترح الآن؛ غدًا لا بد من المواجهة كما قال مراد.

طوال ساعات الليل لم تنم، كنت ترسل لمراد رسائل نصية ليشاركك التفكير والهم، وكان يرد عليك من حينٍ لآخر كلما استيقظ أو أزعجه القلق.. المسكين هو الآخر تحمّل معك كل ذلك فلم يهنأ بالراحة.

أشرقت الشمس فغفت عيناك من وطأة الإرهاق، لكن سرعان ما فتحتهما ونهضت مسرعًا.. حالتك مزرية، لم تغير ملابسك من البارحة، خرجت من المنزل كما أنت قبل أن تقلق علا وتستيقظ.

اتجهت بسيارتك إلى مقر الشركة التي تعمل بها نيرفانا، وكان الوقت مبكرًا جدًّا عن موعد ذهابها للعمل.. مكثت على مقربة منها ودقائق الانتظار تنهش بلا رحمة في خلايا مخك.. كيف ستواجهك يا ترى؟ ما الأكاذيب التي سهرت تختلقها وتحيكها لتصنع ثوبًا ملائمًا تواري به اتهامك لها بالخيانة والتلاعب بمشاعرك الصادقة؟ كلما مر الوقت ازدادت سرعة نبضات قلبك وازداد توترك بشدة، بات انفجارك مسألة وقت لا أكثر.

مرت ساعتان ونصف، لم تظهر نيرفانا فيهم ولم تلمح سيارتها البتة، غير معقول أن تتأخر عن الثامنة، والساعة الآن تخطت الثامنة بنصف ساعة.. بيدٍ مرتعشة كأيدي المدمنين أمسكت هاتفك و اتصلت عليها، لكنها ألغت مكالمتك وبعثت إليك برسالة سريعة تخبرك أنها مع أمها في فيلا الشروق خاصتهم، وتعللت بأنهم يتابعون بعض أعمال الصيانة والتنظيف مع العمال.. ألقيت بالهاتف وصرخت داخل سيارتك المغلقة: "كااااااذبة"، و انطلقت ضاغطًا على دواسة الوقود متجهًا إلى مدينة الشروق حيث إبطال كذبتها.

خلال الطريق اتصلت بها أكثر من مرة لكن هاتفها كان مغلقًا، بسبب ضعف الإشارة هناك أم عن عمدٍ منها؟ كل الظنون محتملة الحدوث الآن.. ما تتيقن منه أنها مع هذا الرجل اليوم.

أرسلت لها رسالة أن "حدثيني هاتفيًا للضرورة"، ومرت دقائق واهتزالهاتف الذي لم يفارق يدك المبللة بالعرق، فتوقفت بسيارتك المسرعة على جانب الطريق، وأجبتها بحدة هجومية:

- أريد تفسيرًا لما رأيت!

قالت بصوت يدرك مأزقها الشديد:

- سأشرح لك كل شيء، الأمر ليس كما تظن.. أقسم لك أنه...
- لماذا لم تتكلمي معي بعدها مباشرة لتشرحي؟ لماذا منعتيني من التواصل معك؟ ولماذا حظرتيني من حسابك الشخصي؟

أنفاسها تتلاحق وهي تجيب:

- كنت خائفة منك يا كريم، أنا أخطأت وأعترف بذلك، ومهما كان ردة فعلك فلك الحق.

توقع الصدمة ليس كوقوعها؛ هكذا الأمر إذن بكل بساطة! أخطأت في حقك! وتأخرت في شرح الأمر تاركةً إياك تحترق بكل ظنونك التي صارت حقيقة بشعة.

- كريم، لا أستطيع في هذه اللحظة أن أتكلم معك، أمي معي هنا ونقوم ببعض الأعمال، أعدك أن نتقابل ليلًا، سأخبرك بالحقيقة.

قلت بحنق:

- بل الآن.. و أنا في طريقي إليكِ.
- لا تفعل.. أرجوك.
- ولماذا؟ الآن وإلا لن يكون شيئًا بيننا.

قالت متوسلة:

- كريم أرجوك.. اعطني فرصة أوضح لك الأمر.

قلت بسخرية:

- فرصة! أعتقد أن قلبي لن يتحمل محاولة أخرى من هذه اللعبة القذرة، سأعرف كل شيء الآن وإلا...
- كريم أنا آسفة... أنا مضطرة لإنهاء المكالمة الآن، إلى اللقاء.

لم تنتظر ردك، أنهت المكالمة، وعاد هاتفها مغلقًا.. اتجهت كالصاروخ إليها غاضبًا؛ لم تدع لك مجالًا للشك بكلامها وطريقتها.

هل كانت قصة كاملة من الأكاذيب المحكمة والمتقنة؟

إلى هذه الدرجة كان من السهل خداعك؟

هل أنت خائن، وعدالة السماء سقطت على رأسك بواسطة هذا الملاك؟

"إنه حصاد أفعالك يا كريم".. قطع صوت ضميرك اتصالًا من مراد أجبته على الفور:

- مراد، لقد أخبرتني أنها في فيلا الشروق مع أمها، وأنا في طريقي إليها رغم اعتراضها.
- كريم لا تذهب، لن تتكلم معك في وجود أمها.
- قضيَ الأمر، لقد وصلت.. سلام.

توجهت لحارس الفيلا الجالس أمام البوابة، فوقف على الفورورفع يده محييًا إياك بتبسم، كان يعرفك من المرة السابقة التي أتيت فيها لإبداء آرائك في الأعمال المنفذة في الفيلا.. خاطبك بكل أدب:

- أهلًا يا باشمهندس.. تفضل اشرب الشاي.

تجاهلت ترحيب الرجل الحارلك وقلت بشكل مباشر:

- أخبر الأستاذة نيرفانا أنني هنا، أخبرها أني أريد رؤيتها حالًا.

قال الرجل باستغراب:

- الأستاذة نيرفانا ليست هنا يا باشمهندس، في الحقيقة لا أحد هنا ولم يأتِ أحد منهم منذ شهر أو أكثر تقريبًا.

الخبيثة.. لقد أوجدت لهذا الرجل الساذج دورًا في مسلسلها الحقير.

- اسمع يا رجل.. إما أن تدخل الآن وتعلمها بوجودي أوسأدخل أنا على الفور، لا تستفزني، أنا لا أريد أن أقتحم حُرمة البيت.

قال الرجل وعلامات البلاهة تزداد على وجهه:

- والله العظيم يا باشمهندس لا يوجد أحد، ادخل وتأكد بنفسك إن شئت.

وتركك الرجل في بركة متسعة من وحل الغضب، ورجع إلى كرسيه يحوقل ويستغفر، بينما أنت لا تدري ماذا تفعل أو تقول؟ صدرك يعلو ويهبط من فرط الانفعال.

هاتفتها للمرة الألف، ما زال هاتفها اللعين مغلقًا.. ليست بالعمل، وكذبت بصدد تواجدها وأمها في فيلا الشروق، تُرى علام سأعاقبك يا نيرفانا؟ على كذبك أم خيانتك أم استمرارك في خداعي ووجعي بلا رحمة!

أمها.. فلتتصل بها وليحدث ما يحدث..

- أهلًا كريم، كيف حالك؟

- أهلًا بكِ.. آآآ.. أردت فقط الاطمئنان على نيرفانا، أظن أن هاتفها به خلل ما فأنا لا أستطيع الوصول أو التحدث إليها، فضلًا إن كانت في المنزل معكِ فلتسمحي لي أن أكلمها.
- نيرفانا في العمل يا كريم، لقد ذهبت منذ أكثر من ساعة.

كدت تصرخ فيها عبر الهاتف أن ابنتها ليست في العمل، لكن هذا لن يجني ثمرة.. ستقلق عليها المرأة، وستنزلق معها رغمًا عنك في منعطف آخر من المحادثة أنت في غنى عنه الآن، فلتهدأ!

- حسنًا سيدتي، سأحاول مرة أخرى أن أتصل بها لعل هاتفها خارج نطاق الخدمة.

منذ متى صارت بكل هذا المكر والخبث؟! مستعدٌ لتقبل الخيانة من أي شخص سواها!

لم تتأثر بسهم الغدر، لكنك مت حين رأيت من رماه كما يقول المخدوعون أمثالك!

راسلتها بكل طريقة ممكنة؛ عن طريق كل مو اقع وتطبيقات التواصل الاجتماعي، وعن طريق عشرات الرسائل على هاتفها، لا إجابة وصلتك ولا رد.. ومع تو افر كل السبل المتاحة لأن تعثر على كل غائب وتحاصره في هذا العصر، إلا أنه ما زال من أراد الاختفاء بمقدرته أن يفعل ذلك بسهولة.. "سأجعلك تندمين يا جميلة.. وسترين!".

مر اليوم بسلام، وبدون أن يتوقف قلبك عن النبض، أو أن تغفل رئتيك عن سحب المزيد من الأكسجين من الجو.. الحياة تمر رغم كل شيء، و أنت أفضل من يعلم ذلك. هذا لا يقلل من دعم مراد الذي لا يُنسى أبدًا؛ لقد اصطحبك طوال ساعات اليوم، حتى عدت لمنزلك ليلًا.

كنت مهزومًا، والغضب استنفذ منك كل شيء بعد أن استحوذ عليك بالكامل، وإن نجحت في إخفاء شيء من ذلك أمام مراد، فالشدة تهون بتمضية الوقت مع الأصدقاء المخلصين.

إنّ حقيقة تفسير ما حدث، مهما طرحت له العديد من الاحتمالات والظنون الحسنة والسيئة على السواء، ومهما سهرت الليل تفكر وتحلل كيف ولمَ، فلن تنل من وراء ذلك إلا عناء الحيرة والضيق.

الله وحده يعلم كيف مرت تلك الليلة عليك؛ إنها الليلة الثانية لك قابعًا في سجن الخيانة والإهمال.. في الصباح أصرّت علا أن تتخذ هذا اليوم إجازة من كل أعمالك لترتاح قليلًا.

قالت علا على مائدة الإفطار:

- سأخبر والداك وجيهان أننا سنقضي اليوم معهم، لا مزيد من الضغوط عليك اليوم.

قلت في استسلام تام:

- حسنًا.

*****

ذات يوم رفضت وصف مراد لك بالمراهق المتأخر، والآن قد شاب ذاك المراهق بداخلك بعد ما تخبط وتاه في علاقات مظلمة، لم يعش سعيدًا فيها ولم يمت، ضل الطريق ولا يلتمس سبيلًا للعودة حتى الآن.. عالق في ثقب أسود، لا زمن فيه ولا ضوء ولا مكان.

هل عليك الاستسلام الآن والعودة لما كانت الحياة تسير به، حتى لو كنت تراها تسير عرجاء، فالنقص سمة الحياة، وقد اعترفت بذلك قلبًا وقالبًا.. أقررت أنك رجل ذو نقص، وكلما جاهدت لسد ثغرة نقص فُتح لك ثغرات غيرها، ليس كل رجل يكتفي بأنثى واحدة تكمّله، لقد باتت تلك الفكرة نظرية قوية غير قابلة للجدال لديك، انظر حولك ستجد أن كل جنسك متهمون بشكل ما؛ هناك قائمة اتهامات ثابتة لكل رجل وأولها الخيانة.. أنتم معشر الرجال لا تكتفون بأنثى واحدة مهما كانت عظيمة، والأغرب أنكم لا تجدون مبررًا لوصف الخيانة؛ لماذا لا يؤنبك ضميرك على تلك الأفعال، بل وتشعر أنها عادية، بل فطرية إن شئت الدقة، فلمَ يلومنكم إذن؟! لذلك تصالحت مع صفة الخائن دون أن تدري، وكأن لا وعيك أقرها ومررها كما تُمرر القوانين الباطلة.

سيتهمونكم أنكم لا تعرفون من الدين سوى الزواج من أخرى، وستذهبون بعيدًا بعقولهنّ عن مدى أهمية ذلك لديكم، ولا أحد في النهاية سيعترف بالحقيقة الكاملة؛ هنّ لا يقبلن فيكم شراكة، و أنتم لا تقبلوهنّ وحيدات دون أخت صغرى كما يقول مراد.. صديقة ما، حبيبة في الخفاء ربما، زوجة أخرى جائز.. كلٌ يرقع ثقوب حياته

بأخريات مهما كان وصفهن أووضعهن، والنادرون منكم يكتفي بواحدة ويعوض نقصه بمال أو بأشياء أخرى.

فلسفة لا تتفق مع الحب مطلقًا عند النساء، لكنها جديرة بالتفكير عند الرجال بوصفها معضلة أو معادلة عسيرة الحل أو الفهم، ولقد قال قائل "لو تزوج قيس بليلى لأحب امرأة غيرها، ولم يصبح مجنونها؛ الحرمان هو بطل القصة وليس الحب".

جميعهم يرونك من الداخل، صدرك زجاج نظيف لامع يشف ما وراءه.. الجميع يعرف أن شيئًا غامضًا يحيط بك، أمك أولهم، أختك، ولا شك زوجتك.. كلهم متيقنون أنك تحمّل همًّا ثقيلًا، ضغطك المرتفع يثبت ذلك، احمرار وجهك عنوانًا لقصة حزينة مررت بها.. جيهان تشك ولا تستطيع إثبات شيء مثلها مثل علا تمامًا.

تركتهم وخرجت لتفرج عن نفسك حصار أعينهم المتلهفة لقراءة ما بك، و أثناء تجولك بالسيارة بلا هدف تلقيت اتصالًا من رقم غريب خارج البلاد، ليس رقمًا لبلد زرته من قبل.. على كل حال أجبت:

- أهلًا.. من معي؟
- أهلًا بك بشمهندس كريم.. معك دكتور طارق كمال ابن عم نيرفانا وبمثابة أخيها الأكبر.

ازداد تركيزك رغم الصداع الذي يشقّ رأسك نصفين:

- مرحبًا بك دكتور طارق.
- هل يسمح وقتك ببعض الدردشة بخصوص ما حدث؟ أرجو أن أكون قد اتصلت بك في وقت مناسب، أعتقد أنك تعلم أني أعمل في ماليزيا.
- نعم أعلم ذلك من نيرفانا.

صوت الرجل ينُمّ عن مزيج من الخبرة والحكمة مما أضفى على قلبك طمأنينة، كمن وجد الماء بعد التيه في صحراء قاحلة، ولوهلة قصيرة شعرت بقيمتك؛ أنك لم تُخدع فيها ما دامت تحاول إصلاح الأمر بهذه الطريقة؛ هذا الوسيط المصلح يؤكد ظنك.

أضفت بهدوء:

- يسعدني سماعك دكتور طارق.

قال الرجل بكل تعقل:

- سأكون محددًا ومختصرًا نظرًا لأني لا أريد إهدار وقتك ووقتي أيضًا، لن تفيد المبررات فيما حدث وسيعد أي عذر مجرد اختلاقًا مشوهًا.. أعتقد أنها اعترفت بالخطأ ومستعدة لتحمل النتائج مهما كانت.

قلت بحسم يوازي طريقته العملية:

- سأستمع إلى تعليقك كاملًا ثم أرد.

تنحنح الرجل وقال:

- أنا أعترف أيضًا أن هذا الموقف سخيف.. لو كنت مكانك لم يسعني إلا أن أصفعها أمام هذا الرجل وأمام جميع من كانوا بالمقهى، لكنك أفضل مني، لم تفعل ذلك، وهذا ما شجّعني لأتحدث إليك راجيًا منك أن تتفضل على نيرفانا بقبول اعتذارها.

ابعتدت أكثر عن مرمى نظر من ببيت أهلك حتى تتأكد أن لا أحد يستمع، وقلت بإصرار:

- يعني هذا لم يكن اجتماع عمل؟! من هذا الرجل إذن؟ كيف أقبل اعتذارها قبل أن أعرف الحقيقة كاملة؟ أخبرني بالحقيقة أولًا.

تنفس طويلًا ثم قال:

- أنا مُحرج جدًّا منك.. ولولا أنها عزيزة عليّ ما كنت تدّخلت بينكما في أمر لا أجد لها فيه أي عذر أو مبرر.. لقد أخبرتني أن ثمّة خلافًا نشب بينكما مؤخرًا، وشعرت بأنك فقدت الاهتمام بأمر الزواج منها.. لقد تلبسها الشك يا عزيزي.. اعذرها فقد مرت بصعاب تقسم ظهر الرجال، لكنها كانت قوية لتنجو من كل ذلك.. صدقني نيرفانا ليست بالمرأة التي تخون.

قاطعته لتسأله سؤالًا كنت في حاجة ماسّة إليه:

- دكتور طارق، أخبرني بصدق، ماذا لو كنت مكاني؟ أكنت لتغفر لها؟

قال الرجل بعد تردد:

- كلا.. بل وربما فكرت في الانتقام أيضًا.
- هل أخبرتك أننا قُمنا باختيار منزل الزوجية الخاص بنا؟

صمت الرجل قليلًا ثم سأل بدهاء ليدير دفة الحديث لصالحها:

- هل ثمّة فرصة أخرى وأخيرة لها؟ أستطيع أن أستنبط من طريقتك أنك لم تكرهها بعد.. هل تفكيري سليم؟

- من العسير أن يكون الرد بنعم.. على الأقل الآن؛ فأنا في المركز الطبي حاليًا أجري بعض الفحوصات، وقد أخبرني الطبيب أن لا بد من البقاء بعض الوقت لإمدادي ببعض المحاليل والأدوية.
- يا إلهي.. ما الأمر؟ دعني أتحدث للطبيب بنفسي لأطمئن عليك بشمهندس كريم.
- لا داعي لذلك، أنا بخير الآن، أشكرك بشدة على شعورك هذا، كل ما في الأمر أني شعرت بالأعياء فقط مع ارتفاع في ضغط الدم فأصرّ الأهل على إحضاري هنا.
- أرجوك راسلني لأطمئن عليك.. سأتركك الآن ولنستكمل حديثنا في وقت لاحق.

*****

عليها أن تدرك مدى جرم فعلتها، سيخبرها الآن بما حلّ بك بسبب فعلتها القذرة.. لست أنا من يوضع محل اختيار، لقد عشنا مراحل الاختيار بروّية لا تتيح لنا البدء من جديد، ليس بعد أن رتبنا كل شيء، حتى موعد مقابلتي لأهلها خططنا له على الأقل، واخترنا المكان الذي سنبدأ فيه حياتنا الجديدة.. بعد كل ذلك يا نيرفانا تنجذبين لغيري بحجة فقد الاهتمام! اللعنة على الاهتمام!

- اللعنة عليهما معًا.. لا تحزن عليها بعد الآن، لقد اكتشفت خيانتها وتأكدت بنفسك من ابن عمها هذا.. عليك أن تنساها وتطوي صفحتها المخزية للأبد.
- مراد، دعني أتكلم معك بما يدور داخلي من صراع، أرجوك لا تؤاخذني في ما لا أملك والتمس الأعذار لي، فأنت تعلم مدى حبي لها.

بيد أنك أهدأ كثيرًا بعد مكالمة طارق ابن عمها لك، لكنك تحمل عارًا أسود يلطخ جبهتك وقلبك؛ هل حقًّا كانت على وشك الاستغناء عنك؟ هل تمت مقارنتك بغيرك داخل قلبها؟ ولو كنت أنت المختار في النهاية.. كيف مال قلبها لغيرك ومتى؟ هذا لم يحدث بين عشية وضحاها.

صوتك الواهن المنكسر هي السبب في انكساره، تخشى غضب مراد إذا صارحته بأنك لا تقوى على بُعدها حتى بعد خيانتها.

- تكلم يا صديقي.. وبُح بما لا تستطيع البوح به لغيري.

- أنت تعلم أني لا أخفي عنك شيئًا.. أليس ما فعلته نيرفانا يشبه ما فعلته مع نهال؟ أقصد في المبدأ، أو لسنا سواء.. هي خانت و أنا خنت أيضًا من قبل أليس كذلك؟!

عقب مراد مستنكرًا:

- كأنك تريد بذلك أن تعود المياه لمجاريها وتنسى ما حدث!
- لا أعتقد أن ذلك أمر ميسور.
- لكنك لم تكن على علاقة بنيرفانا ونهال في وقت واحد، أنت خنت علا وليست نيرفانا.
- إذن أنا خنت وهي خانت.. هذا عقاب إلهي لي و أنا أتحمّله.

احتد مراد معترضًا:

- أي منطق هذا؟! أي ميوعة هذه؟!
- مراد، أنا ما زلت أحبها!

يرد في تحدٍّ:

- لقد خانتك! تعرفت على آخر ولربما فضّلته عليك.

لحظات الضعف والخجل بطيئة كسلحفاة مملة تمرّ من أمام نظرات مراد المُنكِرة لضعفك بشراسة، وكأنّ حالتك تحولت من مستحق للشفقة إلى مستحق للألم، هل هكذا يبدو الرجال؟! قال جملته تلك بفظاظة و انصرف.

كنت في عالمٍ آخر لا تهتم بكل ما يحيط بك، غير ذي بالٍ بما ينبغي لك فعله؛ هذا الذي يجري لك أنت غير بارع في معالجته.. الحب له سطوة على قلبك تعمي عقلك وتؤثر سلبًا على شخصيتك، لقد سلبك كرامتك على الأرجح.. من يصدق أن البشمهندس كريم الذي ترتج الشركة لتقاريره الفنية وآراؤه العملية لا يقوى على صدّ يد الحب عن صفع كبريائه واحترامه؟! حصار العواطف يعلن أن لا استسلام ولا إذعان لمنطق أو لعقل، فضلًا عن اعتباراته لبقايا كرامة مبعثرة.

*****

في المكالمة التالية للدكتور طارق ابن عمها أدرك الرجل مدى حبك لها وجرحك بسببها، وصرح لك عن مدى إعجابه برجولتك ومواقفك الحازمة، ووعد بشرفه أنه هذا الفعل لن يتكرر أبدًا منها، وأكد لك مرة أخرى أنها وقعت فريسة الإهمال، ونصحك قائلًا "إن الاحتياج غير المحقق يدفع المرء إلى أفعال قد يندم عليها كلا طرفي

العلاقة".. وأخيرًا ستقوم نيرفانا بتوضيح كل ما صدر منها من أفعال، وستنفذ شرطك الوحيد للصفح عنها، وهو الاعتراف.

كانت في سيارتها تنتظرك باكية، ولم تتخلَّ عن وقارها المميز، لكنه اليوم وقار لا يفارقه الذل.. فارقت سيارتها إلى سيارتك، فلم تتحرك من خلف مقود السيارة، على وجهك علامات الغضب، وقلبك قد مزقته الخيانة؛ إلا أنه ما زال ينبض باسمها علنًا.

قالت منكّسة الرأس والصوت:

- أعلم أنني قد أفقدتك الثقة بي، لكني لست بخائنة، لم يملك قلبي غيرك يا كريم صدقني، لكني شعرت بأنه كلما اقتربنا من الزواج يفتر حبك لي وينزوي ويقل اهتمامك لشأني بصورة كبيرة تزعجني..

بكت فقط عندما لم تجد ما تقوله بعد ذلك وظلت تردد كلمة الأسف.

- لماذا كذبتِ بعدما كشفت أمرك؟
- كنت أتخلص منه.. صدقني.. لقد تشبث بي وطلب مني الزواج صراحة، أنا رفضت ذلك.
- لمَ لم تخبريه بوجودي في حياتك؟

قاومت مزيدًا من البكاء المستمر لتقول بحزن بالغ:

- وهل كنت موجودًا يا كريم في حياتي؟ أنت تبتعد كلما صار قربنا محتمًا.. لماذا لا أستطيع أن أثق في وعدك لي بالزواج؟
- ماذا كان عليّ أن أفعل لأقنعك أكثر من استئجاري للشقة التي كنا سنتزوج فيها، لقد علمت أمك ما ننوي فعله.. هل انشغالي عنكِ مبرّرٌ للخيانة؟!
- أرجوك.. لا تصفني بتلك الصفة، لم أخنك صدقني ولا حتى بمخيلتي.. أرجوك كريم سامحني!

لقد ابتُليَ القلب بالعشق، وإن لم تكن هي من يزيح الفراغات فيه فمن يفعل؛ هذه حسرة لن تحدث في العمر مرتين، حسرة توازي كل ما اعتبرته أفعالًا قبيحة.. لم تظن أن الأمور كانت لتسوء للحد الذي تقف فيه عاجزًا عن الاختيار بين العفو عمن خانك، أو الرحيل عمن تحب بحق.. مع ذلك ما زلت لا تملك قلبك، ولا تجيد التحكم به.. لمَ أطلقت له العنان ليطرحك أرضًا غير مبالٍ، لقد كانت غفلة كجنون طويل الأمد، لقد كان هذا ما تريد من زمن، فاقبله أو ارفضه فورًا بغير ندم.

لم تزل تتوسل باكية، وما زلت شاردًا غاضبًا تفكر.. هل لديك بديلًا لها؟ هل تقدر على نسيانها؟ من تلك التي تفكر فيها كل ليلة قبل نومك؟ إنها الشخص الوحيد على

الأرض الذي لا تطيق بُعده.. لقد استباحت قلبك ودنسته، ولو مسحت الأرض ترحالًا لن تجد من يعيده لك كما كان غيرها، فلتعفُ عنها إذ لا مفر منها.

- افعلي ما يثبت ولاؤكِ لي.

قالت بمنتهى الحسم:

- أنا لك، افعل بي ما تشاء، تزوجني الآن أو الغد، أنا ملكك، و أنت حياتي كلها.

قلت بمنتهى الأسى:

- نيرفانا، أريد أن أرمم ما تهدم بداخلي جراء فعلتك.

*****

وخزات قلب علا أخبرتها أن قلب زوجها قد تعلق بأخرى، و أنه لا مفر لها من مكابدة ذلك العناء.. كريم لا يضع شيئًا في رأسه إلا أتمّه؛ سيتزوج رغمًا عنها أو برضاها، لقد أرادت فقط أن يتم الأمر برضاها حتى لا تنزعج لاحقًا، أو أن يؤثر هذا الخبر على صحتها إن علمته هي على سبيل الصدفة، لكن من قال بأنها ستعرف؛ إنه رجل ماكر وحاذق، لن يخطئ أبدًا هذا الخطأ الساذج.. لقد اعتبر قصة هدية الساعة بمثابة درس قد تعلمه ولن ينساه أو يكرر الوقوع فيه.. عليها أن تعيش في سلام أو يأس، كلاهما وجهان لا تطيقهما لعملة واحدة لا تطيقها تسمى حياة.. صحيح أن الحسرة والغيرة ينهشان قلبها نهشًا غير رحيم، لكنها ستتظاهر بالثبات وبالقوة، والجهل أيضًا! ربما من أجل سارة ستفعل، لكنها لن تنسى من حدد لها هذا الطريق الموحش للسير فيه لبقية حياتها.

المرأة تشعر بكل أفعال زوجها، خصوصًا إذا ما تعلقت تلك الأفعال بامرأة أخرى؛ لا بد من الوقوع سهوًا في نسيان تفصيلة دقيقة هنّ فقط من يكتشفنها؛ عطرٌ مختلف، أحمر شفاه قد ترك بصمته بفعل قُبلة شهوانية عمياء، شعرة تتوارى بين طيّات نسيج قميصه ليست تخصها.. كلها فخاخ سيتعرض لها هذا الوغد الذي يسمى زوجها، ولسوف تحيل حياته جحيمًا آنذاك.

*****

عارض الأهل فكرة الزواج من امرأة ثانية، وقادتهم جيهان في هذا الرأي، وحثتهم ليل نهار على ضرورة إنقاذ صديقتها من هذا الوضع الذي لا ترتضيه لنفسها، وعلى الحفاظ على بيت أخيها الذي يريد خرابه بفعلته تلك، لكنّ معارضتهم لك لم تكن لتثنيك عن الإقدام على الزواج من نيرفانا، حتى وصل الأمر مع جيهان أن هددت بإخبار

علا بالأمر، فقابلت تهديدها بتهديد آخر غير مباشر؛ إذ إنها إن فعلت ذلك فحياة علا قد تكون مهددة بالصدمة، وفي هذا خطر يحتاج منها لجرأة ومخاطرة.

كشّر أباك عن أنيابه بشراسة في حلبة المناقشة بينكما، أراك الجانب التربوي الذي لم تعتد عليه ولم تحبه، هذا أمر عليك فيه السمع والطاعة، فإذا أعرضت عن ذلك فلا تعرف لك أبًا ولا أمًّا! لماذا كل هذه العداءات المصطنعة؛ هم يعلمون أنك إن أردت شيئًا ستفعله ولا محالة، مهما كانت العقبات مستحيلة ستذللها إلى سهول خضراء، تعبر من خلالها للجنة التي ترنو إليها، ثمّ إنك لم تقدم على أمر لك فيه مقصد غير شريف أو غير ضروري؛ إن لك احتياجاتك الخاصة التي ربما لا يعلمون بشأنها شيئًا، وفي الوقت نفسه لن تظهر عورات نفسك وبيتك وزوجتك أمامهم لتقنعهم باحتياجك لامرأة أخرى مع علا، لكنهم يتعنتون أمام رغباتك دون استماع أو شعور بما ينقصك.

وجدت نفسك وحدك تواجه الجميع من أجلها، حتى مراد كان قد انسحب واعتزلك لفترة قد طالت، ليؤكد موقفه المعارض لك في مواجهة الخيبات.. لقد أصبحت البطل الذي يخوض أرض المعركة لينقذ حبيبته أو يصل إليها، كانت دومًا تدفعك دفعًا بشتى الطرق الصريحة أو المتوارية، لتتخذ موقفًا رجوليًّا حاسمًا وقويًّا، موقفًا لا تؤوله هي لمعنى آخر سوى أنك تريدها بصدق، تتمسك بها بقوة ومن كل قلبك.. وقد حدث هذا بالفعل.

الحب والزواج

أرادت نيرفانا الرجل الشرقي المحافظ، الذي يقيم بيتًا فيه زوجة وأولاد.. ستجعل منه ملكًا متوّجًا ذو حاشية تعينه على مشاق الحكم والملك، ولن تغفل أن تقوم على رعايته وضمان استمتاعه بالرفاهية والمشاعر المفتقدة لقلبه العطش.. وعلى الرغم من كونها امرأة قوية مستقلة، إلا أنها في حاجة للرجل الذي يمثل في خريطة حياتها المنبع والمصب؛ فهو مصدر معتبر للمشاعر والحب والدفء والحنان، وهو أيضًا بحر واسع لسكب طاقتها الحنون، واستيعاب مشاعرها المنجرفة المتدفقة، والتي لم تجد من يستحق احتواءها بحق.

لم يمنعها أن يكون متزوجًا أو يكون صاحب ذرية، هي لا تنوي إثارة المشكلات، أو خراب البيوت؛ هي فقط تريد زوجًا صالحًا، الأجدر به أن يقدر على هذا الجهد الذهني، والبدني، والمادي.. هذا كل ما يعنيها في الزواج، أن يكون رجلًا له قلب وحسب.

لقد رأت في مريض صديقتها المهندس المتزوج كل هذه المواصفات، وقد لعبت الدكتورة لمياء دور الوسيط بينكما في تبادل المعلومات المبدئية التي توضح مدى احتمالية نجاح العلاقة، بل وساهمت قدر ما تستطيع على نجاح العلاقة، ولم تتخذ معيارًا مشتركًا بينكما سوى الاطمئنان، فعلى هذا قد يُبنى الحب ويرتفع شامخًا؛ الاطمئنان قبل الحب دائمًا.. نيرفانا تعلم ذلك جيدًا من خلال التجربة العملية؛ فالتجربة خير معلم، وخسارتها الأولى تعلمت منها أن تكون الأخيرة.

تعلمت أن البشر لا يقدّرون حاجاتهم التي حصلوا عليها بسهولة، وأن المرأة في هذا المجتمع لو كانت لطيفة من البداية فعليها أن تتقبل أن يطالبها كل من حولها بأن تظل هكذا للأبد دون مقابل، ولا شيء يستمر دون مقابل، على من يريدها أن يبذل مجهودات واضحة من أجلها، أن يحرص على تقديم تضحية ما قيمة كتصديق على جديته.. أما عن اهتمامك السخيّ بها بدايةً فقد علمت أنه للجميع وليس خاصًّا بها؛ هذا افتراض بنته فراستها لدى رؤيتها لك في عيادة نفسية.

*****

كان هذا هو اللقاء الثالث في إطار عودتكم للحياة العاطفية الطبيعية التي كنتما عليها من قبل.. اثنان يحتاج كل منكما الآخر ليكمّله دون أن يؤثر بالضرر على حياته السابقة..

- لقد رتبت كل شيء على أساس الموعد الذي حددته معي يا كريم.. أختي و أبي وأختي قادمون بعد غد من قطر، وأمي على علم بما نخطط له وفي انتظار مجيئك.. كيف بعد كل تلك الترتيبات تخبرني بأنك ستتقدم لي وحدك دون أي فرد من أفراد عائلتك؟!
- أيهما أفضل إذن؟ أن أؤجل الموعد بعد كل هذه الترتيبات المعقدة أم أحضر بمفردي؟ نيرفانا أنا محاصر من كل الجهات.. سيتطلب إقناع أبي وقتًا لا رفاهية لي بامتلاكه حاليًا..

ماذا لو علمت برفض أمك الشديد لهذا القرار؟
ماذا لو شاهدت جيهان أختك وهي تهددك بإخبار علا؟
زفرت أنفاسك المكتومة ثم أضفت:

- ما المشكلة التي ستحدث إذا ما حضرت بمفردي؟

قالت نيرفانا وقد أعدت ردًّا مسبقًا لهذا السؤال:

- بل قل ما المشكلات التي ستحدث حينها.. هل فكرت بي إن حدث لك مكروهًا لا قدر الله و أنت معي في بيت واحد كيف سأتصرف؟ بمن سأتصل من أهلك يكون برفقتي في موقف مثل ذلك؟ إلى من يجب عليّ الرجوع إليه حال حدوث خلاف معقد بيني وبينك لم نصل فيه إلى حل يرضينا؟ ثم كيف ستقابل عائلتي منفردًا هكذا؟ هل ترى ذلك مناسبًا لحدث مثل الزواج؟!

قلت بلهجة جاهدت في جعلها حاسمة فخرجت بين التوسل وقلة الحيلة:

- ليس بوسعي فعل شيء.

هنا برقت عيناها، وبدا عليها الغضب.. قالت بصوت متحشرج:

- حسنًا بشمهندس كريم، إلى هنا وكفى، لقد انتهت اللعبة، لا تحادثني مرة أخرى بأية وسيلة، لن تستطيع أصلًا لأنني سأحظرك من كل حساباتي وجميع أرقام هاتفي.. لا علاقة لك بأي شخص من قرابتي وأهلي.. أهلي أناس محترمون يعرفون تمامًا معنى أن يكون الرجل صاحب كلمة.

لم تجد سوى الصمت لتنزوي خلفه مشاهدًا هذا المشهد المفزع.. نهضت تلملم أشياءها وقالت:

- وأمّا هداياك وأشياؤك كلها سأردّها لك جميعًا، لا حاجة لي بما يذكّرني برجل مثلك، وإن كان لي عندك شيء فلتحرقه أو لتفعل به ما تشاء.

وغادرت المكان كالإعصار الذي دمّر مدينة كاملة ثمّ ابتعد عنها غير مبالٍ بما فعل.. لم تتذكر أن هذا المشهد قد تكرر في حياتك بصور لا تختلف كثيرًا حتى تلوم نفسك وتوبخها، عنادك في الحصول عليها أصابه الوهن؛ لقد فعلت كل ما في وسعك، واستخدمت جميع ما في جعابك من حيّل، لكنها لا ترضى إلا بالطريقة المُثلى، وهذا ما لم تستطعه.

*****

- مرحبا كريم.. ماذا تريد؟
- أريد رؤيتك والحديث معك في أمر مهم.
- بخصوص؟

غيّرت اللهجة قائلًا:

- ماذا حدث يا مراد؟ لك كامل حريتك في أن تعتبرني أسوأ إنسان على الأرض لكني في النهاية صديقك و أنت صديقي الوحيد.

صمت مراد لبرهة فقاطعت صمته قائلًا:

- سأنتظرك في مقهى مصر الجديدة المقابل لعيادة لمياء، سأكون هناك بعد عشر دقائق.
- أنا هناك من الآن.

صحت بنبرة مازحة:

- يبدو أني لست الوحيد الذي يحرق الحب فؤاده.. ما الذي جاء بك إلى هناك؟
- أجلس مع زغلول ننتظر صديقًا..
- من هو؟

أجاب مازحًا:

- صديق سيصل بعد أقل من عشر دقائق..

*****

أنت تدين لمراد بالكثير من الدعم النفسي، لكنه لا يمنحك حق رد هذا الدين أبدًا.. أخبرته بكل ما حدث فترة غيابه القصيرة نسبيًّا، كان يستمع ليبحث عن حلول ترضيك وتريح قلبك، هذه المرة الأولوية لك ولما تأمل، لن ينغص عليك أمنياتك ولن ينقد أفعالك بغية مصلحتك؛ أنت حر فيما أردت فعله، لست صغيرًا على كل حال.

أدرك مراد من حديثك أن نيرفانا تستغل الموقف لصالحها، ربما تلك هي الفرصة الوحيدة المتاحة لها لترد الصفعة الأخيرة التي صفعتها يد القدر لصالحك، والتي اكتشفت حيالها اقترابها من حافة الخيانة.. لن تشرع في حياة جديدة مشتركة معك وهي مهزومة أمامك، ستفكر كيف تقلل من شأنك بطريقة ملتوية، لتتظاهر بعد ذلك أن أفعال الزمن في الناس متعادلة؛ يوم كان لك، والآن عليك.

على كل حال لم يكشف لك مراد عمّا يختلج في صدره، وترك كل ما يجول بخاطره ويعتريه من ظنون ربما بعضها إثمًا، ثم عرض على مسامعك عرضًا طمأنك شيئًا ما...

- سأحضر معك لتطلب يدها من أهلها على أنني ابن عمك.. بهذا نكون قد عالجنا أول مشكلة.

أضاف مراد:

- نيرفانا نوع خاص جدًّا من النساء يا كريم، انس ما فعلته تمامًا.. أنا على يقين من أنها فعلت ذلك عمدًا بطريقة ما لتجبرك على سرعة الزواج منها.

اعترضت موضحًا:

- هذا مستحيل.. كيف ترتب لأن ألقاها صدفة في المكان نفسه الذي تنتظرني فيه علا تقريبًا؟ ثم كيف تغامر بعلاقتنا هكذا وتخاطر بنهايتها تلك النهاية السخيفة؟
- لا أدري.. إنه مجرد شعور ملِحّ بداخلي أنها خططت بصورة ما لكل ذلك.. على العموم هي لا تقدر على خسارتك أو ضياعك من يديها.

تأسفت وظهرت ملامح الخسارة على وجهك و أنت تقول:

- فات الأوان.. لقد افترقنا وحدث ما حدث.
- من زعم ذلك؟! إنها تريد أن تقتحم حياتها فقط وتؤكد لها بكل شراسة أنك متمسك بها، بل وستفعل المستحيل من أجلها، والدليل أنك أقنعتني أن أتقمص دور أحد أقاربك والحضور معك بصفتي فردًا من العائلة لطلب يدها.. صحيح أنها حيلة مكشوفة لها لكنها ستنطلي على أهلها ولا شك.
- ستنجح الحيلة، حتى وإن أخبرتهم بأنك صديقي، فأنت لست صديق عادي و إنما صديقٌ خاص.. لكن المشكلة الأكبر الآن أنها قد حظرت جميع حساباتي وسُبل تواصلي معها.

- يستحيل.. تأكد من كل حساباتها، ستجدها وقد تركت لك بابًا مواربًا لتلج إليها منه.

وعقّب قائلًا:

- هل لديها خط هاتف وحيد؟

التمعت عيناك وقلت متذكرًا:

- بل اثنان..

أمسك مراد بهاتفك ووضعه في يدك وهو يقول:

- أرسل لها الآن إذن على هذا الرقم، أخبرها أنك ستحارب العالم من أجلها، أعلمها بأهميتها في حياتك يا صديقي، إنها تحبك وأنت تحبها.. هيا ماذا تنتظر؟!

سرحت قليلًا أمام الشاشة الفارغة وقد ظهر اسمها في أعلاها؛ أردت أن تفكر أكثر وأنت في خطة مراد التي تبدو محكمة بسبب نبرته الواثقة، لكنه لم يدعك تفعل، وصاح فيك مرة أخرى:

- هيا يا صديقي.. الآن وإما لتنسَ أمرها للأبد.

أرسلت لها بما أشار عليك به، وظهر لك أن الرسالة قد وصلتها؛ هذه أولى أمارات صدق حدس مراد.. بالطبع لم تكن لترد في التوّ؛ ليس ذاك من ذكائهنّ، ولقد توقع مراد هذا أيضًا، لكنك كعادتك عجول ذو ريب.

في الصباح ردت برسالة مفادها أن التواصل في أمر زواجها يكون مع أبيها، وألحقت رقم هاتفه في نَص الرسالة، فحدثته أثناء يوم العمل لتعرفه بنفسك.. كانت تلك المرة الأولى التي تتعرف عليه فيها، فالرجل لا يحل بمصر إلا قليلًا أو في المناسبات، اتفق معك على بعض الأساسيات كالمهر ومؤخر الصداق وموعد العُرس، وترك التفاصيل الأخرى لتتفق مع أمها بشأنها، حتى لا يزيحها من المشهد أو لأن ذلك اتفاقًا قد رتّبوه معًا، فلقد ظهر لك من خلال مكالمته أنه لا يعلم بخلافاتك مع ابنته شيئًا، وكأن الأمور تسير على ما يرام بينكما وكما خططتما، وهذا ما أكد لك بالكامل صحة ما قاله مراد.

*****

بعد مرور ثلاثة أسابيع..

تأخر مراد عن بداية العُرس الذي حرصت أنت ونيرفانا أن ينعقد في أبسط صورة، استغللتما قلة المدعويين ليتم العُرس في فيلا الشروق حيث تقنط أمها؛ الحديقة في ساحة الفيلا تتسع للاحتفالات على كل حال، وقد كلفت نيرفانا بعض المتخصصين في تنظيم الاحتفالات والمناسبات بمعظم تجهيزات الحفل الصغير ليكون في أبهى صورة مصغرة لحفل زواج.

أما عنها، فكانت أجمل عروس من الممكن أن تراها في حياتك، كاملة الزينة، رقيقة التبرج، واختارت فستانًا مذهلًا، أرجواني اللون.. كانت ساحرة بحق، أحطن بها الصديقات المقربات منها ومن بينهنّ بالطبع لمياء، وحضر الحفل بعض من أقاربها وليس جميعهم، وحرص والداها على الظهور بمظهر راقٍ ومحترم، كأنهم زوجين حتى الآن.

يتبادل الجميع أطراف الحديث حول مناسبة جمعهم، وتشعبوا في الحديث لمفترقات من الطرق، فاختلفوا بذلك كعادة أي مجموعة من العرب يجمعهم مكان مغلق، لكن الكلمات الحاسمة لخلافاتهم كانت لصالح المأذون الشرعي، الرجل الوحيد الذي جاء معك.. لم يحثهم مباشرة على تعدد الزوجات، لكنه وضح لهم الأسباب التي أباح الله تعالى هذا الأمر من أجلها، فحدثهم عن الأرامل، والمطلقات، ومن تأخرن في سنِّ الزواج، وفي المقابل عن قلة أعداد الرجال بالمقارنة نظائرهم من النساء، وعن آثار زواج القادرين من الرجال بأكثر من امرأة في حالات عدة يجدر بها أن تصير أمثلة صالحة ونافعة للمجتمع ككل.

لكنّ النساء لم تلقَ لآرائه بالًا ولا اهتمامًا، وما منعهنّ من الاحتداد في الكلام معه إلا مركزه كرجل دين أولًا، يرتدي العباءة المميزة ويعتمّ العمامة القرمزية الأزهرية، وانشغالهنّ بالتقاط الآلاف من الصور واستعراض فساتينهنّ فيما بينهنّ وبين الحاضرين ثانيًا.

وحدك وسطهم جميعًا، قد بتّ قاب قوسين أو أدنى من الزواج للمرة الثانية، في ظل وجود الزوجة الأولى في حياتك، يمكنها أن تراك بخيالها الآن و أنت تخونها الخيانة العظمى باعتقادها.. إنها تشعر بأفعالك كما تعلم، كأنها حاسة إضافية قد فضّل الله بها النساء على الرجال، ولن ينطلي عليها فكرة السفر هذه المرة تحديدًا، لا لأنها ليست فكرة مقنعة، فأنت دائم السفر على كل حال، لكن لأن قلبها أخبرها ذلك وحسب. أما أنت، فالأسباب أسبابك، والمبررات تخصك وحدك دون غيرك، والمحاولات كلها توشك

أن تنتهي الآن بالتنفيذ والوصول لمبتغاك، رضي بتلك النهاية من رضي وغضب من غضب.. وها هي نيرفانا توشك على أن تكون زوجتك أخيرًا بعد ما نجحت في إسراع خطاك تجاهها، الآن تدعمك بكل ما أوتيت من حب.. كلما تلاشى وهج الحديث بينك وبين الجمع القليل أججته هي.

منذ أسبوعين قد تم الاتفاق على كل التفاصيل الاجتماعية بينك وبين أهلها، ولم تتعقد حبال الحوار بينكم، كنت تو افق على كل ما تراه باستطاعتك، وكانت نيرفانا تفعل أيضًا، فمشاركة أحدكما الآخر لنصف حياته المتبقية كانت مشاركة حقيقية في كل شيء.. نيرفانا امرأة جيدة، وجدت معها الحب، ومن ثَمّ وجدت الحب وجدت الراحة.

لو لم يتأخر مراد فإنه لن يأتي بتاتًا.. هذا شيء قد عرفته عنه منذ الأزل في الأحداث المهمة أو العابرة.. بدأ المأذون في سرد ديباجته المحفوظة لدى الجميع كمقدمة للحدث الذي ترتعش منه أنامل نيرفانا فرحًا وتوترًا، ويدق قلبك بقوة وبسرعة معلنًا الانتصار في رحلة البحث عن الحب، وعلى وجهيكما رضا المتحابين، وأمارات العشق الذي تأخر لسبب ما لا يعلمه كلاكما، رُغم كلمة أختها لمّا ر أتكما جالسين متقاربين.. "حقا لا يليق بمثلكما إلا تلك النهاية السعيدة!"، لكنّ للقدر مواعيده التي لا ترضينا في حينها.

أخيرًا استقبلته بحفاوة مغلّفة بالغيظ، وطلبت منه بطاقة هويته لأنه بالطبع شاهد على عقد الزواج.. كان متأنقًا مثلك تمامًا؛ لقد ابتاع معك بدلة رسمية تليق بهذه المناسبة خصوصًا من أجل إلحاحك عليه.. مشي بين الحاضرين بزهو مبتسمًا، فلقى إعجاب صديقات نيرفانا، لكنه لم ينظر إلا إلى لمياء، التي بدت هي الأخرى كطاووس مغرور بجماله، وجه لها التحية بإيماءة من رأسه، و اتخذ مكانًا بجانبك، يحذو كتفه كتفك، و ابتسامته ابتسامتك.

على أريكة واسعة ذات إطار ذهبي كنت و أبيها على جانبي المأذون، وتصافحت يُمناكما في ثقة، وشرع الرجل يردد خلف المأذون:

- زوّجتك ابنتي على سنة الله ورسوله.

فقلت بيقين وثبات:

- و أنا قبلت هذا الزواج.

وتعالت الأصوات والزغاريد بفرحة وسعادة، و ابتسمت الوجوه، وارتفعت الضحكات، وتناغم الحاضرين على الموسيقى، وتم توزيع الحلويات والمشروبات

المتنوعة، والجميع يسارع بالمباركة.. يصافحونك ويصافحونها، فتنتشر السعادة أكثر و أكثر بينكم.

لم يكن من اليسير الوصول إلى هذا المشهد الذي وثّقته كاميرات مراد ولمياء فقط، كانت تعليمات نيرفانا لكل الحاضرين أن لا صور اجتنابًا لأية أخطاء من شأنها فتح أبواب أزمة مبكرة بينك وبين علا.

أسرّ لك مراد وهو يحتضنك:

- لقد استحق الأمر كل هذا العناء يا صديقي.

ضممته بشدة وقلت في أذنه:

- عوضتني اليوم عن غيابهم جميعًا.. أنت أخي الذي لم تلده أمي.

*****

انسحب بسكينة إلى الشرفة الواسعة حيث وجد لمياء أخيرًا بعد ما تاهت لبرهة عن نظره أثناء مباركات الحاضرين للعروسين.. حمل كأسين من العصير وذهب ليقدمهما لها ولصديقتها التي شاركتها الشرفة.. لما اقترب أكثر بدا له أنهما يتحدثان، لكن ملامح لمياء كانت كأنها تتأفف بتملل.

اعتذرت المرأة عن قبول الكأس من مراد، وغادرت الشرفة إلى الحديقة مرة أخرى، بعد ما نزلت على خمس درجات من سلم رخامي عريض، و اندمجت المرأة في الرقصات على أنغام الموسيقى الشعبية.

ألقى مراد نظرة على صديقه الذي ما زال متحفظًا في حركاته، متحكمًا فيها لأبعد حد ممكن، وقال موجهًا سؤاله للمياء:

- هل قطعت حديثكما؟

فأجابت بابتسامة واسعة مرحبة بقدومه المتوقع:

- بل أنقذتني من تساؤلات وجودية لا انتهاء لها.. النساء أكثر زوّاري في العيادة.. لديهم ما لا يُحصى من المشكلات والتساؤلات.. كائنات معقدة كما تتفق معي.

علم من نبرتها ونظرتها بأنها ترمي لقصد ما هو يعلمه جيدًا، فهز رأسه متفقًا دون أن يتكلم.. رشفت من كأسها وأضافت:

- علينا أن نحتفل الليلة.
- مؤكد.. لقد قمتِ بما عليكِ القيام به على أكمل وجه.

- لم أخطط لشيء، لقد كان الموعد الأسبوعي الذي يجمعني بنيرفانا، لقد أقنعتها فقط أن تأتي هذه الساعة المبكرة لتنتظرني بالعيادة بدلًا من الانتظار بالمطعم الذي نعتاد العشاء فيه.. أرجو أن يستقر أمره ويهدأ باله الآن بعد ما سلبني أعز صديقاتي.
- سيحدث ذلك.. أنا أعرفه جيدًا. أخشى فقط أن يذوب بريقها سريعًا وتدور بهم الحياة كما تدور بالجميع، ثم يبدأ في البحث عن تحدٍّ جديد يخرب به حياته.

قالت مو افقة:

- إن له شخصية عنيدة متطلبة، لا ترضى بالوصول للقمة وحسب.. على الأرجح يصل للقمة ليتفقد إن كان هناك قمم أخرى عليه الوصول إليها أم لا.
- تقصدين أنه غير قنوع بما يملك.
- بل قنوع حتى يصادف الأفضل.. هذا ما يقع فيه منذ القصة الأولى لفتاة الحافلة أو المتجر تلك.. لقد استدرك بمعرفتها أنه لم يعش قصته الخاصة، أدرك أنه مر على مدينة الحب راكبًا قطار الحياة ولم يتوقف ليلقِ نظرة حتى، ثم استمر في رحلته الخاصة ولم يعلم أنه سيعود نادمًا يومًا ما بالقطار إلى المحطة ذاتها.

نظر مراد إليها بإعجاب قائلًا:

- أنتِ بارعة في تحليل الشخصيات.

بادلته النظرة نفسها و اتسعت ابتسامتها قائلة:

- إلا أنت.. ليتني لم ألقك يومًا حتى أستطيع القول بأني لم أخطئ قط!

قال هاربًا:

- لنعد لموضوع صاحبنا..

أدارت وجهها للحفل قائلة:

- صاحبك أنت، إنما هو مريضي.
- كما تشائين.. المهم أننا أنقذناه من فخ نهال و أبدلناه مكانها خير منها.

قالت معترضة:

- نهال أيضًا ضحية يا مراد.

- ضحية أو مجني عليها لا يهمني أمرها، ما يهمني أني أنقذت صديقي من فخاخها وألاعيبها التي ما كانت لتنتهي إلا بخراب بيته.. أما نيرفانا فامرأة شبه عاقلة على الأقل، لا تعليق لدي عليها سوى ما فعلته بكريم.

دوت ضحكة لمياء حتى ظن مراد أن جميع من بالحديقة سمعها:

- إنها شيطانة.. أقسم لك هي من فعلت ورتبت كل ذلك بمفردها.
- لقد خدعته وخدعتني وخدعتك.

استمرت في الضحك وهي تقول:

- نعم خدعتنا جميعًا! وليكن في علمك ما كان كريم ليقدر على الابتعاد عنها بسهولة والدليل ما حدث بعد ذلك.
- هذا الذي أثار حنقي منه.. الذي بدر منها لا يُفسر إلا بالخيانة، لكن ردود أفعاله كانت ضعيفة جدًّا كأنه.. كأنه أسير حرب.
- نعم صحيح هو كذلك بالفعل، أسير حرب دائمة بين قلبه وعقله، كانت تلك الحرب لتطول أكثر من ذلك لولا حسمتها نيرفانا بجهاز مخابراتها الماكر.

سكتت لبرهة ثم قالت:

- هل تعلم أن هذا الرجل الذي رآه معها كريم إنما هو زميل عمل في شركتها؟ كان ذلك اليوم هو اليوم الأخير له بالعمل معهم، وطلبت منه نيرفانا لقائها بكل جرأة في ذلك المقهى، كانت على علم بتحركات كريم و أنه سيصادفها لا محالة هناك.
- مخاطرة كبيرة وخطة محكمة منها.. لا أدري أذكية أم غبية؟!
- غبية بالطبع.. لكنها أتت أُكلها مع صاحبنا و انخدع بذلك.
- تودين رأيي.. أنا مطمئن على بيت علا ما دامت نيرفانا في حياة كريم.. هذه المرأة أجدر بالمحافظة على البيتين سويًّا.

تنفست الصعداء لتقول:

- و أنت يا مراد.. أما آن الأوان لتستقر ببيت وتنعم بعائلة؟

نظر إليها وقال بكل أسى:

- لقد كانت محاولة وحيدة يا عزيزتي ولقد خسرت بها قطعة كبيرة من قلبي، ربما كانت هي الجزء المسؤول عن الحياة بصورة طبيعية.
- ما زالت هناك فرصة للإصلاح، ولكنك عنيد.. والأقبح أنك لا تقبل أعذارًا.

- ليس كل ما تم كسره قابل للإصلاح يا عزيزتي.. لقد فقدت القدرة على ممارسة هذا النوع الخاص من الحب، لكني أنعم بصداقات رائعة مثلك ومثل زغلول وغيركما، كلها تعوّضني عن ذلك الشعور.. إنها الحياة، لا نستطيع أن نعيشها بصورة كاملة ترضينا مهما سعينا لذلك، لا بد من نقص ما، ولقد تصالحت مع نقصي هذا.

تصمت لمياء ولا تدري بما يتوجب عليها قوله، فتعود لما بإمكانها التحدث عنه بغير طريق مسدود معه، وتسأله عن زغلول، فيرد قائلًا:

- عجيب زغلول هذا! أعتقد أنه ما زال يتذكرك جيدًا.. أرأيتِ كيف فرح برؤيتك ليلة نزهة القارب؟!

ثم نظر مراد نحوك ليجدك تتمايل في خفة، ترفع قدمًا وتضعها على أنغام الموسيقى التي كانت مزعجة بالنسبة إليك منذ قليل، تطيح بقوانينك السابقة كي تسن قوانينًا غيرها تليق ببداية جديدة.

*****

تمت

مزاج الكتب
للنشر والتوزيع

ج.م.ع
الإسكندرية
Email: mazagelkotob@gmail.com
Mobile: 01024541339